الوقائع الحقيقية لحياةٍ مسرحية

(رواية وثلاث قصص)

الوقائع الحقيقية لحياةٍ مسرحية

(رواية وقصتان)

سعيد العَلمي

2024



الوقائع الحقيقية لحياةٍ مسرحية

(رواية وقصتان)

سعيد العَلمي

دار النشر Visión Libros مدريد.

لوحة الغلاف: غادة سلايمي.

حقوق لوحة الغلاف: سعيد العَلمي

©Título traducido del árabe: Los eventos reales de una vida teatral

© Autor: Saïd Alami

Primera edición: Enero, 2024

ISBN: 978-84-10039-09-4
Depósito Legal: M-82-2024

© Editado por VISION LIBROS www.visionlibros.com

Gestión, promoción y distribución: Grupo Editor Vision Net S.L.
C./ San Ildefonso 17, local, 28012 Madrid. España.
Tlf: 0034 91 3117696 // Email: pedidos@visionnet.es
www.visionnet-libros.com

Disponible en librerías físicas y online.

الإهداء

لكلّ مَن تـُوِّجَ بنقاءِ السريرة

لعل هذه الرواية تُساعده

على اتقاء شـر كل مُمثـِّلٍ صاحبِ أسرارٍ كبيرة وكثيرة

توطئة أولى

أعـدى عـدوِّك من وثـقـتَ بـه

فـحاذر الناسَ واصحبْـهُم على دَخَـلِ

فإنما رجلُ الدنـيا وصاحبـُها

مَـن لا يـُعـوِّلُ في الدُنـيا عـلـى رَجُـلِ

وشأنُ صِدقكَ عند الناسِ كِذْبـُهُـم

وهل يـُطابـَقُ مُـعْـوَجٌّ بـمـُعْـتـَدِلِ

❊ ❊ ❊

❊ من «لامية العجم» للطغرائي.

توطئة ثانية

ولـكَـمْ نـَثَـرْتُ مِـنَ الشّهـامَةِ في الوَرى

فـحَـصَدْتُ مـِنهُـمْ خَـيْـبةً وتَـنَـكُّـرا

لكِـنـّهُ طَبْـعي ولَـيْـسَ يَـسوؤنـي

لـُـؤمُ الأحبـّـة لا أشُـمُّ ولا أرى

يأتي اللـئيـمُ إلـيـكَ قـلـبًا غـاشِـمًا

والبـسمةُ الوضّـاءُ فـيهِ تـَنكّـُرا

***

* سعيد العلمي
من قصيدته «خيانة صديق».
من ديوانه « سنابل الحياة»، 2007.

تقديم

روايتي القصيرة هذه، التي كتبتها قبل 16 سنة، والتي تقع أحداثها في السنوات الأخيرة من القرن الماضي، هي، مثل كثير من القصص والروايات، مستلهمة مِن أحداثٍ بعضها واقعي ومِن شخوص بعضهم حقيقي.

وليس بطل الرواية، الدكتور زهدي أبو لفة، بالحالة الإجتماعية والأخلاقية الفريدة، فمجتمعات اليوم، من أقصى الأرض إلى أقصاها، تعج بأمثال زهدي ممن نفضوا عنهم كل زهد، وحولوا حياتهم إلى مسرح لا يكلون على خشبته ولا يملّون، نفاقاً وتزويراً وخداعاً، كل حسب حجمه ووفق موقعه، يلتقون جميعاً على سمات ثلاث لا تتبدل: فراغهم من ضمير وقلوب ميتة وأنانية مفرطة.

هذا الصنف من الناس، ممن يطفحون نرجسية، كانوا عبر التاريخ، وما زالوا، الداء العضال الذي يُنكِّد عيش البشرية ويُسبب لها معظم ما تمرّ به منه من ويلات وتعانيه من تعاسة. غير أن قدرتهم على التخطيط والتدبير، لاسيما في الخفاء، من أجل تحقيق مبتغايتهم ومآربهم، إضافة إلى عدم احترامهم لأية نواميس ولا أعراف ولا أخلاق، يؤدي بهم في النهاية إلى تحقيق ما يصبون إليهم، فهذا يشغلُ منصباً والآخر حقق ثروةً وثالثٌ صار حاكماً. وكثيرون آخرون منهم، في مختلف أصقاع الأرض، يتحكمون برقاب الملايين من الناس البسطاء الطيبين، بشكل أو بآخر، بما في ذلك أقرب المقربين إليهم.

ويتعين علينا التمييز بين أولئك النرجسيين الذين حققوا لأنفسهم مجداً مشهوداً له، في أحد مياد ين العمل أو المعرفة أو الإبداع، وهؤلاء يشكلون أقلية صغيرة، وآخرون منهم لم يحققوا من ذلك شيئا، لا بل عادة ما يكونون دون المستوى المتوسط سواء كان ذلك في العمل أم في المعرفة أم في الإبداع، ويشكل هؤلاء الغالبية العظمى من النرجسيين.

فعندما يقول المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صممُ
الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ
سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
بأنني خير من تسعى به قدمُ

فإن أحداً لا يلومه وقد طبقت شهرته الآفاق -عن جدارة-، سواء في عصره أم في الحقب المتعاقبة بعده، فهو، في خضم نرجسيته، إنسان تفوق وبزّ أترابه وشعراء عصره وعصور أخرى سابقة ولاحقة. هذا إضافة إلى أن الشعر معروف بأنه من مرابض المبالغة والتعظيم، وأن الأدباء -لاسيما الشعراء- أكثر الناس تعبيراً عن نرجسيتهم ومُفاخرةً بها، إلا أ نها نرجسية فكرية نافعة، تخدم المجتمع، ونادراً ما تُلحق الضرر بأحد، فيمكن اعتبارها، والحالة كذلك، نرجسية سلمية أو مسالمة، لشريحةٍ فكرية طليعية، في كل المجتمعات.

أما النرجسية التي نحن بصددها في هذه الرواية فهي مدمِّرة، ويمكن أن تُلحق سيولاً من الأضرار الجسيمة بالأشخاص الذين يتعاملون مع صاحبها، بل ويمكن لبعض أصحابها من المصابين بجنون العظمة أن يشنوا الحروب ويرتكبوا المذابح ويدمروا المدن ويستبيحوا الشعوب، كل هذا دون أدنى شعور بالذنب أو بالعار أو حتى بارتكاب خطأ،

ذلك أن هذه الفئة من النرجسيين لا يقيمون أي وزن أو قدر أو اعتبار لضحاياهم، متذرعين بحججٍ ما أنزل الله بها من سلطان.

والإشارات إلى النرجسيةً وإلى ضرورة الإبتعاد عنها كثيرة في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، ولعل الآية 18 من سورة لقمان هي الأكثر تعبيراً وتحذيراً فيما يتعلق بهذا الموضوع: «ولا تصعِّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحـًا إن الله لا يحب كل مختال فخور». ومن السنة الحديث الشريف:»لا يدخل الجنة من في قلبه ذرة من كِبر». أي –حسب المفسرين– من في قلبه ذرة احتقار للناس.

هذا غيْض من فيْض عن حقيقة النرجسيين وطبيعتهم المُسرطِنة لكل من يحتك بهم. لذلك، قرّائي المُبجّلين، إذا كان في حياتكم ثمة نرجسيّ أو نرجسيّة، أنصحكم بحرارة بالإبتعاد عنه، أوعنها، بأسرع ما يكون وبقدر ما تستطيعون مسافةً وزمانـًا، حماية لأنفسكم. فإن لم تفعلوا ولم تبتعدواعنهما فإنه لا يتبقى لي سوى أن أدعو الله أن يحيطكم برعايته.

أما أن تكون أحداث الرواية ذات إطار عربي اغترابي، وبالذات إسبًاني، فقد عُرفت أعمالي الأدبية، سواء القصصية أم الشعرية، بأنها كثيراً ما تتخذ من إسبانيا، ولا سيما مدريد، إطاراً لها. ولا عجب في ذلك وقد قضيت حتى الآن أكثر من نصف قرن من حياتي في هذه البلاد الرحيبة وهذه المدينة الحبيبة.

سعيد العلمي

مدريد، ديسمبر 2023

1

المفتش أما دور جارثيّا
يبحثُ عن الدكتور زُهدي

حدث ذلك ظهر يوم من أيام شهر مارس عندما كنتُ أقوم باستقبال مرضايَ في عيادتي في المستشفى المركزي في مدريد، بعد عطلة نهاية الأسبوع. وكنتُ بانتظار دخول المريض التالي عندما أطل عليّ من الباب المفتش أمادور جارثِيّا، وهو من ضباط الشرطة الجنائية المرموقين في مدريد، وكان منذ نحو سنتين واحداً من المرضى الذين يترددون على عيادتي مما أدى إلى وجود ثمة نوع من الصداقة بيننا، فنهضت من مكاني مرحِّبا به، غير أنني فوجئتُ بتجهّم اعترى وجهه وجِدّية لم يسبق أن رأيتها فيه، فقلت له متوجِساً:

- خير يا صديقي أمادور؟ أرجو ألا تكون حالتك الصحية هي سبب تجهّمك.

فرد عليّ محاولا أن يكون لطيفا معي قدر المُستطاع -وما اعتدت منه منذ أن عرفته سوى اللطف والود-:

- لا تقلق عليّ عزيزي دكتور سفيان، فلا علاقة لك كطبيب ولا لصحتي بهذه الزيارة.

وأقلقتني إجابته إذ لم يتنحّ بعدها شيء من تجَهُّمه.

- ما الخطب يا صديقي؟ لقد أقلقتني فعلاً.

- لا أريد أن أشغلك عن عملك. متى تنتهي من استقبال المرضى؟

- نصف ساعة تقريبا.

- سأنتظرك في مقهى المستشفى. لا تتأخر أرجوك.

- رجاءاً قل لي ماذا يوجد وراء زيارتك هذه.

فقال لي رابتاً على كتفي بلطف ومحاولاً أن يبتسم:

- لو أخبرتك بذلك لما تمكنتَ من الاستمرار في استقبال مرضاك. أفضّل أن أتركك قلقاً على أن ألغي تركيزك كله. وعلى أية حال أطمْئنك أن الأمر لا يتعلق لا بي ولا بك.

قال ذلك وفتح الباب وانصرف، دون أن يدع لي مجالاً لمزيدٍ من النقاش.

وأكلني الشك والقلق بينما كنت أنتهي من استقبال ما كان قد تبقى من مرضاي في قاعة الإنتظار. وفي أثناء ذلك كنت أحاول أن أبدو رابط الجأش محتفظا باتزاني المعهود أمام الآخرين. كانت الحيرة قد استبدت بي، فما خطب المفتش أمادور وهو يزورني كشرطي لا كصديق ولا كمريض، فقد كان واضحاً لي أن زيارته تلك كانت بصفته ضابط شرطة. وما علاقتي أنا بالشرطة؟ لم يكن لي بهم ثمة علاقة منذ أن وُلدت، والحمد لله.

وما أن خرج آخر مرضاي من العيادة حتى هرولتُ إلى مقهى المستشفى لا ألوي على شيء. ووجدته ينتظرني على إحدى الطاولات، فنهض للتو إذ رآني، وصافحني متبادلاً معي عبارات التحية، فجلستُ وكان التجهم هذه المرة من نصيبي، بينما كان هو قد نفضَه عنه واحتفظ بالجِدّيّه.

وبادرتُه سائلاً :

- ما ذا حصل، سنيور أمادور؟ هل ثمة مشكلة؟

ونظر إليّ مليّاً قبل أن يقطب ما بين حاجبيه:

- إنه زميلكم الدكتور زُهدي.

ولا شك أن الضابط لاحظ انفراج أساريري إذ وقعتُ على سبب زيارته، في الوقت الذي لم تكن تهمّني فيه سيرة صاحب ذلك الإسم بعد أن كنت قد سئمتُ من دسائسه ومكائده ومشاكله. لكنني عجبتُ

من انتهاء أمر الدكتور زهدي إلى الشرطة مع أنني توقعت ذلك في الماضي لأكثر من مرة.

وسألته بشيءٍ من الإهتمام:

- الدكتور زهدي أبو لفّة؟

- نعم هو، زهدي أبو لفّة.

وانتظرتُ أن يُكمل كلامه.

- إننا نبحث عنه لاعتقاله بعد أن تعرّض صديقك الصحفي سليم عبد السلام لإطلاق النارعليه.

ووجدتني أقفز من مقعدي كما لو لسعني عقرب، مما قذف بكرسيّي إلى الأرض، مُحدِثاً صوتاً قوياً ومُلفتاً نظر الحضور واستهجان بعضهم.

- ماذا تقول؟ الدكتور زهدي أطلق النارعلى سليم عبد السلام؟ وكيف حال سليم؟ ماذا حصل له؟

ونهض أمادور بدوره وقد فاجأه ما أحدثه الخبر مِن صدمة لي، وحاول تهدأتي:

- صديقك سليم بخير. لقد نقل إلى المستشفى، ولكنه بخير ولا خوف على حياته. ولم يقم زميلك زهدي بإطلاق النارعليه، بل قام بدفع المال كي يغتالوه.

- ماذا!؟ ماذا تقول!؟

- رجاءاً إجلس دكتور سفيان.

والتقطتُ الكرسيّ من الأرض وعدتُ للجلوس وأنا أكاد أفقد صوابي بينما كان المفتش أمادور يجلس من جديد. وسألته وأنا في حالة من الذهول بينما كانت تتضارب الأفكار والذكريات في رأسي:

- هل قلتَ أن الدكتور زهدي إستأجر قاتلا؟

وردّ عليّ الضابط بنبرة المتفهّم لحالتي محاولا تهدأة روعي:

- نعم، هو كذلك. ولكن أرجوك أن تهدأ فصديقك بخير.

- أكاد لا أصدق كل هذا.

- بل صدِّق يا صديقي. لتنفيذ غرضه قام زميلك ومواطنك زهدي بالسفر إلى أمريكا اللاتينية وكلف بالمهمة عصابة من هناك. المجرم المتورط جاءنا من كولومبيا.

- هذا الوغد. ألهذه الدرجة يصل في حقده وغِيِّه!!

- لقد تمكنّا من اعتقال المجرم الذي قام بإطلاق النارعلى صديقك، وقد اعترف بأن عصابته تلقت المال من زميلك زهدي. الجريمة وقعت يوم السبت، ولقد حاولنا اعتقال الدكتور زهدي لكننا لم نعثر عليه حتى الآن. البحث جار عنه ولن يفلتَ منا.

ورَدّدت بغير وعي:

- الحقير. لقد فعَلها.

- إذن فأنت لا تستغرب فِعلته تلك.

- بل أستغربها جداً، رغم علمي أنه يكره سليم كرهـًا شديداً.

- حسنـًا دكتور سفيان، سنكون بحاجة ماسه لشهادتك، ولكن قبل ذلك نحن بحاجة ماسة لأن تزودنا بكل ما لديك من معلومات بشأن حياة زميلك زهدي وعلاقته بك وبصديقك سليم. لقد بلغنا أنك أقرب الناس إلى كل منهما.

- ليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالدكتور زهدي، والصحيح أنني من أكثر الناس معرفة به وليس قربـًا منه. ولكن حسنـًا. سألبي طلبك، علّه لا يغادرالسجن لسنوات كثيرة.

- بكل تأكيد. إطمئن. إنني مكلف بطلب تقرير مفصل منك يتضمن كل ما تعرفه عن حياة المشبوه وعلاقته بالسنيور سليم. نريد هذا التقرير بشكل مستعجل. هل ممكن أن تساعدنا في ذلك؟

– طبعـًا. سأساعدكم. سأفعل كل ما بوسعي.

– نريد تقريراً مستـفيـضـًا عـنه لو أمكن، نحن بحاجة لكل معلومة يمكن أن تزوّدنا بها، مهما تبدو لك تافهة. إننا نشك بتورُّطِه بمسائل أخرى وتحرياتـنا عـنه لا تقتصرعليك يا صديقي، بل تـشمل أصدقاءاً آخرين له، رجالاً ونساءاً.

– حسنا تفعلون. إلى أية مستشفى نقلتم صديقي سليم؟

– إنه هـنا، في هذه المستشفى، في الغرفة446 . عندما تفـرغ من الكتابة اتصل بي وسيأتيك في العـيادة زميل لي ليتسلم تقريرك عن الدكتور زهدي. وعلى فكرة، لقد وضعنا اثنين من رجال الشرطة لحراسة صديقك لأن المجرم المُكلف بقتله اعترف لنا بأن عصابته تتقاضى مبلغـًا كبيراً من المال عن كل تكليف بالقـتـل واعتادت على إرسال قاتل آخر ليتمّـم المهمة في حالة فشل المكلف بها أصلاً، وفي حالة فشلٍ ثانية يرسلون ثالثـًا ليقوم بتنفيذ المهمة وتنفيذ الجريمة.

واشتّد تجهّمي إزاء ما كنت أسمعه بينما كان المفتش أمادور ينهض ويصافحني. وانصرف الرجل تاركـًا إياي في حالة ذهـول ما أن خرجت منها حتى هرولت مسرعا إلى الغرفة 464 حيث وجدت شرطيـًا بالباب وآخر داخل الغرفة.

❊ ❊ ❊

2

الطالب الجامعي زُهدي أبو لفة

مدريد، 12 مارس 2007
سنيور أمادور جارثيّا
المفتش في مركز شرطة شمال مدريد

تحياتي صديقي المفتش

إسمح لي أن استغل ما طلبته مني مِن كتابة نصّ مستفيض عن علاقتي وعلاقة صديقي سليم عبد السلام بالدكتور زهدي أبو لفة، وعن كل ما أعرفه عن حياة هذا الرجل، كذريعة أقوم بها بتحرير كل ما يعتمل واعتملَ في صدري بشأنه طيلة سنوات وسنوات، لأزوّد به كل من يرغب في معرفة حقيقة هذا الطبيب، الذي أعتبره ممثلاً مسرحياً بارعاً وصاحب ألف وجه. فبجريمته هذه معتدياً على صديقي سليم أشعر أنه قد طفحَ كيلي تجاههُ حقاً، سواء في قلبي أم في مقدرتي على تحمّل كل المشاكل التي حفلت بها حياته، والتي لطالما أساءت لسمعتنا نحن كعرب –لاسيما كأطباء عرب– في هذه الديار.

لقد تمادى الدكتور زهدي وخرق كل الخطوط الحمراء تجاه صديقي سليم عاماً بعد عام، منذ أن نشب بينهما خلاف تأكدتُ بنفسي أنه نجَم عن طعنةِ خيانة تلقاها سليم في الظهر ممن كان يعتبره لسنوات صديقاً حميماً. وليس هذا استنتاجي أنا فحسب بل هو أيضا ذات الإستنتاج الذي توصّلَ إليه كل من عرف الرجلين عن قرب.

وقد مضت السنوات الأخيرة وأنا أرقبُ عن كثب كيف كان زهدي يجول ويصول مُطلقاً الإشاعات عن صديقي ومُحاولاً تشويه سمعته

بين أناس تعرّف عليهم أصلاً بفضل سليم، مختلقاً عنه الأكاذيب. كما أن زهدي هذا قد رفضَ طيلة هذه السنوات طلب عدد من الأصدقاء مواجهة صديقي وجهاً لوجه، بل واعتاد أن «يهرب» من أي مكان يجمعه صدفة بسليم، تفادياً للوقوف أمامه وخوفاً من أن تكشف مثل هذه المواجهة في حضرة شهود كذِبَ الطبيب وافتراءاته.

وقد قام الطبيب زهدي باستغلال صديقي لتحقيق مصالحهِ الشخصية سنة بعد سنة، كما فعل مع آخرين غيره على مَرِّ حياته، ثم قام في نهاية المطاف باختلاق مشكلة حبكها -رغم دهائه- بطريقة جاءت غاية في السّذاجه، استغلها ليقطع علاقته الطويلة بصديقي من أجل أن يتخلص من كل الإلتزامات المهنية والمعنوية تجاهه. ولم يكتف بهذا، إذ راح يروي للقاصي والداني أن صديقي سليم طعنه في الظهر وأنه لهذا السبب قطع علاقته به.

وواقع الأمر أنني لم انخدع لحظة واحدة بادعاءات زهدي، بل و تمكنتُ من التأكد من زيفها، لاسيما بعد أن ضغطتُ على سليم كي يروي لي حقيقة ما حدث وهو الذي ظل صامتاً لا يعلق من بعيد أو قريب على هذه القضية رغم عِلمه بالإشاعات التي كان يطلقها عنه الدكتور زهدي ورغم اطّلاعه على التدخلات والضغوط التي كان الطبيب يمارسها بإلحاح -وما زال- لدى بعض أصدقاء ومعارف سليم، بشكل صريح وسافر، كي يقطعوا علاقاتهم الشخصية والمِهنية به.

نعم، لقد وصل الحدّ بالدكتور زهدي إلى بذل قصارى جُهده لقطع علاقات سليم بأصدقائه ومعارفه، لكن معظم هؤلاء كانوا يروون لسليم ما كان الدكتور زهدي يرويه لهم عنه، مُحجمين عن الاستجابة لطلبات زهدي وضغوطه، لاسيما وأن صديقي معروف جداً في الأوساط العربية في مدريد، خاصة الثقافية منها، إضافة إلى تمتعه بعلاقات اجتماعية ومهنية واسعة النطاق سواء بين الإسبان أم العرب

بصفته صحفيا وكاتباً معروفا بينهم، هناك منهم من عرفه منذ أن كان شاباً يانعاً في بداية حياته الجامعية في مدريد.

***

إلتقيت بزهدي أبو لفّه لأول مرة منذ نحو خمس و ثلاثين سنة عندما كنا طالبيْن في كلية الطب في جامعة غرناطه، وبعد الشهور الأولى من تعرفي عليه وإقامة علاقة صداقة سطحية معه أصبحت أتفادى اللقاء به وأفضل عدم التعامل معه لِما شاهدته فيه من تمَلّق ونفاق للزملاء من مواطنينا ممن كنا نعرف عنهم يُسر حالتهم المادية، وهو الذي كان طالباً فقيراً، إذ كان يعتمد في الدراسة على شقيق له من الموظفين المتواضعين في بلادنا. وكنتُ أبرع في تفاديه وفي وضع العراقيل بوجهه كلما حاول التقرّب إليّ بأساليبه الملتوية. كنتُ أكتفي بملاحظته عن كثب وكانت أخباره تصلُني عبر زملاء وأصدقاء عرب في الكلية.

وعندما كان في السنة الثالثة من دراسته الجامعية فوجئتُ بمن جاءني يطلب المساعدة المادية لزهدي مخبراً إياي أن شقيق هذا الأخير قد انقطع عن إرسال المعونة المادية له بسبب تدهور ظروفه المادية. ومرت سنة على الأقل كان الطالب زهدي يعاني منها ضنك العيش مما أثار شفقتنا عليه، فكنا نساعده كلٌ حسب طاقته على أمل أن يجد حلاً لحالته المادية تلك.

وببداية السنة الدراسية التالية فوجئنا نحن الطلبة العرب في الكلية بزهدي أبو لفّه جديد، لا عهد لنا به، إذ أن حالته المادية كانت قد تغيرت جذرياً لتُصبح أكثر من ممتازة. وتحرّى بعضهم الأمر فلم يجد له تفسيراً لاسيما وأن زهدي لم يعد يختلط بزملائه العرب، إذ لم يعد بحاجة إليهم، بل وبدأ يتهرب منهم ويبتعد عن أولئك الذين كانوا بمثابة السند والعون له في أيام محنته. وأدّى تصرفه ذاك إلى إثارة حفيظة من كانوا قد ساعدوه دون مقابل في سابق عهده، وانبرى

بعضهم يراقبه لاسيما وأن شُبهات عدة ومختلفة بدأت تحوم حوله.

لكن الطامة الكبرى كانت في اكتشاف أن الفتى الوسيم كان قد أقام صداقة حميمة مع امرأة ثرية صاحبة ماخور معروف في المدينة، وأنها قامت باستخدامه لمساعدتها في إدارته فأصبح يقيم معها في جناح خاص بها في الماخور الذي كان يعمل على مدار الساعة يومياً ويشغل طابقا كاملا في إحدى أعلى البنايات في المنطقة التجارية وسط غرناطة. وقام أحد زملائنا في الكلية بالتحقق بنفسه من ذلك «الإكتشاف». ودرّت على زهدي «مهنته» الجديدة المخزية تلك في سنوات دراسته اللاحقة أموالاً سمحت لهُ بتكملة علومه حتى تخرّج طبيبا. ولم يشأ أحد منا التدخل لديه كي يكفّ عن مزاولة تلك المهنة القذرة، فقد حدث أن سأله زميل ساذج من زملائنا، كان يريد إسداء النصيحة له، عما إذا كان حقاً يزاولها كما كان يشاع عنه، فما كان من زهدي إلا انهال عليه بالشتائم حتى اشتبك كلاهما بالأيدي والأرجل في مقهى الكُليّة.

وروى لي أحد الزملاء، ممن كان بينه وبين زهدي صداقة قوية لردح من الزمان، أن هذا الأخير كان قد صارحه بأنه إنما كان يطمح للحصول على شهادة الطب لاعتقاده الراسخ بأنها الوسيلة الوحيدة الكفيلة بفتح أبواب «عُلّية القوم» له على مصراعيها. كان يتوق بكل جوارحه إلى الخروج مما كان يعاني منه منذ نعومة أظفاره من حِرمان وقهر طالما شحَنا نفسه وعَقله بمشاعر النقمة على غيره من الناس ممن كان يرصدهم ويَحسَبهم رافلين بأثواب السعادة، من أصحاب المناصب والوظائف الرفيعة وأبنائهم وعائلاتهم. واعترف زهدي لزميلنا ذاك أنه تشبع بتلك الأفكار «الطموحة» من مشاهدته في صباه لعدد من الأفلام التي تزخر بها السينما المصرية والتي تحققَ فيها ارتقاء الشاب الفقير البائس إلى صفوف «علية القوم» بشتى الطرق المتاحة، لا سيما الأثيمة منها.

وتحققتُ في الكثير من المناسبات في سالف الأيام والسنين التي عشناها بعد ذلك من صحة ذلك الكلام، ومن أن قلب هذا الرجل كان خاوياً زهدياً إلا من عِشق نفسه حدّ العبادة، وأنه لم يكن في قلبه للآخرين، كائناً من كانوا، سوى مشاعر اللامبالاة أو الإزدراء. وكان، وهو المنحدر من عائلة متواضعة ومغمورة، يتوق ويتحرّق رغبة في مُجالسَة أصحاب الجاه والمال وفي أن يصبح واحداً منهم.

وقضى زهدي السنوات المتبقية من دراسته يرتع وسط المومسات ويلقى من عشيقته الثرية أصناف الرعاية والمحاباة والدلال، ولطالما شوهدا في شوارع ومقاهي المدينة وملاهيها يتأبط ذراعها وتتأبط ذراعه كأسعد ما يكون العشاق. وفاحت رائحة الرجل في الجامعة وخارجها على مر الأيام وأصبحت سمعته في الحضيض وانفض عنه كل الزملاء العرب كما ابتعد هو عنهم.

وبحصوله على الشهادة الجامعية قرر الدكتور زهدي الإنتقال إلى العاصمة، مدريد، للتخصُّص، وهو اختيار آثر فيه الإبتعاد عن منطقة غرناطه التي كانت مزاولته لمهنته السرية تلك قد جعلت له فيها معارف كثيرون لا يعرفونه إلا من خلالها. وكان يتوق إلى تغيير حياته في المدينة الكبيرة التي لم يكن يعرفه فيها أحد. أما عشيقته وربة نعمته فقد استيقظت يوماً لتجده وقد اختفى من حياتها إلى الأبد فقصدت الجامعة، ملتاعة مكتئبة، تسأل زملاءه عنه لكنها لم تعثر هناك على أحد يعلم عن وجهته شيئا، فقد تعمد أن يختفي من غرناطه دون سابق إشعار لكائن من كان.

وفي مدريد التحق بالمستشفى المركزي كطبيب مقيم ليقضي فيها سنوات التخصص. ووجد نفسه وقد أصبح طبيبا، بين المئات بل الآلاف من الأطباء، أبعد ما يكون عن تحقيق أحلام الثراء والشهرة التي كانت تراوده منذ سنيّ المراهقة. وكان مستعداً للجوء إلى أية وسيلة من أجل تحقيق غايته.

وكنتُ على عِلم تام بتحركاته آنذاك، لأنني وعددٌ ممن تخرجنا من نفس كلية الطب كنا قد انتقلنا بعد تخرجنا إلى مدريد أيضًا، وكنت قد تخرجتُ قبله بسنة وانتقلت إلى مدريد والتحقتُ بنفس هذه المستشفى التي التحق بها الدكتور زهدي بعد تخرجه. فكنتُ والحالة هذه الشخص الوحيد في هذه المؤسسة الطبية الكبيرة الذي كان على علم تام بماضي هذا الطبيب. ولهذا السبب فقد كان الرجل يتقّرب مني بمناسبة وغير مناسبة، ولم أكن استطيع تفادي إقامة علاقة سطحية معه لاسيما وأننا كنا الطبيبين العربيّيْن الوحيديْن في المستشفى. وآثرتُ تناسي الماضي مُعللاً نفسي بأن الرجل بدأ حياة جديدة وأنه ليس من حقي أن أقف حجر عثرة في طريقه وهو يبحث عن مستقبل شريف له.

* * *

3

الدكتور زهدي والمواخير

لم يكن قد مر على تعيين زهدي زميلاً لي في المستشفى سوى سنة وبضعة شهور عندما شاءت الأقدار أن تطرُق باب عيادتي إمرأة بحاجة لعلاج كغيرها ممن يطرقون باب العيادة. وعرفت منها أنها هاجرت لمدريد من قرية في الشمال الإسباني قبل ذلك بسنوات. وبالطبع فإنها كانت تعرف من مجرد قراءتها لإسمي أنني طبيب عربي.

ولم تكن تلك المرأة، واسمها كارلا، سوى مومِساً من عشرات الآلاف من المومسات اللائي كانت تعجّ بهن دور الدّعارة والشوارع المدريدية واللائي ارتفع عددهن على مرّ السنين إلى أضعاف ما كان عليه في تلك الحقبة من الزمان. وكانت المرأة تعاني من مرض استدعى ترددها على عيادتي المرة تلو المرة، وكم كانت دهشتي وهي تخبرني في إحدى زياراتها أن طبيباً عربياً يقوم بالإشراف على العناية الصحية بها وبزميلاتها، وأنه فحَصَها مراراً في الماخور الذي تعملُ فيه في شارع بريتثيسا، وسط مدريد، دون أن ينتبه إلى إصابتها بالمَرض الذي جاءتني من أجل علاجه. ثم أضافت باشمئزاز أن اهتمامه بصحتهن كان آخر ما يعنيه من وجوده بينهن، مع أنه كان يتقاضى من صاحب الماخور أجراً شهرياً سخياً لقاء رعايتهن الصحية.

وثارت حميّتي العربية وأنا أسمع ذلك الكلام المُهين لي كطبيب عربي، فقلت لها دون أن أخفي انزعاجي من كلامها:

- سينيورا كارلا. لا شك أنك مخطأة في جنسية الطبيب فليس بين العرب أطباء ممن يقبلون بوظيفة في مواخير.

فألحّت المرأة بعناد:

– بل هو عربي يا دكتور. إنني متأكدة من ذلك كما أنا متأكدة أنك أيضا عربي. وأرجوك ألا تظن أن لي أي موقف ضد العرب، بالعكس، فلطالما أحببتكم أيها العرب.

قالت ذلك وغمزتْ بعينِها مبتسمة لي ابتسامةً أنثوية ذات مغزى، فتجاهلتُ ذلك ووجدتني أسألها عن اسم ذلك الطبيب وكلي رغبة بتكذيب إدعائها. وذكرت لي اسمه كاملاً، فلم أملك سوى الصمت. لكنني أصررت ألا أصدّقها رغم شعوري الداخلي بصِدقِها. وطلبتُ منها أن تصف لي هيئة ذلك الطبيب ففعلت وبكل دقة وإسهاب، فكانت كأنها تتغزل به أمامي، مُرَكِّزَةً بشكل خاص على قامته الفارعة التي تقارب المتر وتسعين سنتيمترا، وعلى طلعته الفارهة ذات السُمرة الخفيفة والعينين السوداويْن والشعر الطويل الحالك السواد، والذي كثيراً ما كان ينسدل على جانبي وجهه وأحيانا يربطه بربطة صغيرة خلف رأسه، والشارب الكث واللحية القصيرة. كان ذلك الطبيب دون مجال للشك هو زميلي المشؤوم زهدي أبو لفه، ولكنني تمسكت بتكذيب تلك المرأة، وهو ما أزعجها نوعـاً ما. وبعد ذلك بأيام جاءتني بالدليل القاطع على هوية الطبيب، وهي صورة لها معه، ولكنها كانت تجهل زهدياً أن ذلك الطبيب يعمل على بعد أمتار قليلة من عيادتي.

وكتمتُ هذه المعلومة إلّا عن أصدقائي المقرّبين، زملائي في كلية الطب سابقاً والذين كانوا، أسوة بي، لا يكِنّون لزميلهم السابق في الكلية، الدكتور زهدي، إحتراماً يُذكر. ولم أفاتِح زهدي باطِّلاعي على سِرّه ذاك إذ كنتُ أؤجل الموضوع كلما قابلته في المستشفى، فقد كانت مسألة من شأنها أن تشكِّل غاية الحَرج لي وله، ناهيك عن قرفي من الحديث معه في مثل ذلك الموضوع.

ومرّت سنتان قبل أن تعودَ تلك المرأة، كارلا، من جديد إلى عيادتي. وحال انتهائي من وصف علاج لها، وعندما كانت تهمّ بالإنصراف، إذ بها تقول لي بشيء من التهكّم:

- مبروك يا دكتور.

وسألتها عن سبب تلك المباركة فقالت لي بنفس نبرة التهكم:

- مُواطِنك الدكتور زهدي.

- مرة أخرى الدكتور زهدي؟ ما به الآن؟ ألم نكن قد نسيناه وانتهينا منه؟

- أصبحَ يملك ماخوراً.

وبدا لي جلياً أنها قالت ذلك نكاية بي وأنا الذي كنتُ قد استهجنتُ واستنكرتُ أمامها، بل وكذبتها قبل ذلك بسنتين، أن يكون هُناك طبيبٌ عربيٌ قادرٌ في يوم ما على أن يعمل موظفاً في ماخور، فكأنها كانت تقول لي وهي تحمل لي الخبر الجديد أن أنظر إلى زميلك العربي فهو ليس فقط قادرعلى العمل مأجوراً في وكر للدّعارة، بل وأصبح هو صاحب وكرْ. ولم أجرؤ على استنكار قولها أو حتى مجرد استهجانه تلك المرّة. ووجدتُني أسألها بشكل عفوي لم أكن قد فكرت به قبل طرح السؤال:

- وهل انتقلتِ للعمل معه؟

واستغربت كارلا من سؤالي، وتأخرت لهنيهة قبل أن تجيبني بشيء من السخرية:

- أنا أعمل معه؟ أنت لا تعرفه جيدا على ما يبدو يا دكتور. إنه بخيل جداً، ولقد استخدم عنده عدداً من النساء المُهاجرات ممن يقبلن بأية أجور.

وتحققتُ فيما بعد من صحة ذلك الخبر الشنيع عندما اصطحبتني تلك المرأة، بطلب مني، إلى ماخور الدكتور زهدي، دون أن أقدم على الدخول إليه، فإنني لم أجرؤ على الدخول إلى أوكار الرذيلة تلك طيلة حياتي. ولم يكن لي من هدف سوى التعرف على موقع بيت الدعارة ذاك، فوجدته في مبنى صغيرمستقل، حديث البناء، يقع على بعد نصف

ساعة بالسيارة من قلب مدريد، على جانب الطريق وعلى منتصف المسافة إلى طليطلة. وقمت بعد ذلك بتكليف شاب من معارفي من إحدى بلدان أمريكا اللاتينية بزيارة ذلك الماخور والتحقق من الفتيات العاملات فيه من هوية مالكِهْ. وهكذا كان، وجاءني ذلك الشاب بالخبر اليقين، مؤكدا لي أن الدكتور زهدي هو بالفعل صاحب وكر الدعارة ذاك.

ولم أبْدِ أيَّة علامة أمام الدكتور زهدي تسمح له بالإطّلاع على معرفتي بأسراره، وكنتُ أقابل إقباله عليّ هاشّا باشّا بالفتور الذي اعتدتُه لدى التقاءنا عرَضاً منذ أيام الدراسة. وعاودني الشعور بالقرف الشديد تجاهه كلما شاهدته أمامي، زهديا كما كان يحصل لي أيام الدراسة الجامعية عندما كنت أعلم أنه يعمل في الدعارة.

كنتُ في حيرة من أمري، هل أصارحه بحقيقة اطِّلاعي على أسراره المخزية أم أخفي ذلك خوفاً من ردة فعله المحتملة تجاهي والتي كنتُ -والحقُّ يقال- أخشى عواقبها، فالرجل مراوغ محترف، ولديه مقدرة بارعة على التمثيل، فتراه يتبختر في المستشفى كما لو كان أثرى رجل في العالم، ولا يدع زميلاً أو زميلة ولا مديراً أو مديرة إلا وتملّقَهم بشتى الوسائل التي يمكن أن تخطر ببال.

ومرّ شهران قبل أن أفاتح بهذه القضية -التي كانت تقلقني- ثلاثة من أصدقائي وزملائي من خريجي كليّتي ممن كانوا قد عرفوا الدكتور زهدي أيام الدراسة. جمَعْتُهم في منزلي لمناقشة هذه القضية إذ اعتبرتها في غاية الخطورة لما تشكِّله من تهديد صريح وضربة قاصمة لسُمعتنا وسمعة مئات من الأطباء العرب العاملين في إسبانيا، إذ أن أمرَهُ كان لا بُد وسينكشف في المستشفى، عاجلاً أم آجلاً.

واستقرّ رأي المجتمعين على مفاتحته بالموضوع ومطالبته بإحدى اثنتين، إما إغلاقه لمحل الدعارة وإما اعتزال مهنة الطب.

وقرّرنا أيضا أن نقوم، في حالة عدم استجابته لأي من المطلبين، بتهديده بفضح أمره لدى إدارة المستشفى ونقابة الأطباء كي يقوما باتخاذ الإجراءات التأديبية ضده والتي كانت تتضمن، لا محالة، تجريده من رخصة ممارسة الطب في الأراضي الإسبانية، وبالتالي طرده من المستشفى. وكلفني الزملاء بأن أتحدث معه باسمهم، رافضين ثلاثتهم الجلوس معه.

وفي اليوم التالي لذلك الاجتماع اتصلت به هاتفيا ودعوته لمقابلتي فكانت فرحَته شديدة للغاية وأنا الذي لم أبْدِ اهزهدياً به من قبل رغم كل الحجج التي كان يختلقها منذ وصوله إلى المستشفى للتقرب مني. وما هي إلا ساعات قليلة حتى أقبل عليّ بابتسامته العريضة التي طالما تدرّب عليها حتى صارت لصيقة شفتيه، وشعاع الغبطة باللقاء يطل من عينيه -نفس الشعاع ونفس الغبطة كائنا من كان جليسه إذا كان زهدي طالبَ مصلحة لديه-. لكن ابتسامته الكرتونية تلك تبخّرت زهديا بعد دقيقة واحدة من لقائنا إذ وجد أنه لم تكن هناك ثمة ابتسامة على شفتيّ ولا حتى بصيص غبطة كان يطلّ من عينيّ، بل عكس هذه وتلك، أيْ نفس الفتور الذي كنت أقابله به دوما.

ولا أريد أن أطيل في سرد ما جرى بيني وبينه من حديث في تلك المقابلة المأساوية التي كنت أكره أن أجريها ربما أكثر من كراهيته هو لها مذ عرف فحواها. وأكتفي بالقول أنه حاول إنكار كل شيء ولكنني واجهته بالأدلة الدامغة، وأبلغته بشروطنا نحن زملاؤه وبالتهديد الصريح المُتفق عليه بيننا.

وإذ بهبّة كبرياءٍ تتملّكه فانبرى لي متحديا:

- نحن في بلد حرّ يا دكتور سفيان، ولا يحق لأحد منكم أن يقول لي ما ينبغي عليّ فعله وما لا ينبغي أن أفعل.

وفوجئت بمدى وقاحتِه، فقلتُ له ببرود وبلهجة تهديد:

- دكتور زهدي. إسمعني جيدا. نحن لا نمزح معك. ولا نتفاوض معك. أمامك إحدى اثنتين، إما أن تتخلص من محل الدعارة وإما أن تستقيل من مهنة الطب وتعتزلها. لا يوجد أمامك مخرج آخر. إنك تعرض للخطر الجسيم سمعة كل طبيب عربي في هذا البلاد ولسنا مستعدين إطلاقا للتغاضي عن مثل هذا الخطر من أجل حضرة جنابك.

وبدا أنه لم يستوعب مدى خطورة الموقف ولا جدية كلامي له، مستهيناً به ومستهتراً كعادته. فنهض من توه يهم بالمغادرة، قائلا لي بلهجة يشوبها الإزدراء والاستخفاف بكل ما قلته له:

- وأنا أقول لك يا دكتور سفيان أن أعلى ما بخيلكم فاركبوه. نحن هنا في بلدٍ حر ولا أسمح لأحد منكم بالتحكم في حياتي. إن الحسد يأكل قلوبكم.

قال لي ذلك، مشددا على كل كلمة ومتمهلاً في لفظها، إمعاناً في صلافته، فيما بدا لي تعبيراً مضحكاً عن بلاهته وجهله، رغم دهائه. فنهضتُ بدوري وأمسكتُ بيده بقوة مانعاً إياه من المغادرة، وقلت له بنبرة هادئة وصوت خفيض، شاعراً بعيْنيّ كما لو كانتا تقدحان شرراً:

- حسد؟ نحسدك على ماذا؟ على سفالتك؟

فأجابني محتداً:

- إحترم نفسك يا دكتور سفيان.

- إسمع يا زهدي. تمهّل وفكِّر جيدا فيما أقوله لك، ودعك من تمثيل دور اللامبالاة فهو لا يليق بك ولا بوضعك البالغ الهشاشة، فخراب بيتك نهائياً هو في يدِنا. وبالطبع نحن هنا في بلدٍ حرّ، ولكنه أيضا بلد قانون وأخلاق مهنية يا دكتور، لاسيما في مهنتنا التي لك شرف الإنتماء إليها. وأنت تعلم أنها مهنة لا تسمح لك بهذا الكم من السّفالة.

- قلت لك أن تحترم نفسك يا دكتور سفيان.

وتجاهلت مقاطعته لي، وواصلت كلامي بكل جدية وتجهّم:

- السّفالة التي ربما يُسمح بها لأصحاب مهَن أخرى لا مجال لها إطلاقا في مهنتنا، لا في هذا البلد ولا في أي بلدٍ آخر محترم. ثم لا تنسى أنك تنتمي لنقابة الأطباء وأن لهذه المهنة ولهذه النقابة قوانينها وحدودها وضوابطها الأخلاقية، فإن أصررتَ على موقفك وركبت رأسك فإننا سنقوم فوراً بإبلاغ إدارة المستشفى والنقابة بأمرك. وسنرى نهايتها معك أيها الدكتور، فلقد سئمنا من فضائحك الواحدة تلو الأخرى مذ عملتَ في البغاء في غرناطة إلى أن عملتَ في الماخور في شارع برينثيسا. أم أنك ممن يحسبون الناس من حولهم أغبياء وغافلين؟.

قلت كلماتي الأخيرة تلك بنبرة تحدٍّ سافر مضيفـاً على مسمعه إسم محل الدعارة الذي كان يملكه ومكان وجوده بالضبط، فارتجفَ زهدي لِما سمعه مني، إذ كانت أول مرة أطلِعُهُ فيها على معرفتنا بسوابقه في غرناطه ثم في مدريد. وأسقِط في يده تماماً إذ وجد أنني أعرف مكان وجود ماخوره بل واسمه، وظل صامتاً لا ينطق ببنت شفة ولا يعلق على ما ذكرته له بشأن إطلاعنا على سوابقه. بل إنه لم يستنكر تلك الإتهامات البالغة الخطورة بالنسبة لأي إنسان شريف، متفادياً بذلك أي خوض فيها من شأنه أن يُفجّرالموقف أكثر مما كان عليه تفجّراً في تلك اللحظات. وتصنّع، ويا لدهائه، أنه لم ينتبه لإشاراتي تلك لماضيه الوخيم. ووجدتُ أنه أصبح أمامي مسلوب الإرادة إذ تأكد دونما شك أنني كنت في تلك اللحظات جاداً للغاية في تهديدي له، وأنني لم أكن أكترثُ بهِ ولا بكِبريائه، وأن كل أحلام حياته كانت على وشك الإنهيار نهائيـاً، فلو افتضح أمره لتعرّض لعقوبات نقابية وقانونية تجرّده من رخصة ممارسة الطب.

ومرت عدة دقائق من الصمت عدنا أثناءها للجلوس، ثم فوجئت به وقد انتقل من حالة الوقاحة المفرطة في نقاشه معي إلى حالةٍ من الإنهيار انتابته في نهاية مقابلتنا، متوسلاً إياي منحَهُ مهلة لحين التمكن من بيع الماخور، ورجاني مراراً وتكراراً أن أوصي زملاءنا الثلاثة الآخرين بالتستر عليه، فوعدته بذلك شريطة أن يقوم بتنفيذ مطلبنا والتخلص من الماخور بأسرع وقت ممكن، وأن يأتيني بإثبات أن البيع قد تم بالفعل.

وفعلاً نفّـذ مطلبنا وقام ببيع محلّ الدعارة الذي كان قد أسسه بنفسه، وكان قد جنى منه أرباحـاً لا يستهان بها منذ تأسيسه، ثم حصل على مبلغ كبير ثمنـاً له، مضيفـاً كل ذلك إلى ثروته الصغيـرة التي كان قد جمعها في غرناطة ثم من عمله لسنوات في وكر الدعارة في مدريد.

وبالطبع فان الدكتور زهدي كان يكنّ لي وللثلاثة الآخرين من زملائنا الحقد كل الحقد، وهو أمر لم يكن بالجديد في شخصيته الناقمة على العالم كله، وهو ما دعاه في لاحق الأيام، في أسمى تجليات النفاق، إلى ممارسة محاولات مستميتة للتقرب مني ومن زملائي الثلاثة إذ أدرك أننا كنا نقف على أسراره منذ أيام غرناطة.

وهكذا كثرت دعواته لنا تارة للعشاء وتارة للغداء، وكنا نلبي تلك الدعوات أحيانـاً ولا نلبيها أحيانـاً أخرى، لكننا كنا حريصين على إبقاء شعرة معاوية بيننا وبينه والأمل يخالجنا بالتمكن من تصحيح مساره كلما شط في غِيّه، ليس حرصـاً عليه بقدر ما كان حرصـاً على سمعتنا.

* * *

4

الدكتور زهدي
ينهبُ زوجَته الأولى

كان الدكتور زهدي بعد انتقاله إلى مدريد يسكن منزلاً جميلاً بعد أن كان قد تزوج من سيدة إسبانية ميسورة الحال قامت بالإنفاق عليه وبرعايته بشكل باهر طيلة سنوات تخصصه في مدريد، دون أن تعرف شيئًا عن عمله في تلك الفترة في وكر الدعارة ولا عن بيت البغاء الذي كان قد فتحه بعد ذلك.

لم تكن تلك السيدة الطيبة تعلم شيئًا عن الحياة المسرحية ولا عن الشخصية الإزدواجية لزوجها ولا عن مغامراته الغرامية في المستشفى وخارج المستشفى، والتي كانت تصلنا أخبارها من بعض بطلاتها بعد أن يكون الدكتور زهدي قد تخلص منهن بعد قصة غرام وخداع. والواقع أننا عرفنا من المومسات ومن عشيقاته ومن زوجاته فمطلقاته كل صغيرة وكبيرة عن تفاصيل حياته، بل والأفكار التي كانت تدور في خلده والأحلام التي كانت تراوده. فمِن المعروف عنه انفلات لسانه في خلوته مع نسائه أو حتى مع أصدقائه، فعقدة النقص المترسخة بين ضلوعه كانت تشعل لسانه بأحاديث التفاخر والمشاريع والخطط المستقبلية بما فيها المتعلقة بالإيقاع بخصومه رجالاً كانوا أم نساءاً.

ومن الغريب أننا كنا نقف في مغامراته العاطفية والجنسية تلك، والتي كانت بعض بطلاتها من موظفات المستشفى، على عمقٍ واحد وهدفٍ واحد تكرّر في معظم الحالات، ألا وهو استغلال كل واحدةٍ منهن في مرحلة معينة من مراحل حياته، من دراسية إلى مهنية إلى مادية. فواحدة أتاحت له فرصة الإلتحاق بعيادة طبية ليعمل فيها بديلاً للطبيب صاحب الرخصة أثناء تغيبه أو إجازاته، وثانية سهلت له

الإلتحاق بدورة دراسية مجانية خارج المستشفى، وثالثة مكّنته من التعرف إلى أحد المسؤولين الكبار في المستشفى، وهلم جرا. أما خارج المصحة فتلك واحدة سهّلت له الحصول على قرض مصرفي دون علم زوجته، وثانية إصطحبته إلى حفل فخم -وكان مستعدا لبيع نفسه لقاء حضور الحفلات الفخمة لما كانت تتيحه له من التعرف على بعض «علية القوم» كما اعتاد أن يسميهم-، وثالثة تباهى بها أمام رابعة كانت قد رفضته المرة تلو المرة، وهلم جرا.

وكانت زوجته سيدة ذات دخل ممتاز ومن عائلة ميسورة -وإلا لما كان تزوجها أصلاً- وقامت بعد زواجهما بشهور بشراء بيت الزوجية وبتسجيله باسمها واسم زوجها، وقامت بتزويده بأثاث وديكور يليقان بمستوى زوجها الدكتورالوسيم الذي كان قد أوهمها بأنه صاحب شخصية وعقلية تختلفان تماماً عن الحقيقة والواقع. وأوهَمَها أيضا، عندما كان مجرد طالب تخصُّص في المستشفى، أنه -رغم ذلك- من أصحاب صداقات رفيعة المستوى وأن بيتهما سيكون محط زيارات «الشخصيات» والأثرياء والسفراء وأنه يتعيّن والحالة هذه تأثيثه بما يليق بهذا المستوى، وهكذا فعلت مخدوعة.

غير أن تلك المرأة كانت فعلاً طيبة ولكنها لم تكن غبية، واكتشفت بمَرِّ السنين الأولى على زواجهما أن أحدا من «الشخصيات» لم يطرق بابهما من طرف زوجها، لا مِن عرب ولا مِن إسبان. واكتشفتْ عنه أموراً أخرى كثيرة بعد أن كانت قد أنجبت له ولديْن، سالم وعاطف. وكان أهم ما تحققت منه شخصيته المعقدة وعبادته لنفسه واحتقاره الشديد لغيره، بما في ذلك هي نفسها.

وعانت الزوجة بعد ذلك الأمرّيْن من سوء معاملته لها إذ لم يعد الرجل بحاجة إليها وقد أصبح طبيباً له وظيفته المستقرة وماخوره ونساؤه، وبعد أن قامت هي بالبيت وبالعائلة وبه شخصياً لسنوات كان هو أثناءها يواظب على التبختر طارقاً أبواب السفارات العربية في محاولاته خطب ودِّ الدبلوماسيين والسفراء. وتحققت الزوجة من خيانته لها المرة تلو المرة، إلى أن كانت القطيعة التي طلبت الزوجة

بعدها الطلاق وحصلت عليه مُؤثِرة النجاة بنفسها من ذلك الجحيم الذي دخلته برجليها ظناً منها أنه الجنة.

لكن زهدي كان قد قام بوضع تدابيره وحيَله قبل وقوع الطلاق، وكيف لا وهو الذي كان يدفعها إليهِ دفعـًا، فما أن تم له ذلك وطلبت الزوجة الطلاق حتى لجأ إلى أكبر المحامين، مما أدى في نهاية الأمر إلى استيلائه على المنزل وإلى حرمان زوجته من ولديْها، إذ حَكم له القاضي بالولاية على الولدين وأن يقيم ثلاثتهم في منزل العائلة. كان كل همِّه الاستيلاء على البيت وطعن زوجته ما أمكن له ذلك. وقد بذل قصارى جهده قبل الطلاق وبعده طيلة سنين، كما علمنا من طليقته فيما بعد، في سبيل أن يوغر صدر ولديْه على أمّهما، وكانا بعد في المرحلة الدراسية الإبتدائية.

وكانت تلك الزوجة أولى سلسلة من الزوجات، من إسبانيات وعربيات، إنتهى بهن الأمر، الواحدة تلو الأخرى، للطلاق منه، مستولياً منهن على الغالي والنفيس، وبعد أن كان قد انتهى من استغلالهن مادياً واجتماعياً جهد طاقته.

وأشاع زهدي بين معارفه وأصدقائه بعد طلاقه الأول أن طليقته قد نهبته وسرقته وأنه دفع لها مالاً وفيراً لقاء أن تترك له الولديْن، وأنها كانت من الخسّة لدرجة أنها وافقت على تقاضي المال لقاء تركها ولديْها له، وهي نفس المعلومات المُختلقَة التي كان يوصلها بشتى الأساليب الملتوية إلى ولديْه غارساً في قلبيهما الكراهية لأمهما. غير أن طليقته تلك قامت بإثبات عكس ذلك كله بصوَر لمُستندات كثيرة تتعلق بحياتها مع الدكتور زهدي وبطلاقِها منه، أطلعت عليها صديقاتها من إسبانيات وعربيات، غير أنها لم تتمكن من استرداد حب ابنيها لها إلا بعد دخولهما الجامعة وتحررهما من قيود أبيهما.

* * *

5

الدكتور زهدي
ينهبُ زوجته الثانية ويُعتقل

كان الدكتور زهدي في تلك الفترة، وبعد طلاقه من زوجته الأولى، قد استخدم المال الذي جمعه حتى ذلك الوقت في شراء مبنى صغير في الطرف الشمالي لمدريد وحَوّله إلى مركز طبي يضم عيادات قام بتأجيرها لبعض الأطباء من تخصصات مختلفة. واشترى بعد ذلك بيتا على مقرُبة من المُجمَّع الطبي اتخذه سَكَنا له بعد أن كان قد باع البيت الذي استولى عليه من زوجته الأولى. ودرّت عليه هذه المصلحة الطبية الجديدة المزيد من المال وأخذ يتقدم على طريق جمع ثروته المنشودة.

وأخبرني زهدي في لقاء عابر بيننا في مقهى الموظفين في المستشفى حال عودته من رحلة إلى الوطن بأنه تزوج من جديد، وأن عروسه قد رافقته إلى مدريد، فباركتُ له. نعم، كان الدكتور زهدي بعد فترة من طلاقه قد توجّه إلى مسقط رأسه وعاد ومعه زوجة أخرى، من بنات شعبنا هذه المرة. وكان الطبيب قد أشاع بين أهله قبيل زواجه الثاني، ثم أشاع أهله بين الناس في مجتمعهم، أن زوجته الأولى، الإسبانية، كانت من حثالة القوم، فقيرة معدمة، وأنها سرقته وهربت مع رجل آخر تاركة له ابنيها. واكتملت تلك الصورة الزائفة بصورة مزوّرة أخرى أصبح ابنهم الدكتور بموجبها المَلاك الرحيم والمظلوم الذي يعيش حياته في غربةٍ مريرة لا تَرحم، والمتفوق اللامع الثري، رغم ذلك كله. وأدت إشاعة هذه الصور المزيفة عن زهدي إلى إقناع أهل العروس الجديدة، الذين كانوا مترددين في الموافقة على الزواج، نظرا لفارق السن الكبير بين ابنتهم والطبيب، بأن زواجها منه سيكون إحدى آيات رضى الله عنها، وأن كون عريسها يكبرها بخمسة عشرعاما

لم يكن أمراً يستحق أن يعيق زواجهما. وكما علمنا في لاحق الأيام والشهور، جاءت العروس المسكينة إلى إسبانيا تحمل معها ما خف وزنه وغلا ثمنه، كأي فتاة ميسورة الحال من بلادنا إذا ما تزوجت.

ولم يكن قد مرّ على زواجه شهر واحد بعد عندما أخبرني زهدي في لقاء عابر في مقهى المستشفى ما مفاده أن زوجته فتاة مسكينه، عائلتها فقيرة، وأن أباها يعتقد أنه -أي زهدي- مليونير، وأنه، والحالة هذه، لا يكف عن طلب المال منه، فهو تارة محتاج لعلاج وتارة محتاج لسيارة. ولم أكن أصدق كلمة واحدة مما كان يقوله لي إذ كنتُ أعرف أن الكذب والتلفيق هما ديْدنه. وبعد أيام من ذلك اللقاء جاءني ليدعوني إلى منزله لحفل غداء يقيمه احتفالاً بزواجه. وكان منذ افتتاح مُجمّعه الطبي لا يكف عن إقامة الحفلات في بيته الجديد داعياً إليها كل من هبّ ودب في محاولات دؤوبة لكسب ود القاصي والداني، تلبية لرغبته الجامحة في استعراض نفسه، ولتحقيق مطامحه الشخصية باستغلال من أمكن استغلالهم لمصالحه واحتياجاته. وكنت وأصدقائي نلاحظ في حفلاته تلك غياب عنصر المودّة منها غيابا تاماً، إذ ينتاب معظم المدعويين فيها نوع من اللامبالاة تجاه صاحب الحفل رداً على ما يعتريهم من شعور بالتّمنّن عليهم من ناحيته، ناجم عن تصرفاته معهم أو عن بعض كلامه أوعن بعض صمته.

ولبّيتُ الدعوة مع مجموعة أصدقائي من زملائنا السابقين في كلية الطب، ولأول مرة رافقتنا زوجاتنا -من إسبانيات وعربيات- وبينهن آنذاك صداقة متينة منذ سنوات. وكنّا جميعا نتطلع للتعرف على الزوجة الجديدة لزهدي والوقوف على حقيقة ما كان يرويه لنا عنها وعن عائلتها، وكلنا ثقة بأن روايته ملفقة كمعظم الروايات التي كان يقصها علينا والمتعلقة بمجرى حياته. وفاق عدد المدعويين إلى الحفل الأربعين شخصاً انتشروا في الطابق السفلي من المنزل وفي

حديقته، بحيث لم يكن بوسع صاحب الحفل التحكم بالأحاديث التي كانت تدور بين المدعوين ولا مراقبتها أو الإستماع لمعظمها. ولم يكف صاحب البيت عن التبختر نافشا ريش الطاووس ما أمكنه النفش، متباهياً بهذه السجادة وبتلك التحفه أو الأريكة، دون أدنى خجل، وبدون أن يظهر جنبا إلى جنب مع زوجته طيلة الحفل، بل كنا نراه في زاوية من البيت ونراها بعيدة عنه، في زاوية اخرى، منشغلة معظم الوقت مع صديقاتها الجديدات، وهن زوجتي وزوجات أصدقائي، بينما تولت خادمتان الإهتمام بضيوف المنزل.

وخرجتُ رفقة أصدقائي من الحفل ولدينا جميعا، رجالاً ونساءاً، أجمل انطباع عن عبير، زوجة الدكتور زهدي الجديدة. ثم فوجئتُ بزوجتي لدى عودتنا لبيتنا وهي تروي لي حكاية ذلك الزواج كما سردتُها عليكم من قبل. وكانت زوجتي وصديقاتها قد انزوَيْن جانباً بعبير في الطابق العلوي من البيت، بعيداً عن الأعين والأسماع، للإطلاع على الحقائق في معزل عن زيف روايته. وبالفعل، فإن الزوجة الفتية وجدت، ولأول مرة منذ اغترابها في ذلك البيت الموحش بعيدا عن الناس والمجتمع، الفرصَة للتنفيث عن همومها وأحزانها، إذ أتيحت لها إمكانية التحدث إلى نسوة عرب باللغة العربية، فأجهشت بالبكاء لتسرد عليهم المعاملة المهينة التي كانت تتلقاها على يد زوجها منذ وصولها لإسبانيا. وروت لهن عبير كيف تصرّفَ زهدي أمامها وأمام ذويها -مذ أن تقدمت أخته الكبيرة فطلبتها من أبيها- كإنسان وديع ومرح وذي أخلاق عاليه وكرم وشهامة، ليتحول هذا كله وقبل انقضاء أول شهر على وصولها إلى بيته في مدريد، إلى رجل متسلط ومتعجرف يعاملها كما لو كانت خادمته ويمنعها من مجرد الإتصال هاتفيا بأهلها أو الخروج من البيت بدون إذنه. بل ونصّب عليها خادمة عربية في المنزل تراقبها وتتنصتُ على مكالماتها الهاتفية أثناء تغيّبه، وهو ما كان يحصل معظم ساعات النهار وردحاً من الليل.

ولكن أغرب ما سردته عبير على زوجاتنا، في خضم البوح لنسوة أحاطوها بعطفهن، كان ما شرحَته لهن عن احتياله عليها، حال وصولها إلى بيته، بابتسامتِه العريضة وكلماته المعسولة وبريق عينيْه المشحونتين ولَهاً وحُباً جارفيْن، حتى أقنَعها بتسليمها له كل مجوهراتها وحِليّها ونقودها بحجة ضرورة الإحتفاظ بهذا كله في مكان آمن، مبرراً ذلك بوحشة المكان الذي يقع فيه بيتهما والذي كان في تلك الفترة من الزمان مكاناً مقفراً إلا من قليل من المنازل الأخرى المعزولة بعضها عن بعض. بل وروى لها -لإلقاء الذعر في قلبها- قصصاً مُخْتَلَقَة عن حوادث سطوٍ وسرقة قال لها أنها وقعت غير بعيد عن منزلهما.

وبرواياتها تلك أثارت عبير استغراب زوجتي التي كنتُ قد رويتُ لها ما كان زهدي قد أخبرني به عن انتماء الزوجة الفتاة إلى عائلة فقيرة لا حول لها ولا قوة. وقد سألتها زوجتي عن مصدر تلك الجواهر وذلك المال الذي تحدثت عنه. ويبدو أن عبير فهمت مغزى أسئلة زوجتي عن مصدر مصاغها ومالها فسارعت تعرض عليها وعلى صديقاتها عدداً كبيرا من الصور الفوتوغرافية لعرسها ولأهلها وبيت والديها، فإذ بها تنتمي الى عائلة ميسورة ومثقفه وذات مستوى مهني واجتماعي رفيع.

وكان كل ذلك قد جرى بين النِّسوة في خُلوَتهن دون انتباه صاحب البيت الذي كان مشغولاً في الشرح المُسهبَ عن نفسه وبيته ومبنى مُجمّعِه الطبي وما كان ينوي عمله من إصلاحات في المبنيَيْن وتكاليف ذلك كله. بل وقام باصطحاب بعض المدعوين في جولة في أنحاء المنزل ثم في أخرى في مبنى العيادات الذي يبعد عن البيت مسافة عشر دقائق مشياً على الأقدام ، في رغبة جامحة لاستعراض نفسه ومالِه أمام نفر من الناس لم تكن تربطه بمعظمهم روابط صداقة عميقه.

وما حصل بعد ذلك هو أن زوجتي وصديقاتها حرصن على إبقاء الإتصال الهاتفي مع عبير قائماً وشبه يومي، إهتماماً منهن بمدِّ يد العون والمشورة لها إذا ما احتاجت لهن في وحدتها وعزلتها. وعلِمنَ منها في الأسابيع التالية لذلك الحفل تدهور العلاقات مع زوجها إلى الأسوأ بعد أن أطلعته خادمته على بعض فحوى حديث عبير للنسوة في جلستهن الخاصة تلك، وعلى إطِّلاعِهن على مجموعات صور عائلتها مما أدى إلى إصابته بما يشبه اللوثة العقلية مُنهالاً عليها بالتوبيخ والشتيمة.

وفي الأسابيع التالية أطلعَت عبير أهلها، عند اتصالهم بها هاتفياً، على ما كان يجري لها على يد زوجها، فحاول والدها الإتصال به هاتفياً المرة تلو المرة دونما فائدة، لعدم رغبة زهدي بالرد على مكالماته ذعراً مِن مجابهته ولو على الهاتف وعلى بعد آلاف الكيلومترات. فما كان من أبيها إلا أن حضر بنفسه إلى مدريد، مفاجأ زهدي عند عودته ليلاً إلى البيت، إذ وجده الطبيب بانتظاره هناك.

ودار بين الرجلين حديث طويل حاول فيه الدكتور أن يقنع حماه بأن ابنته اختلقت قصة معاملته السيئة لها لرغبتها الجامحة في العودة إلى الوطن وإلى أهلها، ولكونها فشلت في التأقلم مع المجتمع في مدريد وفشلت معه شخصياً كزوجة. وانتهى النقاش بأن اتفق ثلاثتهم على عودة عبير مع والدها إلى الوطن لتقضي أسبوعاً أو اثنين مع أهلها ثم تعود إلى بيت زوجها إن هي قررت ذلك.

وطلبت عبير من زوجها، أمام والدها، أن يعيد لها مجوهراتها وحِليّها ومالها فادّعى أنه أودعها في أحد المصارف وأنه يتعذّر سحبها منه قبل مضيِّ عدة أيام مختلقاً في ذلك الحُجج والمُبررات التي لم تقنع والدها، فنشبت بين الرّجلين مشادّة حادة استغلها الزوج متحدياً حماه ومدّعياً أن زوجته لم تعطه شيئا مما تدّعي، وأنه «أعلى ما في خيلك إركبه»، وكانت هذه عبارته المفضلة في أي مشكلة

تواجهه في تعامله الملتوي مع الآخرين، وهي العبارة التي تطفح ازدراءاً لمحدّثه وتحدياً له. وفي الوقت الذي كان فيه والد عبير يتوعّدُ زوج ابنته بالنتائج الوخيمة لفعلته تلك مع ابنته ومعه شخصياً، كانت ابتسامة واهية لا تفارق شفتيّ الزوج، فما كان من الأب إلا أن دعا ابنته لجمع حوائجها وملابسها ومغادرة البيت معه إلى أحد الفنادق، وهو ما كانت ترغب به دونما تأخير. وفي اليوم التالي إستقل الرجل وابنته الطائرة ليلاً عائدين إلى الوطن.

وبالفعل غادرت عبير مدريد مع والدها على شاكلة «ربي كما خلقتني» تاركة لزهدي كل ممتلكاتها لقاء نجاتها بنفسها. وكانت عبير قد اتصلت بنا في تلك الليلة، بعد مغادرتها بيت الزوجية برفقة أبيها، فهرعنا لمقابلتهما في الفندق، حيث شرح لنا والدها كل ما جرى بينه وبين صِهره مُعَبّراً عن حِنقه الشديد للخديعة التي وقعت فيها عائلته بزواج ابنته «بهذا النصاب»، على حد تعبيره.

ولم تنقض أيام على وصول عبير لمدينتها حتى تسلّمت وثيقة طلاقها، إذ أن زوجها كان قد سارع للسفر في اليوم التالي لمغادرتها مدريد مستَصْدِراً ورقة الطلاق من المحكمة في مدينتهما، ثم عاد إلى مدريد حال إتمام مهمته تلك. ورفعت عبير شكوى قضائية على طليقها متهمة إياه بسرقة مالها ومجوهراتها ومطالبة بنفقتها. وكلف والد عبير أحد أكبر المحامين بقضية ابنته وتم إبلاغ زهدي رسميا بهذه الدعوى القضائية إلا أنه لم يُعِرها أي اهتمام.

ومرّت نحو سنتين كان الدكتور زهدي قد نسيَ فيهما زوجته السابقة عبير وما سرقه من مالها والدعوى القضائية المرفوعة عليه والتي كان قد خسرها بسبب عدم مثوله أمام القضاء هناك وعدم إبداء أي اهتمام بالقضية، وقرر في خضم غروره بنفسه واستهانته بالقانون في بلادنا السفر من جديد لزيارة عائلتِه، فألقِيَ القبضُ عليه في المطار

لدى وصوله لأرض الوطن، ووُضِع رهن الحبس مُطالَبًا بتسديد نفقة زوجته وإعادة أموالها لها.

وبالطبع فقد جُن جنونه إذ وجد نفسه مرميًا في إحدى الزنزانات التي تضم غيره من النزلاء بانتظار قرار القاضي بشأنهم. وهبّت عائلته لمساعدته ولتطويق الموقف تجنبا للفضيحة، لاجئين إلى عائلة عبير يقبّلون الأيادي والأرجُل كي تقوم بسحب القضية المرفوعة على زوجها السابق. وطالبت عائلة عبير بإعادة أموالها ومجوهراتها لها، لكن هذا الأخير كان قد تصرّف بتلك المسروقات وباعها غير مُبالٍ بالعواقب.

وأدّت المفاوضات المكثفة لعدة أيام بين العائلتين، مُمَثّلتان في نهاية المطاف بالأخ الأكبر للطبيب المعتقل ووالد عبير، إلى قبول هذا الأخير مبلغًا من المال يجري تسليمه لابنته كدفعة أولى، وتوقيع كل من زهدي وشقيقه لمستنداتٍ رسمية يعترفان فيها بالديون المطلوبة من الطبيب لصالح طليقته، متعهدان بسدادها على ثلاث دفعات في مدة لا تتجاوز السنة الواحدة. وإضافة لذلك وقّع زهدي على اعترافه بالنفقة لعبير في حدود ما صدرعن المحكمة المختصة وقام بدفع كل ما ترتب عليه من نفقة لها بأثر رجعي حتى ذلك اليوم. وهكذا تمكن زميلنا المغرور من مغادرة الحبس بعد أن قضى فيه خمسة أيام في أسوأ فصل مَذلةٍ كان قد واجهه في حياته حتى ذلك الحين وعلى يد المرأة التي كان يخالها أضعف من عرف من النساء بسبب صغر سنها وكونها قادمة من بلدها ولا معرفة لها البتة بإسبانيا ولغتها وقوانينها.

ولقد ضحكتُ كثيرا بصحبة أصدقائي وزوجاتنا عندما جاء الدكتور زهدي ليقُصّ علَيْنا حكاية سجنه في الوطن، ولم يكن بمقدوره إخفاء تلك الحادثة عنا إذ كان يعلم أن أهالينا يقيمون هناك وأن مثل هذه الأخبار الإجتماعية تنتشر هناك انتشار النار في الهشيم، بل وأسرع من ذلك، فكان أن سارع بتقديم روايته عن زجه بالحبس على

طريقته ليدحض ما يمكن أن نكون قد سمعناه من الآخرين. وكانت تفاصيل كل ذلك قد وصلتنا من عبير أولا بأول في مكالماتها الهاتفية مع زوجتي. كما أن والد عبير كان قد كالمني هاتفيا لأكثر من مرة أثناء حبس الدكتور زهدي، مبلغاً إياي الخبر بتفاصيله. وكان قد نشأ بيننا تيار من المودة والإحترام المتبادلين أثناء لقائنا في مدريد، لاسيما بعدما اكتشفتُ أن عائلته على صلة صداقة ونسَب قويّة بعائلتي منذ عشرات السنين. غير أن الدكتور زهدي لم يكن على أيّة معرفة بهذه الإتصالات الهاتفية التي كانت تجري على قدم وساق مذ ساعة دخوله الحبْس وحتى ساعة مغادرته البلاد عائداً إلى مدريد، فجاءنا في ذلك اليوم بابتسامته العريضة لصيقة شفتيْه، وبريق التملق والمُداهنة يطلّ من عينيه، ليقولَ لنا أن مخابرات بلدنا اعتقلته حال وصوله المطار وأنها استجَوبته ليل نهار بسبب اطِّلاعها على «نضاله الوطني» في إسبانيا. وتلفتَ بعضُنا ينظر إلى بعض ولم يستطع أي منا كبتَ ضحكه إزاء ما سمع، وهو ما أثار شكوك زهدي، فأخذ يُقسِم بأغلظ الأيمان تأكيداً وإصراراً على الكذب والتلفيق.

وراح الطبيب فيما بعد يروي هنا وهناك بين معارفه العرب والإسبان أنه اعتُقل حال وصوله إلى بلده نتيجة نشاطه الوطني المناهض لحكومة بلدنا، في محاولة لحياكة هالة من النضال الوطني لنفسه يستدرّ عبرها شيئا من الإهتمام والإحترام.

وفي إحدى جلساته معي بعد ذلك بسنتين كان قد نسيَ كل إدعاءاته تلك بأنه زُج في الحبس لأسباب «وطنية»، واعترته نوبة مصارحة أحيانا ما كانت تعتريه، فذكَر لي –في سياق حديثه عن طليقته عبير وعائلتها– أن أهلها كانوا السبب في سَجْنِهِ بسبب رفعِهم قضية نفَقة عليه وأنه لم يبارح الحبَس حتى دفع كامل المبلغ المستحَق عليه. لكنك إذا أردت التحقق من صدقٍ أو كذبٍ فدَع راويهِ يُلقيهِ عليك المرّة تلوَ الأخرى على فترات متباعدة فتكتشف بسهولة مدى صدقِه أو كذبهِ

بتطابقِ رواياتِه المتعاقبةِ أو تناقضِها. وهكذا فإنني أذكر كيف جاءنا الدكتور زهدي بعد ذلك بسنوات، وقد أصبح يُجاهر بعدائِه لصديقي سليم، ناسياً روايتيْهِ السابقتيْن اللتيْن كان قد سردهما عليَّ وعلى غيري عن سبب حبسه ذاك، ليؤكد لنا بحرارة، وبأغلظ الأيمان، أن سليم كان السبب بزجِّه في السجن، ومُحَذراً إيايَ من صديقي الصحفي، ومُقسِماً بالله أن لديه معلومات «أكيدة» عن انتماء صديقي لجهاز مخابرات بلدنا، وأنه لذلك تمكّن من إدخاله السجن لعدة أيام. فلم أتمالك، أمام بعض أصدقائنا، سوى أن استشَطّ غَضَبا، مُبَلِّغًا إياه بأنني وباقي الحضورعلى عِلم تام بتفاصيل تلك الواقعة منذ لحظاتها الأولى وحتى انتهاء حبسه، ومذكّراً إياه بكل ما قاله لي ولغيري عن حبسه ذاك في سنوات سابقه، فامتقع وجهه بينما هبَّ بعض الحضور موبّخين له ومدافعين عن سليم الذي كان يتعرّض آنذاك لحملة تشويه من طرف الطبيب، كما سأسرد فيما بعد.

* * *

6

الدكتور زهدي
وعقدة النسَب الشريف

وبينما كانت زوجات زهدي وعشيقاته يدخلن حياته ويختفين منها الواحدة تلو الأخرى كان طابور من المعارف والأصدقاء يدخلون عالمه منخدعين بظاهِرِهِ اللمّاع ليخرجوا منه بعد شهور أو سنوات وقد امتص منهم كل ما كان بوسعه امتصاصه من خدمات أوعلاقات جديدة أو فتح أبواب. وظل الرجل يحار كيف يقترب من عالم الجاه إذ وجد بعد إنهاء اختصاصه وتعيينه طبيبا مداوماً في نفس المستشفى الذي تدرب فيه أنه مجرد طبيب من بين آلاف الأطباء الذين تزدحم بهم مدريد، وبينهم الكثيرون من العرب. ووجد أن أسهل طريق هو دبلوماسيي سفارات الدول العربية الثرية، فراح يطرق أبوابها متذرعاً بمختلف الحجج ومقدماً نفسه لهذا وذلك من أعضاء السلك الدبلوماسي كطبيب، عارضاً عليهم خدماته المجانية حال أن يقوم أحدهم بطرح أي موضوع يتعلق بمشاكله الصحية أو بصحة أفراد عائلته.

وهكذا فُتح له أكثر من باب في بيوت الدبلوماسيين. لكن السنوات كانت تمر وكان يجد أنه لم يكن قد تعرّف بعد إلا على صغار الدبلوماسيين ممن «لا يهِش ولا ينِش». هذا إضافة إلى شعوره المرير بأن علاقاته حتى بهؤلاء الدبلوماسيين أوبصغار الأثرياء كانت لا تتجاوز إطار كونه طبيبا يحتاجون إلى استشارته أحياناً على الهاتف وإلى خدماته المجانية بين الفينة والأخرى، وأن علاقتهم الشخصية به لا تتعدى حدود الحفاظ على شعرة معاوية معه علهم يحتاجون إليه طبيباً في يوم ما. وكان معظم هؤلاء من مطبقي المثل العربي القائل: «اللي ببَلاشْ كتّر مِنه»، فقد صدق من قال أن أكثر الأثرياء هم من

أبخل الناس، ولولا ذلك لما جَمّعوا ثرواتهم، ناهيك عمّا طُبعوا عليه من الحُب المُفرط للمال.

وواقع الأمر، وكما أطلعني عليه أصدقائي من مرتادي حفلات الإستقبال التي تقيمها السفارات والتي أحيانا ما كان الدبلوماسيون يدعون إليها الطبيب زهدي، فإن أصحاب هذه الحفلات كانوا يتعاملون معه بشيء من الإستغراب نظرا لهروَلتهِ المستمرة خلفهم، لاسيّما بعد أن تحَققوا من كونه رجُلاً جاهلاً في كل ما لا يمتُّ للطب بصلة. وكان جهله يتفجّر تفجيراً أحياناً عندما يرغبُ في مشاركة المثقفين حديثهم، فينظرُ إليه المتحدثون باستهجان شديد لأن جهله كان -ولسوء طالعه- ينكشِف للعيْن المجردة وللتوِّ في مسائل ثقافية وتاريخية يعرفها أدنى المثقفين اطِّلاعاً.

ولم تُفِدهُ، بعد أن صار صاحب ثروة صغيرة، الحفلات التي كان يقيمها في بيته خارج مدريد، في منطقة ذات طبيعة خلابة، والتي كان يلبي دعوته إليها الكثيرون كمناسبة تتيح لهم فرصة مغادرة جو مدريد الخانق إلى تلك المنطقة ذات الهواء العليل. تلك الحفلات لم تُجدْهِ نفعاً في أن يصنع لنفسه صديقاً واحداً مخلصا، كما أنها لم تُفده في رفع درجة احتفاء الآخرين به، وكانت مسألة الإحتفاء والحفاوة هذه بالنسبة إليه من أولى الأولويات في حياته.

وكانت عقدتان كبيرتان تنغِّصان عيشهُ، ألا وهما عقدة الأثرياء وعقدة «عُلّيّة القوم» -كما دأب على تسمِيتهم-، أثرياء كانوا أم لا. وكان يبغض بشدة نوعين من الناس من بين أقرانه العرب، أولهما أولئك المنحدرين من عائلات عريقة وأنساب شريفة مِمّن يكنُّ لهم حقداً خاصاً لعدم تمكنه من مجاراتهم أو التفوق عليهم في قضية النسب الأثيل، وهي مسألة ذات أهمية في وطننا العربي، مَشرقاً كان أم مَغرباً، بل وفي كل بلد في العالم بما فيها إسبانيا، حيثُ توجد أيضاً العائلات ذات الثراء الفاحش والعائلات ذات العراقة والجذور

التاريـخية، وكلا الفـئـتـان ما زالـتا تسيـطران عـلى قدر لا يُستهان به من مقـدّرات المجـتـمع الاسباني، بأشكال شتى، حتى يومنا هـذا، ورغم كل ما يـتشـدّقُ به الإسبان وغـيرهـم من الأوروبيين مِن شعارات الديموقـراطية والمُساواة المزعـومة بين الأفـراد أمام القانون و تكافُؤ الفـرُص، لاسيما في ما يتعلق بالوظائف الرفيعه والمناصِب المرموقه. فما زالت هذه العائلات تشكل ما يشبه الشبكة الخفية غير المعلنة من المصالح المشتركة والوفاء للجذور التاريخية التي تجمع بين نسبة كبيرة منها. وما تلك الشعارات الرنانة إلا طبول فارغة تخلو من المضـمون الذي لا تكف عن التطبيل له. فأنت، لاسيما في المجـتمعات العربية، إما أن تكون سليـل نسب أثـيل أو صاحب جيـب ثـقيل، وإلا فإنك والآخرين من أمثالك سواسية أمام قضاء هزيل، باهظ التكاليف، وأمام حكـومة ومؤسساتها، يفعـلون بك ما يشاؤون.

ولا تنسى المجتمعات العـربية في المهجرهـذا العُـرفَ وهـذا التراث المعـمول بهما إجتماعيـاً ورسميـاً في معظم أرجاء أوطانها الأصلية من احترام لأبناء العائلات العريقة لاسيما الأشراف منها، أي المنتمية انتماءاً تاريخيـاً موثقـاً ومعترفـاً به لآل البيت.

وهـذا بالذات ما حَـدثَ في حـفـل زفاف أحـد أصدقائِنا المُقـرَّبيـن لي ولصديقي سليم، وهـو تاجر عـقَـدَ قرانه على آنسةٍ من عائلة مغـربـية ضاربة جـذورها بعيـدا في التاريخ وذات شجـرة عائـلية تـنحدر من آل البيت الشريف، مُعـتـَرفٌ بها اجتماعيا ورسميا في بلدِها ومتّـفـقٌ عليها بين المؤرخين المختـصّين.

ففي أثناء حديث دار بين مجموعة من المدعـويـيـن، بينهم زميلنا الطبيب زهدي، دار الحديث عن عائلة العـروس ونسـبها الشريف. وكان المتحدثون –وجميعهم شرقـيون– متـفـقين في التعـبيرعن احترامهم العـميـق لتـلك العائلة التي يوجد لها فروع معروفة في المشرق، فإذ بزهدي يهبُّ من بينهم مُسَخـِّـفـاً رأيهم وصابّـا جام غـضبه

على الأنساب الشريفة والعائلات العربية المعروفة، مُدّعيا أن هذه مجرد خرافات وأن المحترم حقاً هو المُحترم بجيبه فقط لا بنَسَبِه. وكان يتكلم مُستخدِماً ألفاظاً نابيَه، فوَجَمَ جلساؤه، ومعظمهم من الجامعيين من أصحاب المِهَن الرفيعه، إزاء منطِقه الأعوج ذاك وألفاظِهِ الشائنة تلك بحق العائلات الشريفة، فاستولى على بعضهم الغضب، وازداد غضبهم وهم يرونه يواصل شتائمه لكل من يدّعي أنه من عائلة شريفة، وقد اربَدَّ وجهُهُ حِنقاً وغيظاً، وهو أمرٌ كان يتكرر معه في بعض الجلسات والمناقشات فيبدو فيها وكأنه ناقم على العالم كله وأنَّ كمّاً مهولاً من الغيظ والحنق يعتمل في صدره. وانبرى له أحد زملائه من أيام الدراسة الجامعية ممن ينتمون إلى عائلة عريقة من بلدِنا، فوبَّخه بعبارات مُهينة لمّح فيها إلى حقيقة الشخصية الماثلة أمامه، فما كان من الدكتور زهدي إلا أن صمت خشية من تطور النقاش فافتضاح أمره بين المدعويين إلى العُرس، وهو الذي كان حتى تلك اللحظة يتهادى بينهم، فلم يجرُؤ على الرد على محدثه ولا على الآخرين الذين انهالوا عليه بعد ذلك بالتأنيب الجارح. وما هي الا دقائق حتى انسلّ مغادراً الحفل.

أما النوع الثاني من الناس الذي كان زهدي يبغُضه بشكل خاص بين أبناء الأقلية العربية فهم الصحفيون والكتاب والشعراء والفنانون وأساتذة الجامعات لما كان يراه من إحاطتهم بحفاوة شديدة مِن طرف الجمهور والشخصيات والمسؤولين. فقد كان يرقبُ كيفَ كان هؤلاء يحظون بتقدير واهتمام في حفلات الاستقبال والمؤتمرات والمناسبات الرسمية وغير الرسمية يفوقان أضعاف ما كان يصبو إليه هو لنفسه ولم يكن يحظى منه إلا بالقليل، وهو الذي كان يقيم الحفلات في بيته للقاصي والداني وكان يُسدي الخدمات الطبية لهذا وذاك من الدبلوماسيين. وكان أكثر ما يغيظه هو أن هؤلاء المثقفين والأساتذة هم مجرّد شلة من المُفلسين إذا ما قورنوا به.

وأدّى به ذلك البغض والحسَد للصحفيين والمثقفين إلى اتخاذه قراراً بعقد علاقات معهم ما أمكن له ذلك، فهم سيكونون مَطيّته الجديدة لتحقيق مآربه في الشهرة التي كان يعتقد أنها تقف وراء ما يتمتع به هؤلاء المفلسون من ترحيب واحتفاء. وهكذا اختار زهدي من بين تلك النخبة صحفياً كان يصول ويجول في الوسط الإعلامي والاجتماعي وكان زهدي يرقبُهُ عن كثب ويسألني عنه أحياناً لعِلمه بالصداقة التي تجمعني به. وكان الصحفي، وهو صديقي سليم، في طور تأسيس جمعية ثقافية عربية كان يقوم ببنائها مع نفر من المثقفين وأصحاب المهن الحرة، وكنتُ واحداً من المؤَسّسين. فبادر زهدي في إحدى الحفلات إلى المثول أمام ذلك الصحفي، بابتسامته اللصيقة وشعاع عينيه البرّاق بمودّة زائفة، هاشّاً باشّاً، ومعبِّراً للصحفي عن إعجابه بما قاله في ندوة تلفزيونية كانت قد بُثت حديثاً ودار النقاش فيها حولَ قضايا عربية.

* * *

7

الدكتور زهدي
يُصبِحُ صديقا للصّحفي سليم ويَسرُقهُ

وهكذا بدأت قصة الصداقة الحميمة بين الطبيب زهدي وصديقي الصحفي سليم عبد السلام، الذي تعود علاقتي به إلى عهد الصبا والمراهقة، عندما انتقلنا مع والدي إلى الكويت، حيث كانت تقيم عائلة سليم، فقضيت هناك السنوات الست التي سبقت انتقالي للدراسة في إسبانيا، التي وصلت إليها مع صديقي على متن نفس الباخرة، مُبحرين من بيروت إلى برشلونة. بعد ذلك التحقتُ بدراسة الطب في غرناطه بينما توجه سليم إلى دراسة الصحافة في مدريد. ولم ينقطع الإتصال بيننا طيلة سنيّ الدراسة إلى أن انتقلتُ بدوري إلى مدريد للتخصص فعادت صداقتنا الأولى إلى سابق عهدها من القوة والتواصل. وكان سليم لا يعرف الكثير عن زهدي، إذ أنني لم أكن أهتم بسردِ سيرته على مسامع أصدقائي من خارج الوسط الطبي، وسليم هو الأقرب بينهم لقلبي إذ أكن له محبة واحتراماً عميقين لما أثبته لي عبر السنين من إخلاص في الصداقة، عِلماً بأنه في ملّتي واعتقادي ليس من جدوى ولا ضرورة لصداقة لا تسكن الحشا والفؤاد، بل أن مثل هذه الصداقة لا تعود على صاحبها إلا بالضرر، سواء عاجلاً أم آجلاً. غير أن الخطر كل الخطر يكمن في صداقة يوهمك صاحبها بأنها صادقة ونابعة من القلب، وهي في الواقع لا تمتّ للقلب بصِلة.

وفي ذلك اللقاء الأول بين الرجلين، أثار زهدي مسألة الجمعية الجديدة التي كان قد سمع بها، وكان يعرف أن سليم هو القائم على تأسيسها، مما أدى بصديقي إلى الحديث عن الموضوع بحماس وحرارة، لكنه لم يَدْعُ محدِّثه للإلتحاق بها، إذ أنه لم يكن يعرفه. لكن

زهدي أبدى لسليم في الأيام اللاحقة رغبة بالإلتحاق بالجمعية، وألح في ذلك مستخدماً كل عبارات الإطراء التي كانت في متناول ذهنه، ومُبدياً إستعداده لمساعدة الجمعية بكل قواه، فلم يكن بوسع سليم والحالة تلك إلا أن وافق على انضمام محدثه إلى مجموعة مؤسسي الجمعية. وهكذا حقق الطبيب مُراده في العثور على الإطار المنشود لعلاقة الصداقة الزائفة التي كان ينوي بناءها مع صديقي سليم.

وعمل الطبيب على توطيد علاقاته بسليم بكل الوسائل وأبدى له من المودة والحرارة ما نفذَ إلى قلب صديقي رغم تحذيري له من زهدي عندما علمت بالتحاقه معنا لتأسيس الجمعية الجديدة. وكنت أرى كيف كانت دعوات زهدي لصديقي الصحفي تتوالى بكثرة بينما كانت لقاءاتهما هنا وهناك في أرجاء المدينة تجري بشكل شبه يومي وتتعلق دائماً بتأسيس الجمعية وكل ما يحتاجه مثل هذا العمل إلى مجهود مكثف ولقاءات ومقابلات وزيارات، إلى أن أصبح زهدي بمثابة الساعد الأيمن لسليم في هذه المهمة وكنا بعض المؤسِّسين ننظر إلى هذا الحماس من طرف الطبيب في مساعدة صديقي نظرة حيرة وارتياح معاً، إذ لم يكن لدى أيّ منّا مُتسع من الوقت للقيام بكل تلك النشاطات، في الوقت الذي كدنا فيه أن نقتنع بأن سليم والجمعية تمكّنا من إحداث تغيير جذري في أخلاق زهدي ليُصبح الإنسان المضَحّي بوقته وجهده في سبيل المصلحة الإجتماعية والثقافية للعرب في مدريد. وكنا نتساءل في جلساتنا الخاصة،»أمعقول هذا؟». وكان بعضنا يُردد قائلا «سبحان مُغيّر الأحوال»، بينما كان بعضنا الآخر يرد قائلا «ذنَب الكلب أعوج ولو وُضِع في مائة قالب» تعبيراً منهم عن يأسهم من أن يُغيّر زهدي من طباعه.

وفي لاحق الأيام اشتدت هرولة الطبيب للإلتقاء بالصحفي أينما وجد، لا سيما في الملتقيات الإعلامية والثقافية، بشكل ملفت للنظر، حتى أصبح الأول ظلاً للثاني وصار يصعب أن تلتقي بهما كل على

حِده، فيـما بدا لي –وكذلك لبعض أصدقائي– ميلاد صداقـة متينه بـين الرجلين كانت مدعـاة سرورٍ ما بالنسبة لنا، فلعلّ سليم يكون قادرا على ما فشِلنا فيه طيلة سنين من تصحيح اعـوِجاج ذنَـب الكلـب.

وأذكرهنا بشكل خاص أن زهدي استغلَّ سِـنيّ صداقـتِه مع سليم للتعـرّف عـلى عـدد من المثـقـفين والصحفيين والأساتذة الجامعيين وهو عالـَمٌ كان الطبيب يجهله تمامـًا ويتوق إلى اختراقه ولا أقـول إلى الوُلوج إليه أو الإلتحاق به.

والحقّ أن صديقي سليم، رغم كونه صحفيـًا محنكـًا، يحـمل بين جنباته قـلب طفـل لم يفارقه رغـم تجاوزه اليوم الخمسين عامـًا، وكان دائما قـلـيـل الأصدقاء المقربين لإيـمانه الشديـد بأن في الـصداقة الحقّـة من الوشائج ما لا يـقـل قـدسيّة عـن الأخـوّة، وهـو ما أدى به إلى التساؤل أمامي، وقـد مرت عليه عـدة سـنين صديقـًا لزهدي، عن مكان الفخ الذي يمكن أن يكون هذا الصديق قد نصبه له، إذ كان دائم التخـوّف منه إزاء تحذيـراتي المتواصلة له وتـحـذيرات غـيري التي كانت تصله تباعـًا عـلّـه يـتخـذ أسباب الحيـطة والحـذر. وقد قال لي يـومـًا أنه لم يـجـد مكـروهـًا من زهدي قـط رغـم مرور سـنـوات عـلى عـلاقـة الصداقـة بـينهما، فـلم أتمالك إلاّ أن قـلت له أن يـظـل حـذراً ما استطاع.

وجاءت علامات التنبيه الأولى لسليم بشأن نوايا صديقه زهدي عـندما قام الصحفي بتأسيس مجلة عـربية متواضعة توزع شهريا بشكل مجاني في مدريد، حـقـقت نجاحـًا بين أعـضاء الجالية العـربية في المدينة. ولـم يَخْـفَ عـلى زهدي أن تلك المجلة كانت حديث الساعة بين المغـتربين العـرب ممن كان يقابلهم لاسيما وأنه لـم يكن هناك ثمة مجلة أخرى غيرها في ذلك الوقت، ولـم تكن المواقع الصحفية على انترنت قد ظهرت آنذاك. وكـان الدكتور زهدي قد تظاهـر بتـشجيع مشروع صديقه فحجز الغلاف الخارجي من المجلة لـينشر فيه إعلانـًا

لمجَمّع العيادات الطبية الذي يملكه. وفعلا نُشِرَ ذلك الإعلان في الأعداد المتعاقبة للمجلة بموجبِ طلَبه بَل وإلحاحه. وطالبه سليم بعد شهور من بدء صدور المجلة بثمن الإعلانات ولكنه لم يجد لدى صديقه الزائف إلاّ التأجيل والمماطلة، وهي نفس عملية النصب التي ارتكبها مُعلنٌ آخر من أصدقاء سليم في منطقة بلنسيه، وهو أيضا، ويا للصدف، طبيب وتاجر ثري كانت تجمعُهُ بالصّحفي صداقة أكثر من ربع قرن، وكان يُعلن في المجلة عن محل تجاري له، عدداً بعد عدد أيضـًا. وعبثـًا حاول صديقي ومساعِده في المجلة تحصيل قيمة الإعلانات من الطبيبيْن. وإن كان لاحق الأيام والسنين لم يُعطنا تفسيراً واضحـًا لتصرف الطبيب التاجر في بلنسية على هامش كونِه من نفس طينة الدكتور زهدي، ألا وهي طينة المستغلين والنصابين، فإنه قدّم لنا تفسيراً جليـًا لتصرف هذا الأخير في امتناعه عن دفع دينه للصحفي سليم، كما سنرى فيما بعد.

وصارَحَني سليم بعد إغلاقه المجلة بشهور أن صديقيْه وأمثالهما من معارفه العرب ممن نصَبوا عليه كانوا السبب الرئيسي في إضطراره إلى إغلاق تلك المجلة. وفهمتُ منه أنه كان ينشر إعلانات زهدي دون أن يخالجه أدنى شك بأن صديقه سيُوفي بالتزامه ويدفع ديونه، وهو ما لم يحصل إذ لم يتلقّ من زهدي سوى الوعود والابتسامات العريضة والكلام المعسول، إلى أن انتهى الأمر بالطبيب أن فاتح الصحفي بأن حالته المادية متردية للغاية وأن مجمّع العيادات لا يدرّ عليه سوى الخسائر وأنه ينفقُ عليه من راتبه في المستشفى. وبالطبع فإن ذلك كله كان مجرد تلفيق من الرجل الذي كان يتباهى بثروتِه ذات اليمين وذات الشمال، في الوقت الذي كان لا يكفّ فيه عن توسيع وتحسين مبنى العيادات. إلا أن صديقي سليم على درجة من دماثة الأخلاق منعَته من العودة إلى مطالبة كل من زهدي وصديقه في بلنسية بديونهما له، ولكنه انقطع عن الرجلين انقطاعـًا تامـًا إذ أنه لم يصدق ادعاءات الأول بينما انقطعت مكالمات الطبيب الثاني عنه تمامـًا ولم

يعد يردّ على اتصالات سليم ومساعده في المجلة. وكان هذا الطبيب، الذي قدمه لي صديقي ذات مرة باسم الدكتور حسّان، مواظباً طيلة سنين على الإتصال هاتفياً بسليم من بلنسيه على الأقل مرتين في الشهر، لتستمر معظم مكالماته لأكثر من ساعة كان يروي فيها على مسامع صديقي تفاصيل صفقاته وأرباحه المالية ومشاكله التجارية ومغامراته العاطفية، لاسيما بعد أن دخل في دوامة غرامية عاصفة وهوجاء استمرت لعدة سنوات مع فتاة في عمر أبنائه وتسببت في إثارة مشكل جمة ومعقدة في حياته كان يستعين على حلها باستشارة سليم بشأنها. وكنت قد قابلتُ حسّان هذا بصحبة سليم عندما جاء في زيارة لمدريد قبل سنين فوجدته من نفس طينة زهدي جُملة وتفصيلاً، لهُ نفس مشيَة الطاووس وجهل الأميين وعبادة المال، ولا شيء في هذا العالم غير ذاته يستحق التأمل.

***

وبعد واقعة النصب تلك دارت بيني وبين سليم أحاديث كثيرة صارحته في إحداها بما وصلني من أصدقاء آخرين بأن الدكتور زهدي كان يكرهه كُرها شديدا ويغتابه ويحسده حسداً مريراً، لاسيما بعد أن بدأ بإصدار تلك المجلة البسيطة، وهي معلومات كنت أعرفها من جهات عدة، فلم يكن مسعى زهدي لعقد صداقة مع سليم إلا من باب المصلحة المحضة. وكان سليم يهزّ رأسه يمينا وشمالا وهو يكاد لا يصدق تلك المعلومات التي كان يسمعها مني لأول مرة.

وفي جلسة عائلية جمعتنا، تدخلت زوجته وزوجتي بالحديث تؤيّدان كلامي، وراحت زوجته تؤنّبه لأنه لم يسمع تحذيراتها له بشأن زهدي، وإذ بها كانت هي أيضا قد حذرته منه المرة تلو المرة، وهي التي لم تكن تعرف عنه شيئا قبل دخوله عالم زوجها. وراحت تعدد له المرات التي قابلا فيها زهدي معاً ليَجدانه مرتدياً قميصاً أو سترةً أو معطفاً جديداً مشابهاً تماماً لمثيلَه من ملابس سليم، كما

راحت تُعدد له المرات التي قالت له فيها أنها لَمَحت كيف كان زهدي يرمقه شزراً من طرفٍ خفِي أو بنظرات ليس فيها من خير، وما إلى ذلك من أمور تبدو صغيرة إلا أنها كانت ذات معانٍ كبيرة بالنسبة لها.

وكانت كراهية زهدي وحسَده لسليم قد تضاعفا بالفعل بعد إصدارصديقي للمجلة، فكم من مرّة سمعتُ زهدي، في لقاءاتنا العابرة في المستشفى، ينتقد سليم بكلمات غامضة تحتمل تفسيرات عدة، إذ كان يعرف أن صداقة عميقة تجمعني به، وأنني لم أكن لأسمح له باغتيابه بشكل سافر، ولذلك فإن الطبيب لم يكن يجرؤعلى انتقاد سليم أمامي بصراحة، ولكنه أيضا لم يكن يملك لجمَ لسانه، وكان معروفا عنه أنه معتاد على اغتياب الكثيرين. ولم يكن زهدي يُفوّت أي فرصة لقاء بيننا، لاسيما في فترة الإستراحة الخاصة بتناول وجبة الغداء في مطعم المستشفى، دون أن يرمي فيها جملة أو اثنتين، مغلفة بالكلام المُنمّق، ضد صديقي سليم، في محاولة دؤوبة منه للإيقاع بيننا. وكنتُ أذكرُ ذلك لسليم فيعيد عليّ دائما مقولته التي سمعتها منه على مرّ السنين، ألا وهي «مهما فعل الإنسان فإن الناس ينتقدونه، وبحكم طبيعة عملي فإن الكثيرين ينتقدونني حتى أولئك الذين لكم أسديت لهم من خدمات دون مقابل، فدعهم يقولون ما يشاؤون من وراء ظهري ما دمت لا أرى منهم مكروها وجها لوجه».

وكان إذا ألقى عليّ بتلك المقولة أتبَعها بقولِ الشاعر:

وأربَعٌ لتُفسِدُ الوجودْ
تقوِّضُ النعيمَ بالحِمَمْ
صديقُكَ الذي رَكَنْتَ لهْ
يلوكُكَ اللئيمُ مِنْ عَدَمْ
وناكِرٌ، نعيمُهُ يَداكْ
ناقِمٌ يَغُلُّهُ قَسَمْ[1]

---

(1) من قصيدة (إنها الخطوب تنتظم). من مجموعة (سنابل الحياة) للمؤلف.

وكان إذا اكتفى بهذين السببين من المسببات الأربعة لتنغيص العيش حسب تلك الأبيات، يضيفُ قائلا أن الجميع يعرفونه في مدريد منذ سنوات طويلة ويعرفون معدنه، فمهما اغتابه بعضهم فإن ذلك لن يجديهم نفعا. أي أن سليم كان يصمُّ أذنيه عن إغتياب زهدي له، لربما اعتقاداً منه أن الأمر لم يكن يتعدّى نوعًا من المبالغة من جهتي حرصًا مني على مصلحته.

وكثيرا ما كنتُ ألاحظ كيف كان سليم يبتعد عن انتقاد زهدي وقد مرّت شهور على إغلاق المجلة وانقطعت اللقاءات بينهما، وكنتُ ألمسُ أحيانا ما في قلبه من مودّة لزهدي رغم كل ما تقدم من بوادر خسة صدرت عنه.



8

الدكتور زهدي

أول محاولة للإستيلاء على جمعية

لـم يكن موضوع المجلة هـو الوحيد الذي خذل فيه الدكتور زهدي صديقي سليم، فبعـد مرور سنتين تـقريبا على تأسيس الجـمعـية وكانت قـد توطـدت العلاقات بينهما، وهـو ما كان يسعـى له الطبيب أصبح هذا الأخيـر يلعـبُ فيها دورا سلبيا واضح المعالم، ومن ذلك امتناعه عن رسوم عضويته فيها، وفي نفس الوقـت لـم يكن يتخلف عـن أيٍّ لقاء أو اجتماع أو مؤتمر تـقـيمُه الجـمعـية. وفي هذه اللقاءات والإجتماعات عادة ما كان زهدي يعمدُ لإثارة النقاشات المحتدّة وتأجيج المواجهات بين الحضور أو متـنطحـاً بنفسه لهذا أو لتلك من المجتمعين، متهمـاً وموَبّخـاً، مما كان يحوّل تلك الإجتماعات واللقاءات إلى حلبات مواجهة بدلاً من أن تكون فرَصـاً للتعاون والحوار والتفاهم. ولكنه كان يفعـل ذلك كلّـه بمراوغة وازورار مما كان يحول دون التـمكـن من اتهامه بصراحة بمحاولة هـدم الجمعـية من الداخـل. وكنتُ ومعظم زملائي في الجمعية قد انتبهنا في نهاية المطاف إلى أن زهدي كان مستميتـاً في محاولاته في تلك الإجتماعات إلى الأخذ بزمام الجمعية بدلاً من سليم الذي كان بدوره حريصـاً عـلى عـدم الزج بالجمعية في أتون الإنقسامات الداخلية أوالإتهامات الصريحة ضد أحد من أعضائها، كائنا من كان. وأدت كل تلك الخلافات بين زهدي وأعضاء اللجنة الإدارية تدريجيا إلى ابتعاده عنهم والتوقف عن التفاعل معهم في تسيير شؤون الجمعية.

وكان دور سليم في تلك الجـمعـية ونجاحها الثقافي والإجتماعي في الوسطين العـربي والإسباني قد أكسب صديقي ومجموعته من المؤسسين هالة من التـقـديـر في كلا المجتمعـين، وهـو السبب الذي

كان وراء محاولات الدكتور زهدي إفشال الجمعية والعمل سراً على إطلاق الإشاعات المسيئة لها وللقائمين عليها وعلى رأسنا سليم. كان الطبيب قد فشل في محاولاته الإندماج معنا إذ كان يعمل بهدف وحيد هو مصلحته الشخصية، فخشيَ أن تؤدي خدماته للجمعية إلى المزيد من االنجاح في عملها والمزيد من التألق للقائمين عليها، وهو ما انتهى به إلى التفكير جدياً بأنه كان يتعيّن عليه أن يترأس جمعية هو أيضاً علّه يحقق من خلالها شيئا من التألق، أو أن يكتسب هالةً ما طالما تاق إليها.

فلقد كان هناك -وما زال- فرق شاسع بين شخصيّتيّ الرجلين، فزهدي، بعكس سليم، ممثلٌ بارع يؤدي دور الرجل المهذب واللطيف والصادق ودور الصديق الذي لم تلِده أمْ أداءاً باهراً، مما أدى في تلك المرحلة من حياته إلى بلوَرة صداقات كان معظم أصحابها يظنون أيضا أنه صديقهم حقا. وكان يستخدم هؤلاء المعارف والأصدقاء لتلميع نفسه أمام نفسه، وليكونوا هم الجمهورالذي يتباهى أمامهم بما شاء له التباهي. ولم يكن هذا منتهى مراده، فقد كان يتطلع إلى أن يتلقى الإطراء والشكر والثناء من «عُلّية القوم». وكان الرجل بمثابة الحاسوب الحي، يُحصي كل كبيرة وصغيرة، فهو إن بذل مجهودا أو مالا في أصدقائه أو معارفه أو لصالح الجمعية أوغيرها فإنه يكون قد حسب ذلك مُسبّقا ليعرف مدى ما سيجنيه من فائدة لقاء ذلك. لا شيء عنده لوجهِ الله، فلكل مجهود مردود شخصي ولو بعد حين. وكان يعرف كيفَ ينتظر، انتظار الثعلب، ليقطف ثمار تخطيطه.

وعلى فراغ باطنه من أي وازع أو رادع أخلاقي أو ديني، فإنه كان -وما زال- يتفانى بالتظاهر أمام الناس بمظهر التّقي الورع. بل وكان يحج إلى بيت الله الحرام المرة تلو المرة، في محاولة مستميتة لكسب هالة من الإحترام والوقار لا تمت بصلة إلى وقائع حياته، الواحدة تلوَ الأخرى، كما رأينا وكما سنرى. وكان البعض يتهامسون

من حوله ساخرين ومطلقين عليه بإصرار وتهكم لقب «أبو لفّه»، أي « أبو عِمامَه»، في تأكيد منهم على انطباق مظهره الديني المسرحي على إسمه العائلي الحقيقي، رغم أن اسمه الأول، «زهدي» لا علاقة له بواقع وطبيعة شخصيته، بل هو معاكس له تماما. وفي كل مرة عاد فيها الدكتور زهدي من الحج راح يشيع بين جلسائه المُقربين أبشع الصورعن الحج والحجيج وعن مكة المكرمة، وراح يشرح بالتفصيل والإسهاب، المرة تلو المرة، مدى المعاناة التي تجشمها في الحج والمناظر «البشعة» التي شاهدها، والمواقف التي كابدها على يد غيره من الحجاج وعلى يد السلطات هناك. وكان يؤكد في أحاديثه تلك أنه لن يعود لارتكاب «هذا الخطأ» من جديد. إلا أنه وبمرور الوقت، كان يعود للحج مرة أخرى مبالِغاً بالتظاهر بالتقوى، ثم يعاود الكَرّة مردداً بين جلسائه أبشع الحديث عن الحج والحجيج، في تناقض عجيب مع رغبته في كسب هالة الرجل الوَرِع، إلا أن ذلك كان -وما زال- بمثابة التناقض الذي لا مفرّ لهُ مِنه والذي يجبره عليه ويُمليه إعوجاجُ ذنَبِ الكلب، فالطبيعة تغلب التطبّع، ومن شبَّ على شيء شابَ عليه.

ولكن إذا نظرنا من جانب آخر إلى تناقضه مع نفسِه لوجدنا أنه ليس هناك ثمة تناقض في واقع الأمر، فإنه أولاً لم يكن ينتقد الحج والحجيج والسُلطات في مكة المكرمة والمدينة المنورة إلا أمامنا نحن، معارفه وأصدقاؤه وزُمَلاؤه، وجميعنا في نظره ممن «لا يهشّ ولا ينِشْ»، فلسنا في نظره من فئة أكابرالقَوم، وهو ما يعني أنه لم يكن يهمُّه شأننا. وكان إذا ما التقى بأحد أعضاء تلك الفئة أو بأحد رجال الدين القلائل المقيمين في مدريد عمِلَ على إيهامه بأنه عائد من مكة المكرمة والخشوع يلفّه من أعلى رأسه إلى أخمص قدَمَيه، فتجده والحالة هذه لا تفارق شفتيه عبارات مثل « الحمد لله» و «أستغفرُ الله» و «سبحان الله»، وهلم جرا، دون أن يفلت المسبحة من بين أصابعه في حضورهم، ولكن دون أن يستشهد مرة واحدة بحديث شريف أو

بآية قرآنية إذ أنه من الجهل والأميّة الثقافية والدينية ما لا يتجاوز بالكاد حدود حفظ سورة الفاتحة. وكنتَ تراه إذا كان في جمْع عرف أنهم من المصلين أول من ينهض للصلاة، وقد كسا وجهه بهالة من الجدّية والخشوع كنتُ كلما رأيته بها أغالب نفسي حتى لا يغلبني الضَحك. فإذا رأيته في اليوم التالي في المستشفى كنت أقول له ساخراً:

- كدتَ تفلقني يوم أمس يا شيخنا.

فيرد عليّ قائلا وهو يعض على شفتِه السّفلى ويتلفّت حوله:

- للمصالح أحكام يا دكتور سفيان.

كان يقولها هكذا وبكل بساطه لأنه كان يعرف أنه كان يمكن له أن يمثّل أدوارا شتى أمام العالم كله، إلا أمامي أنا.

كما كنتُ أراه في مجالس العرب ممن لا يقيمون شعائر الدين، أو في المجالس العربية الإسبانية، ينتقد المُتديّنين ويفاخر بأنه لا يتمسّك بتعاليم الدين، كي يُرضي جُلساءه. فهذا رجل لم يصادفني في الحياة إنسان مثله قادرعلى تغيير لون جِلده بتلك السهولة والمرونة والإتقان.

وهكذا، وإزاء تدهور وضعه في جمعيتنا واتضاح أمره فيها وفقدانه لثقة معظم أعضاء الجمعية، وجّه الدكتور زهدي أبو لفّه نظره إلى جمعية إسلامية عريقة ونَشِطه، فتوجّه إليها مُتّشحاً بمسحة التديّن والورع، وراح يُغدق عليها المساعدات المالية مما أدى إلى تحقيقه اقتراباً من أعضاء لجنتها الإدارية، ومعظمهم من المتديّنين المخلصين حقاً وصدقاً.

وقام الطبيب بمحاكاة أصدقائه الجدد محاكاة حربائيّة فائقة الدقة، حتى كسب شيئا من ودِّهِم، رغم استمرارهم باتخاذ جانب الحذر منه، إذ لم يقتنع أي منهم بصدق نواياه، إلا أنهم بدؤوا بالتردد على منزله بعد كثرت دعواته لهم، تارة إلى غداء وأخرى إلى عشاء.

وكانت غاية سعادته أن كبار تلك الجمعية، ومعظمهم من أصحاب القدر والتبجيل في الأوساط العربية في مدريد، قد قبلوا دعواته تلك. وكان مطمحه أن يُصبح، بمرور الوقت والتحلي بالتأنّي والصّبر، واحداً منهم، وأن يتمكن، عبر هداياه ومساعداته لهم والولائم التي كان يقيمها على شرفهم والتي كان يملأ فيها بيته بأجواء العبادة، من الوصول إلى موقع قيادي في الجمعية، ومن يدري؟ لعله يصل إلى الإستيلاء عليها وهو الذي كان قد بدأ يتوهم، بمرور الوقت، أنه آخذ بتحقيق نواياه وخططه في تلك الجمعية.

ولم يكن هناك من مكان للشك بأن تلك الجمعية الدينية كان لها من التاريخ العريق والنفوذ والقوة في الجالية العربية ما يفوق بكثير ما للجمعية التي كان سليم يقوم عليها والتي كانت ما زالت حديثة العهد. غير أن زهدي وجد نفسه، وقد مرت سنوات على محاولاته اليائسة تلك اختراق الجمعية الدينية، أبعد ما يكون عن تحقيق خطته للإستيلاء على مقدّراتها التي كانت في يد مجموعة لمْ تنطل عليها ألاعيبه وحيَله، فإن من يسكن الدين قلوبَهم حقّاً سيماهُم فيَ وجوهِهم، أما أصحاب النفوس الحربائية فسيماهم في وجوههم أيضا بالنسبة للنابهين والمُتيَقّظين، مهما تلوّنوا وتشكّلوا. أضف إلى ذلك أن تلك الجمعية التي كانت ذات اتصال واسع بالجالية العربية في مدريد، كانت قد تلقت على مَرِّ السنين في مسجدها ومكاتبها الكثير من الأخبار السلبية عن زهدي وكثير من الشكاوى ضده.

ولمّا فقد الطبيب أمله في تلك الجمعية انفضّ عنها فجأة ودون مقدمات، محتفظاً معها بشعرة معاوية، ليتجه بنظره إلى هيئة إسلامية أخرى تتمتّع بامكانيات مادية ضخمة. وبدأ زهدي يتردد على المسجد الكبير التابع لتلك الهيئة، لاسيما للصلاة أيام الجمعة، ولم يكن له بين القائمين عليها سوى معرفة سطحية ببعضهم، فعمَد إلى الإلتصاق بهم بكل ما لهذه الكلمة من معنى. وصار يتردد عليهم في

مكاتبهم كما لو كان صديق العُمر لكل منهم، وراح يكسبهم بطريقته القديمة ألا وهي عرض خدماته الطبية المجانية عليهم بل واستقبالهم في المستشفى لعلاجهم أو تسهيل معاملاتهم الطبية، إضافة إلى دعوتهم إلى الولائم في بيته المرة تلو الأخرى. ولكن، وبعد نحو سنتين من ممارسة كافة صنوف التملق للقائمين على ذلك المركز، لاسيما مديره، باءت محاولات زهدي بالحصول على أية نتيجة مُرضية له، إذ كان معظم أولئك المسؤولين على اطلاع ولو يسيرعلى سيرة ذلك الطبيب، لاسيما انتقاده اللاذع للحج وللسلطات في الديار المقدسة، ورواياته الملفقة عن تجاربه في الحج.

* * *

9

الدكتور زهدي
وزوجته الثالثة والمُحجّبات

وعقَدَ زهدي قرانه للمرة الثالثة على فتاة عربية تصغُره بأكثر من عقدين من الزمان، وكانت صديقة لسليم وزوجته لوقت طويل قبل زواجها. وكانت صداقتهما نظيفة فرضتها ظروف تمخّضت عن حرب الخليج الأولى عندما كانت الفتاة في مدريد تستعد للعودة إلى الكويت لتنضمّ لأمها وأبيها في الوقت الذي احتلّ فيه الجيش العراقي تلك الدولة العربية في أكبر حماقة ارتكبها جيش عربي ضد الأمّة العربية في القرن العشرين وجرّت الويلات -وما زالت تجرّ- على المنطقة العربية. ووجدت الفتاة نفسها وحيدة في مدريد، التي كانت تعرفها جيداً، إذ كانت قد قضت فيها سنيَّ طفولتها ومراهقتها برفقة والديْها.

ولجأت هيفاء ، وهو اسم الفتاة، إلى الصحفي سليم تستطلعه تفاصيل ما يدور في الكويت لاسيما أن أهله كانوا أيضًا من المقيمين فيها، أسوة بأهلي كذلك. وهكذا جرى اتصال مستمر وصداقة بين سليم وهيفاء بينما كان الصحفي يتسقط الأخبار التي كانت نادراً ما تصل عما كان يجري داخل الكويت المحتلة من فوضى عارمة واعتداء على الأشخاص والممتلكات على يد جيش الإحتلال، وعلى يد المدنيين الذين تدفقوا معه للنهب، أو عن الأحوال المعيشية البالغة الصعوبة التي كان يعاني منها الكويتيون وغيرهم من المقيمين في ذلك البلد آنذاك، وبينهم والديْه وأشقائه ووالديّ هيفاء وأشقائها ووالديَّ وأشقائي. وتوطدّت الصداقة بين هيفاء وسليم وزوجته ثم بي وبزوجتي منذ فترة احتلال الكويت وحتى اليوم. وحرص صديقي الصحفي على مساعدة الفتاة ومساعدتي جهد طاقته في تلك المحنة

التي كانت أخبار أهالينا فيها قد انقطعت عنا لفترة طويلة، وكنتُ أتابع كل ذلك عن طريق صديقي أولاً بأول، متسقطاً بدوري الأخبار حول الأحوال في الكويت ومحاولاً الإتصال بأهلي بمساعدة سليم، الذي كانت له من الإتصالات بحكم عمله الصحفي ما كان يتيح له أحياناً الإتصال الهاتفي بمدينة الكويت.

وعندما استردّت الكويت استقلالها قمتُ مع سليم بزيارة أهلنا فيها. وفي الكويت رافقتُ سليم ووالدته في زيارة لوالديّ هيفاء، فرحّبا بنا أشد ترحيب، مستطلعين أخبار ابنتهما. وكان الزوجان في ذلك الوقت يُحزّمان أمتعتهما وأثاثهما الفاخر ليعودا به إلى إسبانيا حيث كانا يملكان بيتا في مدريد منذ سنوات بعيده. وقامت أم هيفاء بإطلاع زائريها على المتاع التي كانت تستعد لنقله إلى مدريد، فسنحت لنا فرصة معاينة أفخم أنواع السجاد والأواني والتحف الثمينة لاسيما وأن السيدة كانت -وما زالت- فنانة رفيعة المستوى في الرسم والنحت. وهذه المعلومات التي تبدو لأول وهلة هامشية وغير ذات أهمية في قصة الحياة المسرحية للدكتور زهدي لهيَ على درجة من الأهمية كما سنرى في مقبل السطور والصفحات. ونشأت بيننا وبين والديّ هيفاء صداقة طيبه منذ زيارتنا تلك لبيتهما الكويتي الذي كان ينضح رُقيّاً وجمالاً، رغم أنه كان في طوْر التفكيك.

نعم... شاء سوء طالع هيفاء ، التي كنا -وما زلنا- نكنّ لها مكانة خاصة، أن تقبَلَ بالزواج من الدكتور زهدي. وشاهدتُ وأصدقائي من زملاء زهدي السابقين في الدراسة وزوجاتنا، ولكن بعد فوات الأوان، كيف تكرّرت قصة زواجه من عبير، فقد تكتّم الرجل على خطوبته لهيفاء ولم يُطلع عليها أحدا، ولا حتى سليم، الذي كان أصلاً عرّفه عليها.

ولم تسْتشِرنا هيفاء ولا والداها عندما طلب زهدي الزواج منها، رغم الصداقة الطويلة والطيبة التي كانت تجمعنا بها وبعائلتها. وطيلة

سنين، لاسيما بعد طلاق زهدي وهيفاء، تساءلتُ وسليم وأصدقاؤنا عن السبب الخفيّ الذي منع هيفاء وعائلتها من مجرد إخبار سليم، صديقهم الحميم آنذاك، بشأن خطوبة هيفاء لزهدي، وعن السبب الكامن خلف إخفاء هذا الأخير نبأ خطبته لهيفاء إخفاءاً تامـًا، حتى أن أحداً منا لم يعلم بشأن نيتهما عقد قرانهما حتى تسلّمنا الدعوات لحفل الزفاف. ولعل الإجابة على السؤال الثاني كانت بديهية نوعـًا ما، فالرجل يعرف اطّلاعنا المسهب والمفصل والطويل على ماضيه. إذن فهو قد آثر إخفاء مشروع زواجه هذا حتى لا يقوم أحد منا بفضح أمره أمام هيفاء ووالديْها واللذيْن كان أمرهما بلا شك يهمّه بشكل خاص، لِما علِمَه عن ثرائهما وقدومهما «مرَيِّشين» من الكويت.

أما الإجابة على السؤال الأول فكانت هي المحيّرة حقـًا، فهل يُعقل أن يكون زهدي قد طلب من هيفاء ووالديْها إخفاء أمر خطبته لها إلى حين موعد الزفاف، أي بعد أن يكون عقد القران قد تمّ وانتهى الأمر؟ وجاءنا الجواب، ولكن بعد طلاق زهدي وهيفاء. جاءنا من جانب الأستاذ فايز، وهو مدرّس عربي كان وزوجته العربية قد عقدا صداقة متينة مع زهدي وهيفاء طيلة فترة زواجهما إلى أن وقعت بينهما وبين زهدي القطيعة التامة، بل العداوة المستشرية، ولكنهما احتفظا بعلاقة طيبة بزوجته هيفاء. فقد قال لنا فايز، وهو وزوجته من أرفع من عرفتُ خُلقا وأدبًا، أن زهدي طلب من والديّ هيفاء عندما خطَبها كتمان ذلك تمامـًا عن أصدقائه «لأنهم يحسدونه جدا، فإذا علموا بخطبته لهيفاء فإنهم سيبذلون قصارى جهدهم للدّسّ بينها وبينه كي لا يتمّ عقد القران». ويبدو أن والديّ هيفاء قد صدّقا كلامه وفضّلا مجاراته في طلبه الكتمان إلى حين الإعلان عن حفل الزفاف.

وراح زهدي بعد طلاقه من هيفاء يُشيع -دون أدنى درجة من الحياء- عن زوجة الأستاذ فايز، أنها كانت تحبه وأنه رفضها المرّة تلو

المرّة. وراح يشيع أنهما كانا لهذا السبب دائما التردد على منزله رغم جهل الزوج، فايز، بنوايا زوجَته تجاه صديقه. وكانت ممارسة زهدي قذف المحصّنات الغافلات من عاداته اليومية وأحاديثه الإعتيادية إذا ما خلت الجلسة ممن كان يخطُبُ ودّهم أو يخشى جانبهم. فقد كان ادعاؤه أن السيدة كذا تحبه وأن زوجة فُلان تعشقه وخطيبة علتان تحاول الإيقاع به، من أحاديثه الإعتيادية التي طالما تسببت له بمشاكل.

وحدث ذات مرة في جلسة جمعت عددا من الأصدقاء والمعارف وزوجاتهم من غير المحجّبات أن دار الحديث حول الحجاب والمحجّبات وتناول البعض الموضوع بين مؤيد للحجاب ومعارض له في حديث هادئ جرى فيه تناول هذه القضية من جوانبها الثقافية والدينية والفقهية، وكان معظم الحضور من أصحاب الثقافة والمعرفة. فإذ بالدكتور زهدي، وكان متزوجا للمرّة الثالثة وحاجّا للمرة الثانية، وقد انبرى قائلا، وهو الذي لا يستطيع مجاراة المثقّفين في مثل أحاديثهم تلك، المستندة إلى معلومات وأسس فِقهية وآيات قرآنية، أن الحجاب سخافة ما أنزل الله بها من سلطان، وأن الحجاب لا يعني كون المحجبة متديّنة أو شريفة حقا. وانزعج معظم الحضور من كلامه ذاك أيَّ انزعاج وقام أحدهم بالرد عليه باحتداد، ثم انبرى آخرون من رجال ونساء يوبخون زهدي، مما أدى إلى ارتفاع حدّة النقاش بينه وبينهم فإذ بهذا الأخير، ورغبة منه في إسكات الآخرين وفرض رأيه عليهم، يشتط في ادعاءاته وتطاوله على المحجبات فيقول أن سيدة محجّبة ومتزوجة تسعى منذ أكثر من سنتين خلفه من أجْل أن يصاحبها وأنه يهرب منها باستمرار وأنها تطارده بلا هوادة و«تطبُّ» عليه في بيته أو في عيادته إذا علِمتْ أنه موجود هناك لوحده، وأنه كلّما حدث ذلك يقومُ بالهرب ومغادرة المكان. وانطلق موغلاً في قِحتِه، وقد اعتقد أنه أفحَمَ مناقشيه، والجِدّيّة والأسى المُفتعلان يكسوان وجهه، متظاهراً بأنه يأسف لمثل ذلك المستوى الأخلاقي من طرف تلك السيدة التي تطارده. وكنت أرقب الجلوس متوتراً وهم

وجومٌ يستمعون وينظرون مقطّبي الجباه وفاغري الأفواه وهم يشاهدون الطبيب زهدي وقد بدا أنه أفلتَ زمامَ عقله وهو يستعرض خِسته دون أدنى خجل في مجلس يضم بعض السيدات. وإزاءَ هذا الوجوم راح الطبيب، وقد توجّس شرّاً، يفرّ إلى الأمام فيُعطي المزيد من المعلومات حول تلك المرأة المُدلّهة عشقاً له وولعاً به، دون أن يجرؤ على ذكر اسم بعيْنه، وبادياً وكأنه كان على وشك أن يذكُرَ إسماً ما، فما كان إلا أن نهَضت إحدى السيدات المشاركات في تلك الجلسة وقد استشاطت غضبا، فوجّهت له سيلاً من الشتائم أمام الجميع، فسكتَ من توّه وقد أصابه الذهول، بينما انسحب الحضور من الجلسة بين موبِّخ ولاعِن، فلم يبق معه غيري. وبقينا صامتيْن لا نتفوّه بكلمة، وهو لا يجرؤ على النظر إليّ وجهاً لوجه، فقد كان يعرف مسبّقا ما كنت سأقوله له. فلمّا هدأ روعه نوعاً ما سألته متحديا، وكنت ألجمُ أعصابي عُنوة، عن اسم تلك المحجَّبة التي ادّعى شغفها به لدرجة الجنون، فطلب منّي أن أتركه وشأنه، فقلتُ له وقد بلغ مني الغضب مبلغه ودونما أدنى مراعاة لمشاعره، وهو الذي لا يقيم وزنا لمشاعر أحد غيره:

- بل أنت كاذب من أول القصة التي رويتها إلى آخرها. هل جننت يا رجل؟ وأين ذهب حَجُّك ولم تمض عليه بعد إلّا شهور قليلة؟ ورحتُ أؤنّبه وهو صامت ممتقعُ الوجه، لا يملك سوى ترديد «دعني وشأني».

***

10

الدكتور زهدي
وفضيحة في المستشفى

ذات يوم، وكان الدكتور زهدي آنذاك يقوم بتوسيع مُجمّعه الطبي من جديد، مضيفاً إليه غرفة لإجراء العمليات الجراحية لحساب شركات التأمين الطبي الواسعة الإنتشار في إسبانيا، جاءني مهرولاً إلى عيادتي في المستشفى، حيث كان عدد من المرضى ينتظرون أن أستقبلهم، طبيبٌ إسباني من زملائي وعلى وجهه إمارات الغضب الشديد ليطلب مني أن أرافقه، فما أن وقع نظري عليه حتى شعرت بخطورة النبأ الذي كان يحمله لي ولكنه لم يشأ أن يُفصح عنه حتى ابتعدنا عن العيادة فانزوى بي في قاعة انتظار خاوية من الزوار ليقول لي بصوت متهدّج:

- إنها مصيبة يا دكتور سفيان.

فأمسكت به من كتفيه وضغطت عليهما مهدئاً من روعه ومردداً بهدوء :

- دكتور خيرمان، ما الخبر؟ لم أرَكَ متوتراً هكذا من قبل.

وكان ذلك الطبيب آنذاك مسؤولاً عن قسم الجراحة الباطنية في المستشفى. فقال لي مثبّتاً نظره في عينيّ من فوق الحد الأعلى لعدستيّ نظارته، وبصوت خفيض مكبوت، وكأنه يشتمني:

- إنه مُواطِنُكَ الدكتور زهدي، يا دكتور سفيان.

وفاجأني بقوله لي أن الدكتور زهدي ضُبط متلبساً بسرقة أجهزة وأدوات جراحيّة. فوجدتُ نفسي أصرخ وقد طار هدوئي للتوّ واللحظة:

- ماذا؟ من غير المعقول ما تقوله يا دكتور خيرمان!

وعلمتُ منه أن أجهزة وأدوات جراحية عدة قد اختفت من المستشفى في الأسابيع الأخيرة وأن الشّبهات كانت تحوم حول الدكتور زهدي، لأن السرقات وقعت جميعاً في ليال كان الدكتور زهدي فيها كلها من جملة الأطباء المناوبين. واشتدت الشبهات حوله لمعرفة الجميع من زملائه في المستشفى بأنه يقوم بتجهيز غرفة عمليات في مركزه الطبي خارج مدريد، فهو لا يقوى على عدم استعراض نفسه والتبجح بمشاريعه أمام الآخرين. ووضعَت إدارة المستشفى كاميرات خفيّة لضبط الجاني، فكان أن وقع الدكتور زهدي متلبّساً، إذ تم تصويره أثناء قيامه بالسرقة.

وهُرعتُ باحثاً عن زهدي في بيته وفي مجمّعه الطبي، إذ لم يكن يرد على اتصالاتي الهاتفية به، ولكنني لم أعثر له على أثر، حتى علمتُ أنه غادر مدريد مع زوجته هيفاء لقضاء بضعة أيام في شقة يملكها على الساحل الجنوبي الإسباني. وواصلتُ اتصالي هاتفياً به دون جدوى بينما كان الخبر قد انتشر في المستشفى انتشار النار في الهشيم، والأطباء والممرضين والموظفين الإسبان لا همّ لهم سوى التعرّض لي في ردهات المبنى وأروقته سائلين عن الدكتور زهدي، ثم منهالين علَيّ بالأسئلة التي كانت في أغلب الأحيان تصلُ إلى أذنيَّ في قالب توبيخيّ، لمجرد أنني وزهدي من نفس البلد، وكأنني لهذا السبب مسؤول عنه أو وصيّ عليه. وكنت أشتمُّ رائحة الشماتة في أسئلة البعض وفي نظراتهم لاسيما أولئك الذين كانوا يُعرَفون بكرههم للعرب، هكذا لوجه الله ودون أن يكون لمعظمهم معرفة بأي عربي من خارج المستشفى أو سابق تجربة مع أي عربي.

وعلمتُ من طبيب ينتمي لنفس القسم الذي يعمل فيه زهدي أن هذا الأخير قد طلب إجازته السنوية هاتفياً في اليوم التالي لاكتشاف أمره، وآثر الإبتعاد عن المستشفى حتى تهدأ العاصفة التي أثارتها قضية السّرقة تلك. وقال لي ذلك الطبيب أن زهدي قد اتصل

هاتفياً لعدّة مرات بعدد من المسؤولين في إدارة المستشفى في محاولة منه لتطويق الفضيحه، وأنه قام في إحدى هذه المكالمات بتوجيه دعوة لأحد هؤلاء المسؤولين لقضاء عِدة أيام في فندق قريب من بيْته الساحلي، في محاولة للتقّرب منه كي يتوسّط له في حل تلك القضية لدى إدارة المستشفى والحيلولة دون وصولها إلى وزارة الصحة فالقضاء. إلا أن ذلك المسؤول رفض تلبية الدعوة.

وخطر لي أن أحاول بنفسي تطويق الموضوع الذي من شأنه أن يضر بسمعتي وسمعة زملائي العرب في إسبانيا، وجميعنا من أصحاب السمعة النقية، وتذكّرتُ علاقتي بمدير المستشفى، السيد خوليان جونثاليث، وكنتُ قد أجريت له عملية جراحية معقّدة قبل ذلك بنحو عامين، فأصبح بيننا نوع من الصداقة والمودة، وكان قد قال لي بعد نجاح عمليته تلك واسترداده كامل صحّته ألا أتردد في اللجوء إليه إذا ما احتجتُ لأية خدمة منه. وفكرتُ أن الموضوع يستحق أن أطلب من الرجل هذه الخدمة وأنا الذي لم أطلب منه شيئاً قط من قبل، لاسيما وأن محاولاتي التحدّث إلى زهدي كانت قد باءت بالفشل طيلة ثلاثة أيام متواصلة.

وطرقتُ باب مكتب السيد خوليان في المستشفى فاستقبلني بالترحيب الشديد واحتضنني بقوة رابتاً على ظهري بكلتا يديه وبصوت مسموع، كما هي عادة الإسبان في الترحيب بالأحبة. غير أنه ما أن تبادلنا عبارات المجاملة الأولى حتى تجهّم وجهه بشكل مفاجئ ليقول لي بمودة بالغة وحزم بَيِّن:

- دكتور سفيان، هل جئت للتوسّط لمواطِنِك الدكتور زهدي؟

وقبل أن أجيبه رفع يده طالباً مني ألا أجيبه على سؤاله ليستأنف قائلا:

- إن كان الأمر كذلك، وأنت تعرف مدى محبّتي لك بشكل خاص ومدى محبّتي للعرب بشكل عام، ولم يبقَ بلد عربي لم أزره،

فإنني أرجوك ألا تفعل ذلك وأن تسمعَني أولاً حتى النهاية، وبذلك أوفّـرُ عليك عناء الطلب وأنت الذي لم تطلب مني لنفسك شيئًا أبداً رغم علمك التام بأن بابي مفتوح لك على مصراعيه لتطلب ما تشاء، فإنني مدين لك بحياتي.

واستجبتُ لطلبه وقلت وأنا أتوجس خيفة وأضرب أخماسًا بأسداس:

- حسنًا. فقط إسمح لي أن أشكرك على مشاعرك النبيلة.

وتابع الرجل كلامه طيلة أكثر من عشرين دقيقة لم أنبس خلالها بكلمة واحدة، وأنا أستمع مبهوتًا، إذ سرد عليّ وقائع مخجلة عن الدكتور زهدي منذ التحاقه بالمستشفى للتخصص كطبيب مقيم، قبل ذلك بسنوات كثيرة. وكنتُ قد سمعت ببعض تلك الوقائع من قبل، وكانت جميعها تتعلق بتصرفات يندى لها الجبين معظمها يتعلق بتحرشه ببعض الممرضات والموظفات في المستشفى، ذاكراً لي أسماءاً بعينها وطالبًا مني التكتم. كما أنه سرد عليّ كيف أنها لم تكن المرة الأولى التي يتم فيها ضبط الدكتور زهدي متلبّسًا بالسرقة في المستشفى، وأنه كان قد ضُبط مرتكبًا لهذه الجريمة قبل ذلك بنحو أربع سنوات وأن إدارة المستشفى، وهي مؤسسة تابعة للدولة، رفعت عليه دعوى لدى القضاء آنذاك. وخطر لي أثناء استماعي له مشدوهًا، وأنا أقف على كل ما كنت أجهله عن زهدي، أنني كنت على درجة من السذاجة عندما كنت أتصور أنني كنت على درجة عالية من الذكاء. فقد كنت أعتقد أنني أعرف كل شيء عن زهدي، ذلك الممثل، فإذ بي أجهل الكثيرعنه. وتساءلت بيني وبين نفسي كيف يمكن لطبيب صاحب ثروة وصاحب مركز طبي لا يُستهان به أن ينحدر لدرجة سرقة أدوات جراحية بعضها يُمكن أن يُشترى من المحلات المختصة بثمن زهيد؟!

وانتبهت إلى صوت محدثي وهو يقول:

- لولا تدخل إثنين من الزملاء المسؤولين في المستشفى، ممن علمتُ بعد ذلك بفترة طويلة، أن الدكتور زهدي كان قد أغدق عليهما بعطاياه، لما وافقتُ، بصفتي المسؤول مباشرة آنذاك عن القضية، على التنازل عنها، ولكنني فعلت ذلك بشرط أن يُعيد هذا اللص كلّ ما كان قد سرقه آنذاك إلى مكانه في المستشفى.

ورأيت أن الرجل روى لي كل ما رواه عن زهدي كمقدِّمة لقرار كان قد اتخذه، وفعلاً فقد تابع كلامه بحزم قائلاً:

- أما هذه المرة فلا وألف لا، وسنمضي قُدُما في إجراءات القضية ضد صديقك.

وتمتمتُ منكمشاً على نفسي:

- ليس هو بصديقي يا سينيور جونثالث. صدِّقني.

وتمتم بدوره متلطفاً تجاهي وقد ساءَهُ ما اعتراني من خيبة أمل في العثور عنده على حل لتلك المشكلة:

- أعرف ذلك. أعرف كل ما يجري بهذه المستشفى رغم كونها من أكبر المؤسسات الطبية في البلاد كما تعلم.

وأدركتُ تماماً أنه لم تكن هناك من جدوى لأية محاولة تدخّل ووساطة من جانبي ولا من جانب غيري. بل وأصبحتْ لديّ قناعة، بعد استماعي لمدير المستشفى، بأنه كان قد آن الأوان لتلقين زهدي درساً قاسياً لعله يرتدع. ولكـنّني ارتعدتُ عندما تذكرتُ النتائج الوخيمة التي يمكن أن يجرّها الإعلان عن هذه القضيّة على سمعتنا نحن الأطباء العرب من خريجي الجامعات الإسبانية. وهممتُ بالكلام عندما استأنف السيد جونثاليث حديثه من جديد بنبرة لا تخلو من الجدية والقطعِيّة، ورابتاً على إحدى ركبتيّ علامة المواساة، وهازّاً رأسَه علامة الأسف، ليخبرني أن القِسْمَ القانوني في المستشفى قد قام بإعداد تقرير عن وقائع السرقة رفعَه إلى الإدارة القانونية في وزارة الصحة كي تتخذ إجراءاتها ضد زهدي.

وأضاف مؤكداً:

- هـذه المرة لـم يعـد الأمر بيدي على الإطلاق عزيزي دكتور سفيان، بل أن وزارة الصحة هي نـفسها التي ستقـوم بإجراء التحقـيق وتطبيـق اللوائح الداخلية عليه.

ثـم عقّب قائلاً أنه يعرف أن زهدي آثر الاختفاء بعد تفجُّـر فضيحته في المستشفى طالبا إجازته السنوية، والتي تستمر لشهر كامل، وأنه هـو شخصياً -أي السيد جونثاليث- مَن وقّع عليها، مضيفاً بتهكم:

- ولا أستبعد أن يتم منحه إجازة طويلة الأجل.

وعـندما تمكّـنتُ من الحديث هاتـفيـاً مع زهدي بعد ذلك بيومين أبلغتُه أن إدارة المستشفى ماضية قُدُما في فتح ملف جزائي ضـده لدى وزارة الصحة. وقلت له أيضـاً، كي يعرف أنني علـى إطلاع على المرة الأولى التي ضُـبط فيها متلبّساً بالسرقة والتي تمّ بعدها احتواء القضية بفضل الوساطات، أنه «ليس في كل مرة تسلم الجرّة»، وأن القضيّة لن تُسحب هـذه المّرة لأنها أصبحت بيد المديرية القانونية في وزارة الصحة.

وإذ به يطرق باب بيتي في اليومي التالي. كانت عبارتي الأخيرة تلك في اليوم السابق كافية لحمله إلى العـودة مذعوراً إلى مدريد، فحتى ذلك الوقت كان مطمئناً ومؤمِّلا نفسه أن وساطاته وعطاياه في المستشفى ستخلصه من العقاب كما حدث في سابقة سرقته الأولى. ورجاني طيلة أكثر من ساعة أن أتدخّل لدى مدير المستشفى لمعرفته بمكانتي عنده، حتى أضطُرْرتُ في النهاية إلى إخباره بأن السيد جونثاليث نفسه هـو الذي أخبرني بقرار إدارة المستشفى وضع القضية في يد الوزارة. وعبَـثـًا حاول الدكتور زهدي طيلة شـهـور إبطـال مفعـول تلك القـنبلة الموقوتة التي كان ينطوي عليها تدخّـل الوزارة مباشرة ضده، فقد باءت كافة مساعيه وولائمه وهـداياه بالفشل. وشكّـلت

الوزارة لجنة للتحقيق في القضية. وكانت قد مرّت تسعة أشهرعلى ضبطه متلبّساً بالسّرقة عندما أصدرت الوزارة قرارها الإداري بإيقاف الدكتور زهدي عن العمل وتجميد راتبه لمدة ستة أشهر، وإرغامه على إعادة كافة المسروقات للمستشفى ودفع غرامة مالية.

وكان زهدي قد أخفى القضية حتى ذلك الوقت عن زوجته وعن كافة أصدقائه ومعارفه، ولكن بصدور القرار بإيقاف وظيفته وراتبه إنهارَ ولم يعد ينام الليل، حتى اضْطُرّ لمفاتحة زوجته هيفاء بالموضوع ففوجئت أيما مفاجأة مع أنها كانت قد بدأت تكتشف من قبْل حقيقةَ زوجها، فوبخته بشدة، لكنها في النهاية حاولت التهوين عليه ما استطاعت.

غير أن الرجل، قابعاً في سحابة صَلَفِه، قرّر مقارعة الوزارة، فلجأ إلى محكمةٍ عليا آملاً أن يؤدي ذلك على الأقل إلى التسويف والمماطلة والتأخير في تطبيق قرار وزارة الصحة بحقه. وهكذا كان، فقد مرت نحو تسعة شهور أخرى قبل أن تصدر المحكمة المذكورة قرارها الذي أتى مؤكداً لقرار وزارة الصحة. فأسقِط في يد الطبيب زهدي، ولم ينل من لجوءه إلى المحكمة العليا سوى تأخير تنفيذ إيقافه الوظيفي، والذي يبقى بمثابة صفحةٍ سوداء في السجل الوظيفي لكل من يتعرض لمثل هذه العقوبة.

وأصبحت الفضيحة بجَلاجِل، إذ نشرت الجريدة الرسمية للدولة، ضمن القرارات الصادرة عن وزارة الصحة وعن المحكمة، قرار فصل الدكتورزهدي لمدة ستة أشهر مع النص الكامل للقرار وحيْثياته بالتفصيل. وهو ما أدى إلى وصول نص القضية والعقوبة إلى شبكة إنترنت، كغيرها من القرارات الصادرة عن عدد من الوزارات والمحاكم، مما أدى إلى نسف الكتمان الذي كان زهدي يحرص عليه غاية الحرص، ففاحت رائحة الفضيحة بين مستخدمي الشّبكة من معارف وأصدقاء. ومع ذلك، فقد بذل الرجل جهداً مضنياً،

بموهبته المسرحية التي انفطر عليها، في سبيل إقناع المعارف والأصدقاء -الذين كانوا يُبدون استغرابهم من مقابلته هنا وهنالك، خارج المستشفى، أثناء ساعات الدوام- بأنه إنما ملّ من العمل في المستشفى وطلب إجازة ستة شهور بدون مرتّب للاسترخاء وليتفرغ لمجمَّعه الطبي.

وصدّقهُ معظم من لم يكن قد اطّلع على قرار فصله المؤقت. وواقع الأمر أن العقوبة جاءت رحيمة للغاية، وأجمع كثير من زملاء المهنة على أن الوزارة لم تشأ أن تُنزل بالدكتور زهدي كامل العقوبة المُستحقة في مثل هذه القضايا، لربما أخذا بعين الإعتبار أن الأمر يتعلق بطبيب من أصل عربي، وتفاديا لأي تفسيرات عُنصرية يمكن أن يلجأ إليها البعض فيٍّ حالة فصله نهائيا من عمله، وما يمكن أن يجرّه ذلك من أذى على مئات من الأطباء العرب المعروفين في المجتمع الإسباني بأخلاقهم الرفيعة ومهنيّتهم الممتازة.

وأدت فضيحة السرقة والعقوبة، وما نجمْ عنها من المزيد من القيل والقال حول زهدي، إلى المزيد من ضعْضعةِ علاقته بزوجته والتي كانت آخذة بالتدهور قبل أن تتحقق هي من هذا الجانب الجديد في شخصيته. فقد كانت هيفاء قد اكتشفت قبل ذلك بشهور أن له علاقة قوية وقديمه بموظفة تعمل في مُجمّعه الطبي، وأن تلك العلاقة كانت من القوة لدرجة أنه أصبح لا يهتم بإخفاءها عنها أو عن غيرها. وواقع الأمر أن تدهور علاقته بزوجته هيفاء ما كان ليقضّ مضجع زهدي، لاسيما وأن نبْعَ عشيقاته ما كان لينقطع أو يغور، وبينهن الموظفة المذكورة التي لم تكن كغيرها من سحابات الصيف، بل كانت قد مرّعلى علاقته بها عدة فصول صيف. وكانت هذه إمرأة إسبانية متزوّجه، وبدا في ذلك الوقت أنها أصبحت تهيْمن على قلبه وعَقله، ولا تفارقه طيلة النهار، لاسيما في فترة فصل الطبيب من عملَه في المستشفى، وهي الفترة التي اتضح فيها لهيفاء أكثر من أي وقت

مضى أمر هـذا العِشق والإرتباط. أمّا ما كان يقـضّ مضجعه حـقا فهو الإزدراء الذي كان يلقاه من بعـض معـبـوديه من أصحاب المناصب، الذين كانت قد وصلتهم أنباء فـضيحة فصله المؤقـت من عـمله، إذ لم يكن زهدي الطبيب العـربي الوحيد الذي يرتاد حـفلات السفارات العربية، التي لم يعـد يجرؤ على طرق أبوابها، فقد فوجئ العاملون خلف تلك الأبواب، كما فوجئ غيرهم من عرب وإسبان أيّـما مفاجأة، بالشخـصية القابعة خـلـف ذلك المُحيا الوسيم، ذا الابتسامة اللصيـقة والصّـوتِ الخفـيـض والنّـظـرة الذابله والإيـماءات المُهـذبة والسّيْماء الحَـيـيّة.

فكيف ترُى كَانت ستكون صدمة من لم يكونوا يعرفوه على حقيقته لو أنهم اطلعوا على المزيد من الوقائع الحقيقية لحياته المسرحية؟ وواقع الأمر أن زهدي كان يتقلب بين حياته المسرحية وحياته الواقعية معا في آن واحد. بمعنى أنه في الوقت الذي كان يبذل فيه قصارى جهده ليقوم بدوره المسرحي على أكمل وجه كانت فصول حياته الواقعية تفضح حقيقة شخصيته المرة تلو الأخرى.

***

11

الدكتور زهدي يُصغي لتفاصيل مشروع جديد لسليم



وجد الدكتور زهدي نفسه إذ مرّت الشهور الثلاثة الأولى على فصلِه المؤقت من عمَله وقد أصبح مُضغة في الأفواه، وأصبح بعضهم يتغامزون حوله كلما نفشَ ريش الطاووس بينهم كعادته، فكان يقضي الليالي قلِقا متقلّبا في الفراش -كما علِمنا من هيفاء بعد طلاقها منه- باحثـاً عن الحل الذي يكفل له التخلص من تلك الكارثة التي حلّت بسمعته والتي كان قد حاك خيوطها بيديه.

وقلّب زهدي الأمور والحلول الممكنة، مستخدماً دهاءه الطبيعي. كان يتطلّعُ إلى استرداد سمعته الزائفة التي كان قد أوجدها لنفسه على فترات متقطعة عبر السنين الأخيرة تخللتها فترات أخرى من سمعة مُزرية ناجمة عن تصرفات بعينها حدثت وسط شهود عيان، مِثل تهجمه على النسب الشريف أوطعنه بشرف المحجبات أو قذف المحصنات أو انتقاده اللاذع للحج والحجيج.

إلى أن كان يوم كنتُ فيه على موعد مع صديقي سليم في المقهى الواقع في الطابق الأخير من مبنى تورّي دي مدريد، أو برج مدريد، الذي كان نقطة لقائنا المعتادة خلال أيام العمل من الأسبوع بحكم وجود مكتبه في ذلك المبنى الشاهق الذي كان عند بنائه في خمسينيات القرن الماضي أعلى مبنى في أوروبا. وهناك، على شرفة المقهى في الطابق الثاني والثلاثين، جلستُ أنتظر سليم، وتحتي ميدان «بلاثا دي إسبانيا» الفسيح الذي يتربع فيه «ميغيل دي ثيربانتيس» على عرش الأدب الإسباني، وصنيعته «دون كيخوتيه» -أو دون كيشوت- وخادم هذا الأخير «سانشو بانثا»، الأول على صهوة حصانه الهزيل «روثينانتيه» والثاني على متن حماره المتين، في نصب تذكاري ضخم

وبديع لطالما تمتعتُ على مر السنين بتأمّله من مختلف زوايا النظر. وأمام عينيّ إمتدت مدريد على مرمى البصر بما في ذلك أحياءها البعيدة وأحراشها الخضراء الشاسعة جهَتيّ الشمال والغرب. وكنت أتعمّد كلما اتفقتُ مع سليم على اللقاء هناك أن أصل قبل الموعد لأمَتّع نظري بالمناظر الخلابة التي تُتاحُ للنظّارة من تلك الشرفة الفريدة، التي تردّدنا عليها لأكثر من رُبع قرن، حتى تم إغلاقها بعد أن تحولت إلى بُغية المُقدِمين على الإنتحار.

وبينما كنتُ أقلّبُ النّظر في أرجاء المدينة وفي الآفاق الممتدّة حولي إذ بالدكتور زهدي واقفاً أمامي يُحيّيني بأدَب جمّ، وبابتسامته التي خلتُها في تلك اللحظة تكاد أن تَنْدَلقَ من على وجهه إلى الأرض لشدة ما كان يمُطُّها تأكيداً، وكأنماَ كان يخشى أنه إذا لم يفعل ذلك فإنني لن آخذها بعين الإعتبار. كان قد فاجأني، وكان بادياً لي بوضوح أنه كان يخشى أن يكون قد سبّب لي ذلك إزعاجاً، إذ أن علاقتنا كانت قد توتّرت وفتَرت جداً بعد الفضيحة التي فجّرَها في المُستشفى والتي أثارت عَلَيْه من جديد غضَبَ معارفه وزملائه من الأطباء العرب.

ولم أستطع إخفاء أثر المفاجأة التي سبّبها لي ظهوره المُباغت، وافترَّت شفتاي عن ابتسامةٍ واهية وبادلتُه التّحية بأخرى ربّما لم تصل إلى مسمَعه إذ خرجت بدَورها مُترَدّدة ومُتقطّعة. وتأدباً مني أشرت إليه بالجلوس وكلّي امتعاض لأن وجوده سيحول دون قيام سليم بطرح موضوع هام قال لي أنه يريد أخذ رأيي فيه أثناء تلك الجلسة وبينما نتناول طعام الغداء.

ورُحت أضرب أخماساً بأسداس محاولاً تخمين السبب الكامن وراء وجود زهدي في ذلك المقهى، وخشيت أن يكون على موعد مع سليم. وكأن زهدي استشعَر ما كان يدور بخلدي، فأخذ يتكلم عن جمال المناظر التي يمكن مشاهدتها من تلك الشرفة، مشيراً إلى شعوره

بالإرتياح النفسي في ذلك المقهى وأنه كثيراً ما يتردد عليه، وهو ما كنتُ أعلم مسبقـاً أنه كلام أراد من ورائه إخفاء السبب الحقيقي لوجوده هناك في ساعة وجبة الغداء بالذات، ألا وهو السعي لمقابلة سليم كما لو كان على سبيل المصادفة، إذ أن صديقي كان ما زال مُنقطعـاً عن الإتصال به منذ واقعة النصب تلك التي امتنع فيها عن دفع الديون المترتبة عليه لسليم. وكان زهدي يعلم مثلي أن سليم كان معتاداً على تناول طعام الغداء في ذلك المقهى بشكل يكاد يكون يوميـاً.

وبـما أنني لم أكن أبادله الحديث إلا بما يشبه التّـمـتـَمَـة فإن الدكتور زهدي اندفع متحدثـاً في محاولة واضحة لاسترداد قسط من اهتمامي وودّي وثـقـتي، وجـميعـها كانت في الأصـل محـدودة وملجـومة بالسوابق التي كان قد ارتكبها ذاك القابع أمامي، عـلى مرّ السّـنيـن. وإذ بـه يُـمَـثِّــلُ عـليّ دَوْرَ من يفـتـح قـلبه لصديـق عـزيز في محاولة لاستـدرار الإهتمام –ولربما العـطـف– وهـو دورٌ بَـرَعَ فيه أيما بـراعة. فراح يفاتحني بأنه في حالةٍ نفسية يُـرثى لها مؤكداً لي للمرة الألف منذ تـفـجُّـر فضيحة السرقة في المستشفى أنه بريء منها براءة الذئـب من دم يوسـف –وهـذا التعبير الأخير من جُعبتي فهو يكاد لا يعـرف من القرآن الكريم شيئـاً غير الفاتحة–، متجاهلاً بشكل سافر أن كاميرات المستشفى صورته متلبسـاً.

وتركـتُه يتكـلـّم مستخلـصـاً كلمة واحـدة من كلّ عَـشر كان يلفـظـها، فإنني عـلى دراية ببراعـته في التـلـفـيق. ومن تلك الكلمات المتفرقة التي كنت أستخلصها فهمت أن الرجل أصبح شبه معـزول يـقـيـم الولائم في بيته فلا يحضرها إلا من لـم يسمعـوا بفضيحته ولا بطـرده المؤقت من المستـشـفى. وفهـمت من حديثه ذاك أيضـاً، ومما حدثـتنا به هـيفاء بعـد طلاقها منه، أنه كان –في إجازته القسرية الطويلة تلك– يدور على معارفِهِ في مكاتبهم وأماكن عـملهم وربما في بيـوتهم محاولاً الحـفاظ على صـداقات وعلاقات كان يظن –مصيبـاً أو مخطـئـاً– أن أصحابها

كانوا قد ابتعدوا عنه بسبب معرفتهم لفضيحته تلك في المستشفى.

وتنفستُ الصّعداء إذ رأيتُ سليم مقبلا علينا فبادره زهدي بأحر الترحاب والعناق، متظاهراً بأنه تفاجأ بمقابلته وأنه سُر بها غاية السرور، وبالطبع فقد بادله صديقي نفس الترحاب متناسياً –أو لربما ناسياً– ما فعله به زهدي بالمجلة وبخذلانه في الجمعية. وما أن اتّخذ سليم مجلسه بيننا حتى نهض زهدي يتظاهر بالإعتذار وبالرغبة بالإنسحاب حتى لا يُزعجنا، حسب قوله، إلّا أن سليم طلب منه البقاء وتناول طعام الغداء معنا، فوافق الطبيب من فوره، بينما كنتُ أكظمُ غيظي بل ولربما حِنقي من صديقي وأنا أراه يُمارس طيبته المجبولة بالسّذاجة في تعامُله مع زهدي.

وعلى الغداء أمسك صديقي بدفة الحديث معظم الوقت بينما لم يدلُ زهدي بِدَلوِهِ إلا بعبارات قليلة ومقتضبة، مصغياً باهتمام، بل بالأحرى كان يسترقُ السّمعَ رغم أنه كان جالساً معنا.

وكان سليم يتحدث دون تحفّظ لاعتباره أن جليسيْه هما من أصدقائه فلا يتعيّن عليه إخفاء شيء عنهما، مرتكباً بذلك خطأً فادحاً إذ عاد ليتورّط مع زهدي، مصدّقاً من جديد مشاعر الصداقة التي كان قد أبداها نحوه في ذلك اللقاء. ولو أنني كنت أعلم الغيب وما كان يخبأه القدر لكنتُ قمت بنفسي بطرد زهدي من مائدتنا في ذلك المساء الذي بدأ فيه إستغلاله الحقيقي لسليم، والذي انتهى بالخيانة المكشوفة التي دبّرها هذا الأخير بصَلَفٍ ووقاحة لطالما أثارا دهشتي، رغم معرفتي العميقة به.

فقد قام سليم في ذلك اللقاء بإطلاعنا على مشروع جديد لديه كان قد قطع شوطاً في إرساء قواعده، ألا وهو تأسيس مجلة جديدة، ولكن هذه المرّه باللغة الإسبانية. وشرح لنا، بحكم رصده المستمر لموقف الرأي العام الإسباني من العرب وقضاياهم، أن الساحة الإعلامية

في أمس الحاجة لوسيلة إعلامية إسبانية من مُنطَلق عربي. وأسهب الرجل في شرح تفاصيل المشروع مشيراً إلى أن فشل مشروعه الأول في المجلة العربية عاد أساساً إلى أنه كان يعتمد في الإعلانات على المتاجر العربية القليلة التي كانت موجودة في مدريد إبان صدورها، وعدم استجابة معظم تلك المتاجر لمشروعه ذاك ممتنعة عن نشر الإعلانات فيها وممتنعاً من كان قد أعلن فيها عن دفع ديونه لها، مما أضطره في النهاية لإغلاقها.

وكنتُ أرصدُ بدهشة ، بينما كان سليم يذكر تلك الأسباب، عدم وجود أي اضطراب على وجه زهدي، الذي كان يستمع وكأنه لم يكن واحداً من المتسببين بفشل ذلك المشروع الصحفي عندما امتنع عن دفع ديونه لسليم. بل وعجبتُ من الرجل وأنا أسمعه يوجه الشتائم للتجّار العرب، ذاكراً بعض الأسماء، واصفاً إياهم «بانعدام المشاعر القومية وبالتهافت على كسب المال والإمتناع عن دعم المشاريع الثقافية العربية»، فهو حقاً الرجل الذي قيل فيه أنه» يقتل القتيل ثم يمشي متقدما جنازته» بل وذارفاً عليه الدموع السخينة. فما أن سمعتُ شتائمه تلك، والتي كان سليم يستمع إليها فاغراً فاه، لم أطِق إلا أن رحتُ أذكرُ أمامه أولئك الذين لا يدفعون ديونهم ولا حتى لمَن يدّعون أنهم أعزّ أصدقائهم، رغم امتلاكهم المال الوفير. وكنت أقولُ ذلك موجها كلامي لزهدي، ولكم أذهلني الرجل وهو يؤكد على شتائمي بينما كان يمضغ اللحم ويقول بين مضغة وأخرى كلاماً متقطعاً كنت أستمع إليه فاغراً فمي بدوري إزاء ذلك الإستعراض البهلواني في الرَّوَغان والإزوِرار. وكنتُ ألحظ سليم منتبهاً لمعاني كلامي وواعياً لمقصدي، ولكنه كان يحاول تغيير مجرى الحديث، فيما وجدتُ فيه تعبيراً صادقاً عن رغبة الرجل في تجاوز ذلك «الخطأ» الذي ارتكبه زهدي حياله، والتغاضي عنه، إكراماً لصداقة كان ما زال يأمَلُ فيها خيراً.

ولكم من مرة وجدتُ سليم، في لاحق الزمان، باحثـاً عـن المعاذيـر للدكتور زهدي لـتـبرير «أخطاء» أخرى ارتكـبها تجاهه، ولكـن الداهـية كان دؤوبـاً على إلحاق «الخطأ» بالمُداهـنة والمُلايَـنة، فـيـمسّ شغاف قـلـب المتضرر منه، فيصـفحُ عـنه المرة تـلـو الأخرى. وكـان زهدي –وما زال– مبدعـاً في هـذا الفن حتى أنني أعـتـرف أنني وقعـت ضحـية له أكثر من مرة رغـم تـيقـظي الـدائم حياله، وخشيتي المُزمنة من ألاعـيبه، فكيف بسليم، الذي كان يتعامل معه بمنطق الصديق صاحب النية السـليمه.

وكان زهدي يذكّرني، وأنا أراه يمارس بهلوانيته تلك في التودد والمُداراة والإقناع، بواقعةٍ شهدتها بنفسي إبان سنيّ المراهقة، في الكويت، وتركت في نفسي أثراً عميقـاً فيما يتعلق بمقدرة البعض على إقناع الآخرين إقناعـاً بدا قبل وقوعه بدقائق أنه من عاشِر المستحيلات. ففي ذات يوم جاء لوالدي واحد من أصدقائه المقربين، إسمه عبد الواحد، يشكو له صديقـاً حميمـاً لوالدي أذكر أن اسمه نادر، كان قد أخذ منه خمسة آلاف دينار ليستثمرها في مشروع، بعد أن أقنعه بأنه مشروع مُربح للغاية. وكانت قد مرت ثلاث سنوات لـم يحصل فيها عبد الواحد من نادرعلى أية أرباح، ولا هوَ رد له المبلغ المذكور. وراح عبد الواحد، وهو في أوج غضبه، يلعن نادر ويطلق أخطر التهديدات ضده إن لـم يتمكن والدي من إقناعه برد المبلغ إليه وبشكل فوري، مؤكداً أن ذلك هو آخر إنذار بعـد أن فشلت كل مساعيه لدى نادر من أجل استرداد مالِه، بل و من أجل مقابلته طيلة السنة الأخيرة. وشاءت الصدف أن أرى نادر قادمـاً نحونا بينما كان صوت عبد الواحد يهدر بالتهديد، مُفرغـاً جام غضبه على والدي، الذي لـم تكن له أدنى علاقة بتلك القضية. وما أن رآى والدي نادرمقبلاً حتى انفرجت أساريره وقال لصديقه أن يستغل الفرصة ويكلمه بهدوء أمامنا من أجل أن يصل معه إلى حل لتلك المشكلة، باعتبار ما يربط عبد الواحد بنادر من صداقة

سنين عدة. وإذ بنا نرى نادر وهوَ يأخذ ذلك الرجل بالأحضان وبأحرّ عبارات الشوق والمحبة، فيبادله هذا الأخير العناق والترحيب وأجمل عبارات الإشتياق والمودّة، فكأنه انقلب فجأة إنساناً آخراً. ودار بين نادر وعبد الواحد حوار لم يتجاوز الرُبع ساعة من الزمن، بينما كنت ووالدي نلتزم الصمت ونتفرج على ذلك المشهد العجيب الذي انتهى بأن سحب عبد الواحد، الذي كان يستشيط غضباً قبل مجيء نادر، دفتر شيكاته من جَيْبه ليحرر شيكاً بقيمة خمسة آلاف دينار قام بتسليمه لنادر لدعم المشروع المذكور، وسط جوٍّ من الودِّ العميق والتفاهم التام بينهما. وهكذا، بدلاً من أن يحصل عبد الواحد على الخمسة آلاف دينار التي كان يطالب بها مستشيطا غضباً، قام بإعطاء نادر خمسة آلاف أخرى عن طيب خاطر. فلم أنس في حياتي ذلك المشهد الذي فتح لي نافذة على الطبيعة البشرية وما فيها من نوافذ لا عدَّ لها، كلما أطللت عبر نافذة منها على مر السنين وجدتُ فيها أنواعاً وضروباً من النفس البشرية والعقليات لا تفتأ تلجم لساني دهشة، سواءاً لما فيها من صالح أو من طالح، أو ما يجمع هذا بذاك.

* * *

12

زهدي يستولي على مشروع سليم

بدلاً من الإنكِباب على الدراسات الطبية التي كان قد هَجَرَها منذ تعيينه طبيباً، فإن الهمّ الكبير الذي كان يؤرّق مضجع زهدي أثناء فترة فصله من عمله في المستشفى كان الإهتداء إلى الطريقة التي يُمكنه بها أن يكسب الإعجاب والهالة اللذين طالما حَلم بهما واللذين من شأنهما أن تفتحا له من جديد أبواباً كانت قد أغلِقت بوجهه وأبواباً أخرى لم يكن قد اجتاز عتبتها بعد. فقد كان قد اهتدى أخيراً للعصا السحرية التي من شأنها أن تُحقق له ذلك، وفاتح زوجته هيفاء بفكرتِه تلك، مؤكداً لها أن تنفيذها يتوقف على عودةِ المياه إلى مجاريها في علاقته بالصحفي سليم، فلم يكن يعرف غيره ليساعده في وضع فكرته تلك حيز التنفيذ بشكل فعال.

ولم تكن فكرته تلك سوى تأسيس مجلة ما مِن شأنها أن تلفت الأنظار إليه في الأوساط الثقافية العربية والإسبانية وتكسبه مكانة واحتراماً كان بأشد الحاجة إليهما في تلك الفترة من حياته. وقد عرفنا كل ذلك من هيفاء في لاحق الزمان، ولم أكن أنا ولا سليم نعرفه في ذلك اليوم في مقهى برج مدريد، كما أننا لم نكن نعلم أن زهدي كان له هدف مُحدد عندما نصَبَ على سليم، بل وعندما حرّض آخرين على عدم دفع مستحقات الإعلانات في مجلة سليم. فمِمّا أخبرتنا به هيفاء إثر انفصالها عن زوجها أنه كان قد أسرّ لها في مُستهل زواجهما أنه قد طلب من معلنين آخرين في المجلة ألاّ يدفعوا لزهدي ثمن إعلاناتهم منتحلاً لديهم حُجَجاً وطارحاً عليهم أكاذيب مختلفة. وقالت لنا أيضاً أن زوجها فاتحها آنذك بأن إفشال مجلة سليم كان سيضمن له، أي لزهدي، انضمام الصحفي لمشروع المجلة التي كان ينوي إصدارها.

وكانت تلك أولى أحاديث زهدي التي أجفلت زوجته هيفاء منه، فقد كانت تكنّ لسليم كل احترام ولا تنسى وقوفه معها إبان أزمةِ الكويت. ثم توالت عليها المؤشرات على كُنْه شخصية ذلك الرجل الذي قبلته زوجاً.

وكان من السهل أن أستنتج من تصريحها لنا بتلك الأسرار أن زهدي، عندما صادفتُه في شرفة برح مدريد في ذلك اليوم، إنما كان يسعى لمقابلة سليم ليطرح عليه مشروع المجلة الذي كان يجول في خاطِره. فيا لمصادفات القدَر وعجائبه وكيف التقى الرجلان على فكرة واحدة وعلى مشروع واحد وفي وقت واحد، رغم أنه كان لكل منهما هدفه الذي لا يلامس بحال من الأحوال الهدف الذي كان الآخر يسعى لتحقيقه.

وبعد أيام قليلة من لقائنا ذاك في برج مدريد إذ بزهدي يتصل بسليم هاتفيا ليقول له أن فكرة المجلة قد راقت له جداً وأنه قرر أن يدعمه فيها دعماً كاملا. وتطورت المسألة بينهما بعد عدة لقاءات شاركتُ ببعضها بدعوة من سليم دائماً، إذ أنني كنت محذراً لهُ من مغبّة التعاون مع زهدي، فأرادني شاهداً على ما يجري الإتفاق عليه بينهما دون أن يتجرأ زهدي على الإعتراض على حضوري للقاءاتهما. وانتهت تلك اللقاءات إلى الإتفاق على القيام بتأسيس المجلة الجديدة معاً، وأن تكون إدارتها وتصريف شؤونها الصحفية بيد سليم بالكامل بصفته رئيس التحرير فيها، بينما ينحصِرُ دور زهدي بتمويلها وإدارة شؤونها المالية. كما اتفقا على تأسيس شركة صحفية مناصَفَة بينهما، تتولى إصدار المجلة ويتلقى فيها زهدي لقب «الرئيس»، بحيث تبرز هذه التسمية بوضوح في رأس الصفحة الأولى من المجلة، وهو غاية ما كان يصبو إليه الطبيب لتُتاح له فرصة التباهي في مكاتب الهيئات والسفارات والمحافل الثقافية، والعودة إليها من أوسع الأبواب، أي باب الصحافة. وقضى سليم عدة شهور في تأسيس المجلة وتوفير

المواد الصحفية الضرورية لها باللغة الإسبانية لتغطية إصداراتها في شهورها الأولى. ولهذا الغرض قام بالإتصال بعددٍ من زملائه وأصدقائه الصحفيين من عرب وإسبان ليساهموا في تحرير موادها مؤلفاً معهم مجلس تحريرللمجلة. واهتم هؤلاء الصحفيون بالتعاون مع زميلهم سليم من منطلق الحماس لطرح القضايا والمسائل التي كان من المقرر أن تعمل المجلة على شرحها للمجتمع الإسباني. وساد جوٌّ من التفاؤل والحماس في لقاءاتهم مع سليم مستبشرين خيرا بالمشروع الجديد.

ولكن زهدي لعِبَ مع سليم لُعبة تليقُ بدهائه. حدث ذلك عندما اضطر صديقي للسفر بسبب مرض أبيه في الكويت فغاب عن مدريد لمدة أسبوعين عاد بعدهما ليجد أن زهدي كان قد أسس الشركة المتفق عليها، ولكن باسمه هو فقط، وسجّل المجلة الجديدة على إسم الشركة المذكورة، ليصبح المشروع بكامله باسم زهدي ولا شيء فيه لسليم.

ووقعت مشادّة حامية بين الرجلين عندما عاد صديقي من السفر ليجد أن زهدي قد بدأ يُعدّ لإصدار العدد الأول من المجلة بمساعدة الصحفيين والكتاب الذين قدّمهم سليم له والذين كانوا قد عقدوا اجتماعاتهم الأولى بدعوة من صديقي وتحت إشرافه. بل ووجد أن زهدي قد سلم إدارة المجلة لصحفي إسباني في مقتبل العمر يفتقر لأية خبرة عملية ولا معرفة له من قريب أو بعيد بالعالم العربي ولا بقضاياه.

وصدر العدد الأول من المجلة بالمواد التي كان قد أعدها سليم وزملاؤه، إلا أن صديقي كان قد قاطع زهدي الذي ظن بدوره أنه حقق مراده بامتلاك مجلة من شأنها أن تفتح له الأبواب على مصراعيها. غير أن الطبيب ارتطم بعقبة أن المدير الذي اختاره للمجلة لم يكن يفقه شيئا من أمور العالم العربي ناهيك عن عجزه عن إدارة مجلة

لها هـذا الإختصاص. ووجد زهدي نفسه والحالة هـذه مضطرا إلى تـوجيـه مدير المجلة باستمرار مستعينـاً لهذا الغـرض بالصحـفيين من أصدقاء سليم، إلا أن هـؤلاء سرعان ما انـفـضّـوا عنه حال عـلمهم بالـخديعة التي وقع ضحيتها صديقهم وزميلهم عـلى يده، لاسيما وأنهم انـتـبـهـوا أيضا إلى أن الطبيب ليست لديه أدنى فكرة عن الصحافة أو أدنى علاقة بالثقافة، وهو ما أدى إلى توقف المجلة عن الصدور.

وحاول زهدي طيلة شهور من القطيعة مع سليم العثور على صحفي عربي آخر مستعد للتعاون معه «لوجهِ الله» في إدارة المجلة ولكنه لم يتمكن من ذلك، أما الصحفيين الإسبان الضليعـين بشؤون العالم العربي فلم يكن ليجرؤ على الإقتراب منهم لأنه لم يكن لديْهِ أي استعـداد لدفع الأجورالمرتفعة التي كان لا بد سيطلبونها، إضافة إلى أنه كان يعرف أنه يفتقر إلى أدنى مستويات المصداقية في العمل الصحفي، وهـو ما من شأنه أن ينفـِّر منه مُحترفي الصحافة الإسبان في أي مشروع صحفي.

ومرّت عدة شهورعلى احتجاب المجلة، وعلى القطيعة مع سليم ومقاطعة زملاء هذا الأخير للطبيب، وانتشار خبر الخيانة الجديدة لهذا الأخير لزميلهم، وجاء كل ذلك ليزيد الطين بلة على الآثار الوخيمة التي كانت قد خلفتها فضيحة سرقة الأدوات الجراحية من المستشفى. أي أن زهدي، الذي كان يتطلع من وراء مشروع المجلة إلى تجاوز تلك الفضيحة وجد نفسه متورطـاً في فضيحة جديدة في الوسط الصحفي والثقافي الذي كان يسعى جاهـداً لاختراقه والإلتحاق به عبر مشروع المجلة. كما وجد أنه، والحالة تلك، كان مضطراً إلى اللجـوء إلى سليم من جديد، وكان من البراعة -كعادته- ما مكـّنه من استـغلال المشاعـر النبيلة والرغـبة الجامحة لدى الصحفي في الدفاع عن السمعة العـربية إعلاميـاً. وبعد أسابيع عـدة قـضاها زهدي بالتـودد إلى سليم بكافة الطرق التي يجيـدها، وكنتُ شاهداً على بعض فصولها

البهلوانية، وافق صديقي على العودة إلى المشروع من جديد ليُشرف عليه. وعاد صديقي لاستقطاب بعض أصدقائه المنتمين للمهنة الصحفية لرفد المجلة بالمادة الضرورية والمنوّعة، ولكنه، في نفس الوقت، رفض تسلم إدارة المجلة بنفسه إلى حين يجري إعادة تسجيل الشركة بالشهر العقاري على النحو الذي كان مُتفقَاً عليه، وهو ما وعد به زهدي وأكد عليه المرة تلو المرة، مماطلاً ومراوغاً بلا كلل.

وإزاءَ تلك المراوغة المستمرة وضع سليم شرطاً لمتابعة إشرافه على المجلة، وهو التوقيع على اتفاق بشأن تسجيل الشركة رسمياً في بحر مهلة زمنية محددة، وهو الإتفاق الذي وقّع عليه الطرفان ووقعتُ عليه بنفسي مع صديق آخر لسليم من بين الصحفيين المتطوّعين للكتابة للمجلة، كشاهديْن على الإتفاق. ويمكنني القول أن صديقي سليم، ومنذ تلك المشادة التي وقعت بينه وبين زهدي وما تلاها من قطيعة، لم يعد يكن للطبيب المراوغ أية مشاعر صداقة إذ كان قد تنبّه أخيراً لحقيقة النفس التي تنطوي عليها شخصيته.

ومرت السنة الأولى على صدور المجلة، وكان زهدي قد أقنع المساهمين القلائل في تحرير المجلة، وليس بينهم متفرغ واحد لها، أنها صدرت أصلاً لخدمة القضايا العربية وأن عليهم والحالة هذه ألا يطلبوا منه أي أجر لقاء مساهماتهم الصحفية، إلى حين تبدأ المجلة بجني الأرباح، وهكذا فعلوا ليس نزولاً عند رغبته، بل طمعاً منهم بخدمة السمعة العربية أولاً، ومن أجل التعاون مع زميلهم وصديقهم سليم الذي كانوا يعلمون أنه بدوره يعمل للمجلة متطوعاً.

وظلّ صديقي مُتمَسكاً برفضه إدارة المجلة بنفسه، بانتظار أن يقوم زهدي بتنفيذ تعهّده بإعادة تأسيس الشركة على النحو المُتفق عليه أصلاً. وبدلاً من ذلك، قام زهدي سِراً، بحل الشركة الوهمية التي كانت المجلة تصدر إسمياً عنها، وألحَقَ المجلة بمُجمَّعِه الطبي مباشرةً، كما

لوْ كانت نشرة شهرية صادرة عنه، مُلحِقاً تكاليفها بنفقات المركز الطبي. وبذلك كان زهدي قد ضرب عرض الحائط بكل اتفاقاته مع سليم وبما تم التوقيع عليه معه ومعي، ودون أن يبلّغ أحداً بذلك، في تجلٍّ جديد لمنتهى استهتاره بالأعراف والإتفاقات والقوانين ولازدرائه بالآخرين. ولم ينتبه سليم في حينه للخطوة السرية التي قام بها الطبيب لأن المجلة استمرت بالصدور تحمل اسم الشركة واسم زهدي كرئيس لمجلس إدارة تلك الشركة التي لم يعد لها من وجود منذ ذلك الحين.

واكتفى سليم طيلة تلك المرحلة من حياة المجلة بمحاولة توجيه المديرالجديد الذي عيّنه زهدي بشكل مؤقت، حسب ما أكده لسليم. ولم يكن هذا المدير الجديد أفضل من سابقه، مفتقراً للخبرة بالصحافة وبالدراية بشؤون العالم العربي، مما أدّى في نهاية المطاف إلى تخبّط المجلة وعدم اتساق مواضيعها وافتقارها إلى أفق من شأنه أن يعدِّل مسيرتها العوجاء، وإضافة لذلك كان توزيع المجلة ضعيفاً وهو ما أدى بالطبع إلى عدم حصولها على إعلانات تستحق الذكر. لكن كل ذلك ما كان ليقلق زهدي إذ أن كل همِّه كان تأبط أعداد من مجلته ليدور بها على السفارات والدوائر العربية والإسبانية لاستدرارالإهتمام ولفت الإنتباه وتلقي الدعوات للحفلات والمَحافل، بينما كانت طبعات المجلة،عدداً بعد عدد، والتي كانت محدودة جداً في نُسخها، تقبع كاملة تقريبا في مخزن في المجمع الطبي، شاهدته بنفسي وشاهدتُ فيه أكداساً من نسخ المجلة.

ولطالما نشبت مناقشات بين زهدي وسليم حول هذا الموضوع، دار بعضها بحضوري، إذ أن هذا الأخير كان يلحّ عليه أن يوزِّع تلك النسخ مجانا لتحدث الفائدة الإعلامية المرجوّة أصلاً من إصدار هكذا دوريّة، إضافة إلى المردود التجاري إذ أن توزيع المجلة مجاناً كان من شأنه أن يجذب إليها بعض الإعلانات، لكن زهديكان يُصرّعلى موقِفه بعدم توزيع المجلة مجاناً، متعمِّدا إخفاءها عن الجمهور، مكتفياً

بوصولها إلى بعض المسؤولين وبعض الدوائر الرسمية الإسبانية والسفارات العربية، إضافة إلى عدد صغير من الأصدقاء والمعارف.

وأصبح واضحاً تماماً بالنسبة لسليم ولباقي زملائه أن زهدي لم يكن لديه من غرض آخر من وراء إصدار تلك المجلة سوى التباهي والإيهام بوجود ما لا وجود في الواقع إلّا لطَيْفِه. وأدى ذلك إلى امتناع المتطوعين عن مواصلة الكتابة للمجلة.

* * *

13

الدكتور زهدي
ينصبُ فخّاً لزوجته الثالثة

عندما أدينَ زهدي قضائيا بتهمة السرقة في المستشفى كانت علاقته بزوجته هيفاء قد اشتد توترها لأسباب عدة لا سيما منهاعلاقته العاطفية بموظفته والتي كانت لا تبارح منزل الزوجين بحجة العمل للمجلة ولمجمع العيادات الطبية المملوك للزوج. وذات يوم، بعد ستة شهور تقريبا من انتهاء فترة فصله المؤقت من العمل، اتصل الطبيب بي هاتفيا راجياً إياي مقابلته لشأن قال لنا أنه مستعجل ومهم. وكان زهدي قد بدأ آنذاك حملة من الدسِّ والإشاعات حول زوجته وسوء تصرفاتها. وتوجسنا أن رغبته بلقائنا لم تكن إلا لهذا الغرض.

وكنا نعلم من قبل أن زهدي كان قد استأجر قبل ذلك بشهورشقة في مدريد لينزل فيها مع زوجته بعيداً عن دارِهِما الواقعة خارج مدريد. وكان قد شرح لنا ذلك من قبل مدعياً أن زوجته تعبت من قيادة سيارتها يومياً حتى مقر عملها في مدريد، وكانت تعمل موظفة في شركة كبرى لتأجير السيارات قبل تعرّفها بزوجها، ولم تشأ التخلي عن عملها بعد الزواج، كما أن زهدي شجعها دائماً على الإحتفاظ بعملها رغم أن حالته المادية كانت تغنيه تماما عن راتبها. وفهمنا منه آنذاك أنه استأجر تلك الشقة في مدريد، على مقربة من مقرعملها الذي لم يكن يبعد كثيرا عن المستشفى الذي نعمل به أنا وزهدي.

وأخبرني الرجل في مكالمته الهاتفية تلك أنه قد اتصل أيضا بسليم للحضور، فاتصلتُ بدوري بصديقي وطلبت منه أن يلقاني قبل وصول زهدي فلما التقينا أخذنا نراوح تخمينات عدة بشأن السبب الكامن خلف طلب زهدي الإجتماع بنا بشكل مستعجل، حتى وصل الطبيب

وقد كسا وجهه بقناع من الحُزن العميق وراح يشرح لنا «مأساته». وفهمنا منه، بعد أن تركناه يتحدث لوحده ما شاء له الحديث، مستخدماً نبرة الصديق الصدوق الذي يفاتح أعز أصدقائه بأسراره، أنه قد طلق زوجته هيفاء. وواقع الأمر أن الخبر، رغم أنه أزعجنا أيما إزعاج، لم يفاجئني كما أنه لم يفاجئ سليم، لاسيما وأن هيفاء كانت تسرد على مسامع زوجَتيْنا تفاصيل تدهورعلاقتها بزوجها، في الوقت الذي كنا نرى فيه كيف كانت موظفته الإسبانية، وقد طلقت زوجها، لا تفارق زهدي لحظة واحدة، فهي رفيقته في كل تحركاته في مدريد وفي كل حفلة وعلى مسمع ومرآى من زوجته.

ولكن هل استدعانا زهدي لمجرد إخبارنا بطلاقه؟ كلا طبعاً. فسرعان ما اتضح السبب الحقيقي للدعوة، ألا وهو تشويه صورة زوجته وصورة والديْها، وهي المهمة التي كان قد بدأها تدريجياً منذ شهور. وقد عرفنا بعد تلك المقابلة أنه كان قد أجرى قبلها وبعدها سلسلة من المقابلات الشبيهة مع غيرنا، ولنفس الغرض، لم يكن يكفّ فيها، كما فعل معنا، عن ذِكر «النفقات الكبيرة» و «التكاليف الباهظة» التي يتحملها نتيجة لإنفاقه ليس فقط على زوجته «التي لا تتوقف طلباتها» بل وعلى والديْها وإخوَتها. وروى لنا في ذلك اللقاء روايات عدة عن زوجته وعائلتها مما لم أكن أصدق شيئاً منها وأنا أرى كيف كانت تتكرر من جديد نفس المسرحية، المرة تلو المرة ، مستغلاً زوجاته، الواحدة تلو الأخرى، ما أتيحَ له ذلك، وسارقاً محترفاً لممتلكاتهن.

وبالفعل، لم تختلف هذه المسرحية عن سابقاتها. فقد كان والدا هيفاء قد جلبا معهما لمدريد كامل أثاث بيتهما الكبير، وهو الأثاث الذي كنتُ قد رأيته بنفسي مع سليم في الكويت. ولم تتّسع شقتهما في مدريد لكل ذلك الأثاث الفاخر والتحف والسجاد النفيس فأعطوا ابنتهما جزءاً كبيراً منه، بما في ذلك الأعمال الفنية البديعة التي صنعتها

والدة هيفاء بنفسها. كل تلك الممتلكات أخذت مكانها اللائق في بيت هيفاء الذي لم تكن تملك فيه شيئًا، لاسيما وأن زواجها من الطبيب كان بموجب صيغة قانونية مغايرة لتلك المعمول بها عدليًا في عقود الزواج في إقليم مدريد والتي تعرف باسم (المِلكية المشتركة) يكون فيه كل ما يملكه الزوجان مِلكا لكليْهما بالمُناصفة. فقد فرض عليها زهدي في عقد الزواج صيغة قانونية مختلفة تُعرَف باسم (فصل المِلكية) أي الفصل بموجب القانون بين مدخوله ومدخولها وبين ممتلكاته وممتلكاتها، وكان في ذلك دليل على انعدام نيته منذ البداية الإرتباط بها لأمد طويل في بيت الزوجية.

واتضحت لنا القصة بتفاصيلها بعد حدوث الإنفصال نهائيا بين الزوجين. فقد كان استئجار زهدي لشقة في مدريد، كما ذكرتُ من قبل، إحدى آيات كَيْده، إذ أقنع زوجته حقًا وفعلاً بأنه عازم على تصحيح موقفه تجاهها وأنه يريد والحالة هذه أن يسكن معها لفترة ما بعيداً عن المشاكل التي يعج بها منزلهما الذي كان يشاطرهما الحياة فيه ولَدا زهدي، سالم وعاطف، وقد أصبحا طالبيْن جامعيّيْن، إضافة إلى عشيقته التي كانت تقضي معظم نهارها تقريبا في ذلك المنزل بحجة قيامها بالعمل سواء لمجمّع العيادات أم للمجلة التي كان ذلك المنزل الواسع هو مقرها وفيه مكتبها الوحيد. فقد كانت تلك المرأة تقضي في منزل زهدي وهيفاء وقتًا أطول من الذي كانت تقضيه فيه هذه الأخيرة. واقتنعت الزوجه بأن زوجها عائدٌ لها وصادقٌ في وعودِه، فصارت شقة مدريد هذه بالنسبة لها بمثابة الحلم بالعودة إلى إحياء علاقتها بزوجها، تمامًا كما كان قد وعدها، في الوقت الذي كان فيه الطبيب يحيك المؤامرة بحذافيرها على نار هادئة. ومن فصول هذه المؤامرة أنه أقنع زوجته بأن يكون عقد إيجار الشقة باسمها هي بدلاً من اسمِه، مختَلِقًا لها من الحُجج والروايات ما كان كافيا لإقناعها بذلك.

وكان أن نفّذ زهدي دونما رحمة الهدف الكامن وراء مؤامرة استئجار تلك الشقة، فبعد نحو الشهرين من اكترائها تقدّم بشكوى عبر محاميه ضد زوجته بتهمة هَجْرها بيت الزوجيه، طالباً الطلاق منها ومانعاً إياها ووالديْها من دخول بيته. وعبَثاً لجأت هيفاء ووالداها إلى القضاء لإثبات زيف التهمة والمطالبه بحقوق الزوجة، ولكن كون عقد الإيجار باسمها هي، وانقضاء أكثر من ثلاثة شهور على تاريخ إبرامه عندما لجأت إلى القضاء، وعدم وجود أية ملابس أو ممتلكات للزوج في تلك الشقة، أدت جميعها إلى ضعف موقف هيفاء قانونياً. وكان الدكتور زهدي يوم أن ضرب ضربته تلك رافعاً الدعوى القضائية عليها قد أخذ من الشقة كل ما يخصّه مِن ملابس وأشياء، أثناء وجودها في عملها. إضافة إلى ذلك، لم يكن الزوجان قد تعرفا طيلة فترة إقامَتهما في الشقة على أيّ من سكان البناية الآخرين، لاسيما في مدينة ليس من الغريب فيها ألا يعرف الجار شيئاعن جاره في الباب المقابل لبابه، ولا حتى اسمه، بعد سنواتٍ من الجوار.

وباءت محاولات هيفاء ووالديْها ومحاميهم بالفشل في محاولتهم استرداد ممتلكاتهم النفيسة التي كانت داخل منزل زهدي إذ لم يكن لديهم أدنى إثبات قانوني بملكيتهم لها لاسيما وأن معظمها كان قد تم شراؤه في الكويت أو تصنيعه بيد الفنانة التشكيلية والدة هيفاء. وبعد استشارتنا أنا وسليم، طلبت هذه الأخيرة من ابنتها أن تشير على محاميها أن يطلب من المحكمة مثولي وسليم كشاهدين في القضية لصالح هيفاء كي نُقرّ بأننا شاهدنا في منزل العائلة في الكويت كل تلك الممتلكات التي كانت موجودة في بيت الطبيب في مدريد، وهو ما فعلناه دونما تردد، غير عابئيْن بغضب زهدي إزاء شهادتنا تلك. إلا أن إخفاء الطبيب لكل تلك الممتلكات حال مغادرة هيفاء لمنزلها متجهة لشقة مدريد، وفقدان المستندات القانونية لتلك الممتلكات نتيجة الفوضى التي هيمنت على كافة مناحي الحياة إبان احتلال الكويت، وبراعة محامي زهدي وضعف أداء محامي هيفاء أثناء المحاكمة أدت جميعها

إلى خسارة هيفاء للقضية رغم لجوئها فيما بعد لمحكمة الإستئناف.

وهكذا تلقت هيفاء ووالديْها من الدكتور زهدي أبو لفة طعنة في كرامتهم وممتلكاتهم، بما في ذلك جزء كبير من مجوهرات هيفاء وحليّها وملابسها، فكان أن خرجت من بيته خروج زوجتيْه السابقتيْن، أي على شاكلة ربي كما خلقتني. وما زلتُ أذكرُ كيف كان زهدي، بعد ذلك بعدة سنوات، يتباهى بين زوّاره وبكل وقاحة الدنيا، وأحيانا بحضور زوجته الرابعة، بالتحف واللوحات وقطع الأثاث الفاخر والسجاجيد الثمينة التي كانت تكسوا الأرض، متفاخراً بأن تلك السجادة كلفته كذا من المال وأن تلك الأخرى ثمنها أضعاف الأولى، وهلمّ جَرا، ومعظمها مما نهبه من هيفاء وعائلتها.

واحتلت عشيقة زهدي، واسمها راكيل، المنزل بعد مضيِّ أسابيع قليلة على خروج هيفاء منه، لتقيم فيه وتصبح سيدته لا سيما بعد أن حمَلَتْهُ -بدهائها- بعد أن أتم طلاقه من هيفاء،على الزواج بها بموجب القانون الإعتيادي، رافضة طلبه الزواج تحت بند (فصل الملكية) لتُحكِم بذلك سيطرتها على كل حياته. وسرعان ما صار الداهية خاتما في إصبع راكيل، ورويداً رويداً أصبحت تتصرف بشؤون البيت والعائلة والمجمع الصحي والمجلة كما لو كانت هي مالكة لكل شيء يخصُّ زهدي. والغريب في هذا كله أن راكيل هذه لم تكن -وما زالت- تداني هيفاء جمالاً ولا عِلماً ولا ثقافة ولا أخلاقاً ولا مستوى إجتماعياً، ولذلك فإنه من نافلة القول الإشارة إلى أن البعض كان يردد آنذاك أن راكيل وزهدي كانت تنطبق عليهما تماماً -وما زالت- مقولة (وافق شنٌ طَبَقَه). غير أن ممرضة كانت تعمل في المجمع الطبي المملوك لزهدي -وكانت لها علاقة صداقة حميمة مع راكيل قبل أن يطردها زهدي من العمل بعد أن اصطدمت براكيل في مشاجرة حادة أمام بعض زملائهما في مجمع العيادات إذ اتهمتها هذه الأخيرة بالسعي لإيقاع الطبيب بأَحبالِها- أخبرت هيفاء بعد فترة من

طلاقها أن راكيل تمكنت من السيطرة الكاملة على زهدي لوقوفها على بعض أسراره الخطيرة بحيازتها على صور له وشرائط فيديو فاضحة كانت قد سلمتها لها لقاء مبلغ مالي إحدى مومسات الماخورالذي كان يملكه زهدي. وكانت تلك المومس قد سرقت الصور والأشرطة من خزانة كان زهدي يحتفظ بها في غرفة خاصة به في ذلك الماخور.

أما هيفاء وأمها وأبوها فقد تمكنوا، بمساعدتنا نحن أصدقائهم وبمساعدة الزمان الذي يدمل كل الجراح، من نسيان ما جرى منقلبين بعد ذلك إلى حمد الله باستمرارعلى نجاتهم من ذلك الدجّال، كما كانوا يصفوه.

وهيفاء اليوم، بعد مرور سنوات على ذلك كله، إمرأة سعيدة في كنف زوج آخر محترم يهيم بها ويقدِّرها حق قدرها.

❋ ❋ ❋

14

القطيعة

كان مثولنا في تلك المحاكمة كشاهديْن لصالح هيفاء قد أغضب الدكتور زهدي مني ومِن سليم لأبعد حد، كما بلغنا من بعض المقربين منه، وهو ما لم يكن قد أثار أي اهتمام لدينا، إذ أننا لم نشك ولا للحظة واحدة بمدى شطوط زهدي في ظلمه لهيفاء ووالديْها. لكنه أسرّغضبه في قلبه ولم يجاهرنا به البتة، متظاهراً بتفهمه الكامل لتصرفنا وعدم تأثره به لأننا قد مثلنا للشهادة بأمر من المحكمة، كما قال لنا في إحدى فضفضاته المُتصَنّعة التي لم نكن لنأبَهَ لها لعلمنا مسبقاً ببُعدها عن الصدق بعد إبليس عن الجنة.

ونعود إلى المجلة، ولكن قبل ذلك أريد أن أذكر أنني سألت سليم، وقد اشتدت الخلافات بينه وبين زهدي بشأنها، عن سبب عدم قيامه مستقلاً بإطلاق مشروع المجلة التي كان أصلاً قد وضع أسُسَه قبل تدخل زهدي به، فعرفت منه أن التحاقه قبل ذلك بشهور قليلة بالعمل مُراسلاً لإحدى الفضائيات العربية، إضافة إلى عمله الدائم منذ سنين طويلة في إحدى أكبر المؤسسات الصحفية الإسبانية، لم يعد يتيح له الوقت الكافي للإنشغال بإطلاق مشروع صحفي جديد بكل ما تتطلبه مثل تلك المهمة من وقت وجهد وتركيز. وقد صارَحَني بأن ذلك لا يعني أنه تخلّى عن رغبته في تنفيذ مشروعه حال أن تسنح له الفرصة.

وكان سليم قد آثر، إزاء عدم تنفيذ زهدي الإتفاق على إعادة تسجيل الشركة الذي كنا قد وقعنا عليه وتجاهُل الطبيب لنصائح الصحفي من أجل تحسين مسيرة المجلة ومدى انتشارها، اتخاذ موقف فاتر منها دون أن يقطع علاقته بها، حرصاً عليها من الإختفاء تماماً من ساحة الرأي العام الإسباني كما كان قد حصل في تلك السنوات في مدريد لعدد

من المشاريع الإعلامية العربية. لكن الطامة الكبرى كانت ما تزال بالإنتظار، فقد كان زهدي قد سلم إدارة التحرير لصحفي إسباني لا يقل جهلاً في الشؤون العربية عمن تعاقبوا قبله على إدارة المجلة، إضافة إلى أنه كان ضحل الخبرة في المهنة الصحفية باستثناء شهادته الجامعية، ولكن بعيداً عن معترك العمل في أي وسيلة إعلامية من قبل.

وعرف سليم بعد ذلك أن سرّ اختيار زهدي لذلك الصحفي مديراً للمجلة هو انتماؤه لشلة أصدقاءِ زوجته راكيل التي كان أعضاؤها من رجال ونساء قد بدأوا يترددون على بيت زهدي، وكانت قد أصبح لهم نوعا من السطوة على الرجل بينما كانوا يتدخلون، بمساعدة راكيل، بشؤونه، بما في ذلك المجلة، التي أصبحت تقريبا تحت تصرفهم عبر زوجته. وكان ذلك كله قد أدى بولديِّ الطبيب، الطالبيْن الجامعييْن عاطف وسالم، إلى النفور من أبيهما والابتعاد عنه بالانتقال إلى سكن مستقلّ لهما في مدريد، مما أتاح لراكيل مساحة أكبر في التصرف بحياة زهدي.

وأخذ مدير التحرير الجديد، وقد انفض عن المجلة كافة الصحفيين الذين كانوا يكتبون لها متطوعين، يكيلُ للمجلة المقالات والتقارير الصحفية بالعشرات، ولكن خبطَ عشواء، مما أدى إلى تحويل محتواها إلى خلطة عجيبة من المواضيع التي أحياناً ما كانت تتناقض وتتضارب فيما بينها، لدرجة أنها كانت تضم أحياناً مواضيع تميل لصالح أعداء العرب، ناهيك عن تضمّنها هجمات شرسه على دول عربية، حتى صارت المجلة توحي أنها موجودة لمهاجمة بلاد عربية بعينها، في منأى عن الأهداف التي كانت قد وُجِدت من أجلها أصلاً.

وكانت تُعقد في مقر المجلة، أي في منزل الدكتور زهدي، ولائم غداء من الحين للآخركان يحضرها أعضاء ما كان يُسمى بمجلس

تحرير المجلة الذي لم يكن سوى بعض المنتمين لشلّة أصدقاء راكيل إضافة إلى مدعويين آخرين. وكان سليم -الذي كان يُشاهد كل تلك الفوضى غير قادر على تعديلها وغير قادر في نفس الوقت على هجر المجلة وتركها في مهب الريح- يوجِّهُ في هذه الإجتماعات الإنتقادات لخوسيه، مدير التحرير، على مقالات وصور عادة ما تكون قد نُشرت في العدد الأخير من المجلة، وكانت هذه الانتقادات تثير في نفس خوسيه حقداً عميقاً على سليم، لاسيما وأنها كانت دائماً في محلها وكانت تتلقى التأييد من بعض المُجتمِعين. وكان صديقي -كما أسرّ لي مراراً- يعلمُ مدى الكراهية التي كان يكنّها له مدير التحرير، ولكنه لم يكن ليأبهَ بهِ، بل كان همّه محاولة تحسين أداء المجلة ما أمكن، حتى لا تصبح سبباً جديداً في تشويه صورة العرب وهي التي وجدت أساساً لعكس ذلك.

وعَبثاً حاول سليم تنبيه زهدي إلى الغش الذي كان يُمارسه مدير التحرير بحَشوِهِ المجلة بما هبّ ودبّ من المواضيع التي كان يؤكد أنها من نتاج قلمه، فينشر بعضها موقّعَةً باسمه وأخرى بأسماءٍ وهميّة. لكن كل تنبيهات سليم كانت تذهب سُدى، حتى أصبح مقتنعاً بما لا يحتمل الشك بأن صاحب المجلة لا يَهُمّه من قريب أو بعيد إن كانت هذه ناجحة أم لا، إن كانت تلبي الهدف الأساسي من تأسيسها أم لا، أو إن كانت تضم إعلانات وتحصِّل دخلاً أم لا. قُصارى ما كان يهمه من المجلة هو أن يتأبّطها ويتبختر بها، وأن يُدعى، بصفته صاحب مجلة، إلى الحفلات والمحافل.

وكان صديقي سليم يحتدُّ أحياناً في حديثه إلى الدكتور زهدي علّه يتنبّهُ إلى الوضع المُزري الذي كانت قد انتهت إليه المجلّه والتي كانت قد بدأت أصلاً بطريقة عوْجاء. إلى أن وقف سليم على خبر إغلاق الطبيب للشركة سراً منذ فترة طويلة، فقرر استدعاء زهدي لاجتماع عاجل. ودعاني سليم بل وألح عليّ كي أحضر ذلك الإجتماع الذي

جلسنا فيه نحن الثلاثة في نفس المطعم الواقع في أعلى برج مدريد، وعلى نفس الطاولة التي كنا قد اجتمعنا حولها أول مرة قبل ذلك بثلاث سنوات عندما طرح صديقي فكرة المجلة التي كان عازماً على تأسيسها. وطلب مني سليم قبل الإجتماع أن أقوم أنا بافتتاح الحديث مع زهدي وأن أحاول إقناعه، وهو يعلمُ أن الرجل يقيمُ لي وزناً خاصاً، بأن يُصحِّح مسيرة المجلة بعد أن كان هو، أي صديقي، قد ملّ من توجيه النصائح إليه بهذا الصدد دونما نتيجة تستحق الذكر. أي أن سليم كان ما زال يرغب بإنقاذ المجلة رغم اطلاعه على الطعنة الجديدة التي كان زهدي قد وجهها إليه عندما أغلق سراً الشركة المُصدِرة للمجلة. ولقد استنتجت إثر نهاية الإجتماع أن سليم أراد فيه إعطاء زهدي فرصة أخيرة فإذا استجاب لها تغاضى عنه، وإن لم يستجب قطع علاقته به نهائيا ولكن بعد أن يُسمِعَهُ ما لم يقُلهُ لهُ من قبل أبداً.

ويومَها، صارحتُ هذا الأخير بامتعاضِ كثيرٍ من العرب، وبينهم الأصدقاء والزُملاء الذين يعرفهم جميعا، من مهزلة مجلّته. وقلتُ له أنه كان يُضيّع فُرصة ثمينة للغاية كان يمكن أن تفيد بشكل كبير السّمعة العربية في هذه البلاد. وحدّثتُ زهدي مطوّلاً وأغدقتُ عليه بالنصيحة النصوح الصادقه، ولكنني شَعرتُ أنه لم يكن يأبه بأية كلمة من حديثي إليه، مما غاظني، إذ دأب على التعليق على كلامي بما لامس التسخيف والإستخفاف، لاسيما وأنه كان يرى أن سليم آخذٌ بتأييدي في كل ما كنت أقوله، وما كنت أقول في ذلك الوقت إلا ما كان سليم قد طلب مني أن أقوله، وهو ما كان بدوره قد قاله لزهدي من قبل مرات ومرات.

فقرّرتُ والحالة تلك أن أرفع من عيار التنبيه، لاسيما وأنا أرقب ما كان ينمُّ عنه وجه سليم من فراغ صبر، وكلي شعور بأنني لم أكن في تلك اللحظات أقلّ سذاجة ومثاليةً من «دون كيخوتيه» القابع في الميدان تحت نافذة المطعم، مُعتمراً خوذته الصّدئَه وممتطياً

حصانه الهزيل، وحاملاً رُمحَه العتيق، بل خِلتُني تابعَه «سانشو» راكباً الحمار خلفه وسليم هو «دون كيخوتيه»:

- «أنتَ هوَ دائما أنتْ يا دكتور زهدي»، قلتُ له ذلك محتداً وغير مبالٍ بمشاعره، ورادّاً إياه للخانةِ الصحيحة التي تلائمه.
- «ماذا تقصد يا دكتور سفيان؟»، قالها وقد دُهِشَ من نبرتي الجديدة الحادة وملقياً نظرة خاطفة على سليم.

فأجَبته مُصعِّداً من حدة نبرتي ومُثبتاً عَينيّ في عينيْه:

- أقصدُ أنك لا تتغير ولا تتبدّل. لا يهمُّ أن يكون عملك في مستشفى عمومي أو في مجمّعِك الطبي أو في مجلة، فالخديعة هي من طبعك وطبيعتك، وأنت تعرف أنك تستطيع أن تخدع العالم كله ولكنك لا تستطيع أن تخدعني أنا، فإنّني أعرفك خير من أمّك التي ولدتك.

وانتفض زهدي لدى سماعهِ كلماتي تلك، ولربما أنه أدرك في تلك اللحظة أن غداءنا ذاك كان مدبّراً من طرفنا، أنا وسليم، لاسيما وأنه كان قد حاول مراراً أن يغير موضوع الحديث ولكننا كنا دائما نعود بإصرار لموضوع المجلة.

وبدا زهدي مذعوراً وهو يسمع عباراتي الأخيرة، وراحَ يُردِّدُ:

- دكتور سُفيان! دكتور سُفيان!

وكأنه كان يستجديني كي لا أتابع كلامي.

وقبل أن ينطق بكلمة أخرى سارعتُ إلى القول مستأنفاً حديثي بذات الحِدّة:

- أنت تستطيع أن تخدع الكثيرين من السُّذج في السفارات، وتستطيع أن تخدع بعض الطيبين من رجال الثقافة والأساتذة والصحفيين الذين تدعوهم الى بيتك بكثرة لتستَغلَّ كُلاً منهم ما سنَح لك ذلك، كما فعلتَ مع سليم طيلة سنوات، ولكنك، أكرّرعلك تفهم،

لا تستطيع أن تخدعنا نحن زملاءك منذ سنيّ كلية الطب، فقد خَبِـرناك طيلة عقود من الزمان، إن كنت قد نسيت.

وجاء صوت زهدي كما لو أنه كان يستنجد بي كي أسكت:

- حَسَنـًا، حَسَنـًا، سفيان، رجاءاً دعنا لا نشطح بعيداً في الكلام.

ولكنني واصلت الحديث ولكن هذه المرة بهدوء ودونما حِدّة، إذ انتابني شعور بأن الماثل أمامي لا يساوي عندي شيئًا كي أحتَدّ، وأن الفرصة قد آنت لأمسح به الأرض وإلى الأبد:

- يا رجل عيب عليك أن تكون حياتك كلها قائمة على الخديعة فمهما انطلت خدعك في المجلة على البعض فإنني وسليم نعرف الحقيقة بحذافيرها. خذ عندك مثلاً أننا نعلـمُ أنك لا تـطبع من هـذه المجلة سوى ثلاثمائة نسخة فقـط.

فقاطعني بحرارة، متجاهلاً توبيخي السافر له:

- بل خمسمائة.

وانبرى له سليم هاتفًا:

- وتـنشرُ في كل عدد أنك تطبع خمسة آلاف نسخة. هذه عملية نصب يا زهدي.

- ماذا سيفكر الناس لو أنني نشرت أن المجلة لا يُطبع منها سوى خمسمائة نسخة؟ من سيلتفت إليها لو فعلت ذلك؟

- ولكنك لا تطبع إلا ثلاثمائة فقط، ومن كان يمنعك من أن تطبع خمسة آلاف كما كنا قد اتفقنا من أول يوم تأسست فيه المجلة؟ بل وعلى هذا الأساس كان قد تم الشروع ببناء المجلة التي كان من المفروض أن يجري توزيعها مجانـًا؟

وصمتَ زهدي، وقد فوجئ إذ وجد أن جليسيْه يعرفان ما كان هو يظنه سراً، فقد كان يطبع ذلك العدد الهزيل من نسخ المجلة موهمـًا سليم وكل المحيطين به بأنه يطبع خمسة آلاف نسخة، بل ويؤكد على

ذلك بالإعلان عنه باستمرارعلى صفحة داخلية من المجلة بالخط السميك أو البولد.

وتابع سليم تأنيبه لزهدي دون أي تحفظ:

- ونعرفُ أيضاً أنك تقوم بنفسك بتسليم نسخ من المجلة في السفارات، ولبعض من يهمك أمرهم، ثم أنك تعطي وكالة التوزيع خمسين نسخة فقط وبلا مقابل، لا يُباع منها عبر أكشاك الصحف إلا ما ندَر. ويتراكم ثلثا النسخ من كل عدد من المجلة شهراً بعد شهر في المخزن في مجمع العيادات، أي آلاف النسخ حتى الآن، وكلنا شاهدَ هذه الكميات من النسخ مكدّسة عندك، بل قمتَ أنت باصطحابنا مع مجموعة من زوارك لتُريَنا أكداسها.

كانت علامات الدهشة مرفقة بعلامات الإستنكار ترتسمُ على وجه زهدي تباعاً بينما كان يستمع لسليم، موجِّهاً نظرةُ من الحين للآخر إليّ كأنما ليقول: «قل لصديقك أن يكُفّ عني». وبدلاً من ذلك فإن سليم صعّدَ من توبيخه لزهدي، وبنبرة محتدّة، وقد بدا لي أنه أيضاً كان قد قرر في نهاية المطاف أن يمسح به الأرض، كما نقول بلهجتنا العاميّة:

- ألا تخجل يا رجل من أن تغلق الشركة سِرّاً بدلاً من أن تنفِّذ الإتفاق الذي وقّعنا عليه أنا وأنت وسفيان؟ ألهذه الدرجة أنت مستهتر بالتزاماتك تجاه الآخرين وبمصالح الآخرين وبالإحترام الذي يستحقه الآخرون؟ أتظن أننا لم نعرف ذلك؟ ولكننا تغاضينا عنه لأنك أنت ومجلتك لم تعودا تستحقان منا أي اهتمام أو وجع رأس، إلا بحدود محاولتي اليائسة أن تكون المجلة نافعة للسمعة العربية في هذا البلد.

وكان الدكتور زهدي يتململ ويحمرّ وجهه وهو يستمع لسليم، الذي كان بادياً لي أنه عازم على قطع شعرة معاويه معه نهائياً.

واستأنف سليم كلامه بعد برهة صمت لم يتفوه بها زهدي بكلمة وقد وجَدَ أن أمره كان منكشفاً لنا بالتمام والكمال:

- ألا تخجل يا رجل من أن تكون صاحب مجلة لا يشتريها أحد ولا يُعلِن فيها أحد، وأن تخرُج المجلة الشهر تلو الشهر وغلافها الخارجي وغلافيْها الداخليّيْن يلفها جميعا الفراغ الكامل، بدون أي إعلان أو موضوع أو صورة أو رسم؟ ألا تخجل من ذلك؟ ألا يُسبِّب لك ذلك أي نوع من الخجل؟ ولكن كيف يمكن لك أن تخجل وأنت بعيد عن مهنة الصحافة بُعد السماء عن الأرض، إذ لا يُوجد صحفي في العالم يقبل بمثل هذه المهانة المِهْنيَّة.

وأخيرا تفاعل زهدي مع كلام سليم، ولكن بعد أن فعل ما اعتاد فعله في كلّ مرة وَجّه إليه فيها سليم مثل هذا السؤال الأخير، فهزّ كتفيْه وغشَت عينيْه نظرة بلهاء متصنّعَة، واكتنفت شفتيْه ابتسامة صفراء، قائلا:

- وما ذا تريدني أن أفعل؟ ألا يكفي أنني أنفقُ على المجلة من جيبي؟

وجاءهُ ردّ سليم فوريـاً، وكأنه كان ينتظر من زهدي أن يتفوّه بهذه الكلمات الأخيرة التي طالما ألقاها على مسمع سليم وغيره ممن لهم علاقة بالمجلة كلما حانت له الفرصة، وكأنّه يُعايِرُهُم بجميل أو معروف أو إحسان أسداهُ لكلٍّ منهم شخصيا:

- زهدي، نحن نعلم أنك لا تُنفق على المجلة لوجه الله، فمثل هذا الكلام يمكنك أن تقوله لمن لا يعرف خفاياك ولا خفايا المجلة. إنك تنفق عليها لأنك جعلت منها خشبة مسرح لك فأنت لا تبغي منها سوى استعراضَ نفسك على صفحاتها كرئيس لما سمّيته «مجلس إدارة» لا وجود له، لشركة لا وجود لها، وأيضـاً لتستخدمها لممارسة النصب على مصلحة الضرائب إذ تقوم بتسجيل تكاليف المجلة مضاعفَة أضعافاً، كمصاريف ونفقات لمجمّعك الطبي،

مُلفقّاً بذلك حساباته، كي تؤدي هذه الحسابات في نهاية كل سنة مالية إلى تسجيل مدخول وأرباح أقلّ بكثير مِن المَدخول والأرباح الحقيقية، وهو ما يعود بتخفيض كبير في نسبة الضرائب المترتبة عليك، مما يحوِّل النفقات الهزيلة التي تصرفها على المجلة إلى أرباح لك في بند الضرائب. إذن أرجوك لا تتمننّ علينا وعلى غيرنا -كما سمعتك تفعل مراراً- فتقول أنك تنفق على المجلة من أجل الدفاع عن القضايا العربية، في الوقت الذي لاتهمك فيه القضايا العربية قيْد أنمله، كما لا تهمك المجلة نفسها ولا الصحافة برمّتها.

وشاهدتُ كيف امتعض وجه زهدي وهو يسمع ذلك الكم من العبارات بالغة الصراحة من سليم، ولكنه كان يبذل قصارى جهده للاحتفاظ بأشلاء الإبتسامة الصفراء التي كانت تتبخّرُ من على شفتيه مع كل عبارة كان يتفوّه بها سليم لكنه كان يعود في كل مرة لضخ ابتسامة صفراء أخرى إلى شفتيه، ممعِناً بالإستهتار بكل ما يُقال له، حتى لو كان ينطوي على إهانات صريحة ومتكررة. وكنتُ أعرف أن لدى سليم المزيد من الكلام الذي يمكن أن يُسمِعَه لزهدي فيجرحه ويستفزه ولكنه كان لبِقاً ورحيماً نوعاً ما.

- إنكما لا تفهماني.

كان هذا كل ما تمتم به زهدي أمامنا رداً على كل ذلك الكلام والمعلومات المفحمة التي قذفناها بوجهه أنا وسليم.

فهب سليم مؤنباً إياه من جديد:

- يا رجل كم مرة قلت لك أن مدير تحريرك هذا إنسان جاهل تماماً بعمل المجلات وبالصحافة وبشؤون العالم العربي، وأن المقالات التي ينشرها مستحيل أن تكون من تأليفه هو... إنه يغشّك ويَغشّنا، فهو لا يقدّم شيئا للمجلة، اللهم إلا الفوضى الفكرية التي تشوّه صفحاتها عدداً بعد عدد، وكل ما ينشرُهُ

مسروق من هنا وهناك، لا شك عندي بذلك، ولكنك لا تأبه بأية نصيحة، فأمر المجلة لا يهمك من بعيد أو قريب، لقد تأكدتُ من ذلك وإلا فكيف تفسِّرُ تصرفك العجيب إزاء ما يحدث وإزاء تنبيهنا المتكرر لك؟ هل أنت مطلع على كون هذه المقالات والنصوص مسروقة ولذلك ترفض أن تتدخل؟ يعني هل أنت شريك لخوسيه في هذه الجريمة؟

وبصوت مبحوح جاء رد الدكتور زهدي قائلاً وقد انطفأت ابتسامته الصفراء وتلاشت، وشاحنًا رده لؤمًا، كأنما أراد أن يجرح سليم ويفحِمَه انتقامًا من تعرّضنا له وتوبيخنا له:

- يا سليم لا تتهم الناس زوراً، وكل ما في الأمر أنك تكره خوسيه مدير التحرير لأنه يشغل المنصب الذي تريده لنفسك، أفلا تخشى الله يا رجل؟

وقهقه سليم من أعماقه وهو يسمع ذلك الرد الذي قصد زهدي منه أن يُفقدَه مصداقيّته أمامي، وربّما أراد أيضًا أن يُطفِّشه من المجلة نهائيًا، فسارعتُ مستبقًا سليم بالرد، مُمسكًا بذراعه إلحاحًا مني عليه كي يدعني أرد على زهدي قبله:

- كيف تجرؤ على توجيه مثل هذه التهمة السخيفة لسليم؟ والله إنك لا تستحي وليس هذا بالأمر الجديد فيك. هل تعتقد حقًا أن سليم مهتم بهذا «المنصب الرفيع»، بين مزدوجيْن، في مجلتك الغرّاء؟ وقد قلتُ الكلمتين الأخيرتيْن بتهكُّم بيِّن . سليم لا يجدُ وقتا لحك رأسه من كثرة أشغاله وتعدّد أعماله الإذاعية والتلفزيونية والصحفية والأدبية والتي تدرّ عليه من الدخل أضعاف راتبي وراتبك في المستشفى. إن كل ما قاله لك صحيح تمامًا، إنه يتحدث من مُنطلق غيرتِه على مجلةٍ كانت أصلاً فكرته هُوَ ومشروعه هُوَ، أم أنك نسيت ذلك؟ وما قُمت أنتَ بفعله هو سرقة المشروع وتخريبه.

- كما قال لك سفيان، فعلاً أنك لا تستحي.

قذف سليم بهذه العبارة في وجه زهدي دون أن تبدو عليه أية رغبة بقوْل المزيد.

وظلّ زهدي صامتاً متجهِّم الوجه. وهمّ سليم بالكلام من جديد إزاء صمت زهدي، إلاّ أنني لم أتمالك نفسي غيظاً من تجنِّياته وافتراءاته على صديقي فوجدتُ نفسي أسابق سليم في توجيه الكلام لجليسنا، فانطلقتُ قائلاً له من جديد:

- كلّ ما يهمك من المجلة، ونحن نعرفك حقّ المعرفة، هي رغبتك الجامحة بالزج بنفسك في عالم لا تنتمي إليه إطلاقا، لا فكرياً ولا ثقافياً ولا ضميرياً، فأنا وأنت نعرف أن ضميرك لا يبالي إطلاقاً بالدفاع عن سمعة عَرب أو صينيين في هذه البلاد. يا رجل، حتى عندما تسنح لك الفرصة كي تكون نافعاً لأناسِك فإنك تصرّ على حرمانهم من هذه المنفعة وتضحّي بها على مذبح منفعتك أنت وعبادتك لنفسك، ضارباً عرض الحائط بأبسط قواعد الشرف والوفاء.

وسكتُّ لتوّي، لاجماً لساني، كي لا أواصل إهانته. لكن سليم لم يلزم الصمت وعندما همّ زهدي بالرد علينا عاجله صديقي موبخاً:

- كل ما قاله لي عنك الكثيرون وبينهم الدكتور سفيان، لهو صحيح بالكامل، ولكنني لم أكن أصدّقه، وكنت أبحث لك دائماً عن المعاذير في كل مرة طعنتني بها بالظهر، وفي كل مره تجلّى لي بها مدى خِستك، كنت أكذِّب نفسي. ولكنني تحققتُ، تجربة بعد تجربة معك، أنك أسوأ بكثير مما قالوه لي عنك أولئك الذين يعرفونك خيراً مني، ومنذ صغرك.

قال سليم كلماته تلك وبطريقة بدا معها أنه كان يبصُقُ في وجه زهدي، ثم هبّ ناهضاً وقاذفاً وجهَ زهدي بالفوطةِ البيضاء التي عادة

ما تكون موجودة على طاولات المطاعم، ومنتظراً لوهلة أيّ ردة فعل منه، ولكن هذا الأخير لم يحرِّك ساكنا وظلّ مُطرقاً إلى الطاولة وقد ألجَمَتهُ ردةُ فِعل سليم وشلّت تفكيره لِما وجدَ فيها من تحدٍّ واحتقار -وعلى مرآى ومسمع مني ومن الحضور في المطعم- كان من الممكن أن يتحوّلا إلى شِجار بالأيدي لوْ أن زهدي تجرّأ في تلك اللحظة على الرد على التحدي بتحدٍّ مثله، لكنه كان أجبنُ من ذلك بكثير، لاسيما لِما كنا نعرفه عن ممارسة سليم لعدّة رياضات قتالية طيلة أكثر من عشرين سنة. وسُرعان ما غادرنا سليم محيِّياً إيايَ تحية خاطفه بإشارة مفادَها أن أهاتفه فيما بعد، ولكنني نهضتُ بدوري لألحق به غير أنني توقفت ملقياً نظرة على زهدي، فإذ بوجهه محتقنٌ ومُحمرّ وعَيناه تقدَحان شرراً وغيظاً، فاقتربت منه ومددت وجهي نحو وجهه، وهو ينظر إليّ منتظراً كلامي، فقلتُ له بهدوءٍ وبنبرة مشحونة بالسُّخرية المريرة، وكلي وعيٌ بأن ذلك اللقاء هو ختام علاقتي به:

- ألا فاعلم أيها الدكتورأنني أخبرت الكثير من معارفك وأصدقائك بفحوى شهادتنا أنا وسليم في تلك المحاكمة مؤكداً لهم أن السجّاد والأثاث الفخم والتحف التي في بيتك قد سرقتها كلها من والديِّ هيفاء، وأنني وسليم رأينا كل تلك الممتلكات في بيتهما في الكويت قبل أن تسمع أنت عن هيفاء أو ترى وجهها لأول مرة، أيها المغفّل.

فإذ به يقاطعني بصوت مبحوح:

- طبعك النميمة يا دكتور سفيان.

- دعك من التمسح بحسن الخلُق فأنت لا تعرف عنه شيئاً. سألوني فأجبت، والكل يعرفني رجلاً صادقاً. وقد أغدقت عليهم بالمعلومات، فأخبرتهم كذلك أنك سرقت أيضا جواهرهيفاء وحِليّها وجواهر غدير وحليها وممتلكات زوجتك الأولى، وأن كل ما في حياتك وفي بيتك قد سرقته من حيث استطعت، أو حصلت عليه بطرق مخزية أنت تعرفها من أيام غرناطة وشارع

برنثيسا والطريق إلى طليطله. لذلك، عندما كنتَ تتباهى أمامهم ملء فمك كان كثيرون منهم يستهزؤون بك في سرّهم.

وشعرتُ بارتياح كبير وأنا أقول له تلك الكلمات دون أن يردّ عليّ ببنت شفه، إذ ظل واجماً، محتقن الوجه، وفاغراً فاه، بعد كل ما تعرّض له من إهانة في تلك الجلسة التي كانت قد تأخرت كثيراً عن موعدها، ربما لسنين.

* * *

15

الخديعة



مرّ يومان على تلك الجلسة العاصفة، وفوجئتُ في ظهيرة اليوم الثالث بمكالمة من سليم يقول لي فيها أن زهدي لعِبَ لعبةً قذرة جديدة فحواها أنه يتهمَهُ بين الأصدقاء بأنه أرسل رسالة بالإسبانية بدون توقيع عبر شبكة إنترنت إلى عددٍ من الهيئات والمعارف والأصدقاء، تضم اتهامات بشعة ضد زهدي. واتفقتُ معه على اللقاء مساء ذلك اليوم.

وبالفعل فقد كالمني هاتفيا بعد ذلك صديقان من العرب ليخبراني بأن زهدي اتصل بهما ليسألهما إن كانا قد تسلما عبر انترنت رسالة بدون توقيع ومرسلة من عنوان أليكتروني مُبهَم تحتوي على اتهامات خطيرة ضده. وقال لي الصديقان في مكالمتيْهما أن زهدي أخبرهما أن سليم هو صاحب الرسالة المذكورة. واتفق مُخبرايَ في مكالمتيْهما أيضا على سخافة المناورة ودافعًا عن سليم لمعرفتهما الشخصية به وقالا لي أنهما اتصلا به وأخبراه بما كان زهدي يشيعُه عنه بين الأصدقاء عبر الهاتف.

وفي لقائي مساءاً مع سليم قال لي أنه فوجئ بعدة مكالمات تسلمها صباحًا أخبره بها أصحابها أن زهدي اتصل بهم ليسألهم إن كانوا قد تلقوا تلك الرسالة عبر انترنت ثم لينهال بالشتائم على سليم وليؤكد لمحدثيه أنه تلقّى منه طعنة في الظهر وهو الذي كان يعتبره من أعز أصدقائه. وطبعا فإن معظم الأصدقاء والمعارف لم يكونوا ليعرفوا الكثير من الوقائع التي سجلتها العلاقة بين الطبيب والصحفي طيلة سنين ولا عدد المرات التي غدر بها الأول بالثاني وبغيره. وسألتُه:

- ولكن كيف له أن يؤكد أن أيّاً كان هو من أرسل الرسالة في نفس يوم إرسالها أو في اليوم التالي، عِلماً بأنها أرسِلت من بريد أليكتروني مبهم؟ إن معرفة المُرسل الحقيقي لرسالة أليكترونية تحتاج لبحث وتدقيق يتطلبان وقتاً طويلاً وهو أمرٌلا يقدر عليه إلا المختصون والشرطة، والذين أحيانا ما يفشلون في مثل هذه المهمة.

وحريٌّ بي الإشارة هنا إلى أن كل ذلك كان يحصل في وقت كان البريد الأليكتروني فيه ما زال حديث العهد، ولم تكن توجد أية رقابة أو قيود على محلات الإنترنت المنتشرة بكثرة في شوارع مدريد والتي كان –وما زال– بالإمكان استخدامها في إرسال رسائل أليكترونية يُرادُ إخفاء هوية مرسلها.

فردّ سليم قائلا :

- لا أدري إن كنتَ تعرفُ زهدي حقّ المعرفة، ولكنني عاملته طيلة سنوات وشاهدته عن كثَب في حياته الخاصّة وفي حياته أمام الملأ، وأنت تعرف أننا معشر الصحفيين، لاسيما الكُتاب منّا، من طبعنا المراقبة الصامتة لتصرفات ونفسية الأشخاص الذين نتعامل معهم عن قرب، وهو ما أدى إلى استنتاج أن لصاحبنا قوى عقلية أضعف مما يبدو لأول وهلة، وما مسارعته الفورية إلى اتهامي، ولم تمض سوى ساعات قليلة على قيامه هو أو خوسيه بإرسال الرسالة الغامضة إلى الناس، إلا دليل قاطع على ما أقول، ولذلك فإن معظم من اتصل بهم زهدي لم يصدّقوه ولم يُعِيروه كبير اهتمام. بل إن مسارعته هذه غير المحسوبه إلى اتهامي، لهيَ الدليل القاطع على أنه هو صاحب الرسالة، ولو أن شخصاً آخر هو الذي أرسلها بنيّةِ التجريح به لما قام هو بهذه السرعة الخارقة وبهذا التأكّد المفروغ منه إلى اتهامي أنا.

فقلتُ وقد هيْمن علينا جوّ من الفكاهة والتهكم، ولكن دون أن نشطّ عن الحقيقة:

- لقد تسلمت الرسالة بعد تلقي مكالمتك اليوم، وقد قرأتها، وأقول لك أن هناك احتمال ضعيف حسبَ رأيي بأن يكون هو من كتبها بل أن الأرجح أن يكون قد كلّف مدير التحرير خوسيه بكتابتها وإرسالها، فلا أعتقد أن زهدي قادر لوحده على كتابة رسالة بالإسبانية ولا حتى من سطرين على هذا النحو من الدقة اللغوية.
- بل ربما يكون خوسيه هو صاحب الفكرة أصلاً، لأنه كان يتمنى أن تُقطَع صلتي نهائياً بالمجلة فقد كان يدرك أنني كنتُ أعرف أنه لا يمتُّ لعالم الفكر بصلة، وأنه إضافة إلى ذلك إنسان جاهلٌ بكل ما له صلة بالعالم العربي، وأنه أيضاً عديم الإهتمام بالإطلاع على شؤون العالم العربي، وما الذي كان يضطره لأن يفعل ذلك والمثلُ العربي يقول (رزق الهُبْل على المجانين)؟ وهو قد عثرحقاً على من يدفع له راتباً مقابل لاشيء، سوى الإنشغال ليومين أو ثلاثة بسرقة مواضيعَ من هنا وهناك وإرسالها للمطبعة.

وسألتُ سليم:

- هل تعتقد حقاً أنه يسرق المواضيع من مجلات أخرى؟

فرد قائلاً:

- لا مجال للشك في ذلك، ولا حتى «ماروخا تورّيس»، وأنت تعرف أنها من أنشط كُتاب الصحافة والأدب في إسبانيا، تقدِرُ على كتابة هذا الكم من المواضيع، لاسيما وأنها مواضيع متخصصة في قضايا شتى، وفي مناطق مختلفة من العالم، والرجلُ جاهلٌ وقد تحققتُ من جهله بنفسي المرة تلو المرة في لقاءاتنا.

ثم سألته عن موقف باقي الصحفيين الذين كانوا يكتبون للمجلة متطوعين، فقال لي أن معظمهم انسحب منها منذ فترة طويلة، إحتجاجاً على المستوى الفوضوي والمغلوط لمحتويات المجلة، وعلى امتناع

زهدي عن توزيعها في أكشاك الصحف والمكتبات، وعلى عدم توزيعها المجاني كما كان مقرراً لها منذ البداية، والإكتفاء بتكديسها في مخزن.

وفي الأيام اللاحقة استمعتُ لتعليقاتِ عدد من الأصدقاء الآخرين حول هذا الحدث الذي كان حديث الساعة في حَلقات السّمَر العربية لكثرة الإتصالات التي قام بها زهدي متهماً فيها سليم، فوجَدتُ أن معظم المتكلمين يشيرون بأصابع الإتهام إلى زهدي ويعتبرونه صاحب الرسالة الملفّقة. بل أن منهم من قال أن الطبيب أراد من وراء تلك المناورة المكشوفة النأي بنفسه عما كان يُشاع عنه من عمالة مخابراتية لجهة ما، وهي الإشاعة التي كانت تتردد باستمرار إزاء كل ما كان يقيمه من اجتماعات وموائد في بيته، ولكثرة تردده على بعض السفارات العربية، ولحرصه على تقديم نفسه في كل مكان كرئيس لمجلس إدارة كان لا يضم أحداً غيره، ولشركة صحفية وهمية لا وجود لها، تُصدر مجلة لا حضور لها في الساحة الإعلامية.

إلا أن هؤلاء لم ينتبهوا للهدف الرئيسي لزهدي من وراء مناورته تلك، ألا وهي رغبته بالتخلص من سليم وإبعاده عن المجلة نهائيا، ربما تلبية لطلب خوسيه وراكيل.

وفي لاحق الأيام وطيلة سنوات لم يتوقف زهدي عن الطّعن هنا وهناك بسمعة صديقي سليم الذي كان قد حاول الإتصال به مراراً في الأيام الأولى من وقوع خديعة الرسالة ولكن الطبيب لم يكن ليردّ على أية من تلك المكالمات، فمن المؤكد أنه لم يكن يجرؤ على مواجهته وجهاً لوجه. وبالفعل فإن هذا ما حصل، إذ أن زهدي كان طيلة هذه السنوات يفرّ من أي مكان يجمَعُه بسليم، من حفلاتٍ أو محاضرات أو ملتقيات، فما أن يدخل سليم المكان حتى يختفي منه زهدي.

وأمعن الطبيب، بعد أن وجد أن الغالبية من الأصدقاء والمعارف لم يصدّق روايته عن الرسالة الأليكترونية المشهورة، بالتظاهر بأنه

شديد التألم من «طعنة» سليم له وأنه، والحالة هذه، لن يسامحه. وبالطبع فإنه كان يُخفي عن الناس أن الهدف الأصلي من ألعوبة الرسالة كان قطع أية علاقة له بسليم، حتى يخلو له الجو في المجلة مع خوسيه فلا يعاتب أحدهما الآخر على جهل أو تقصير، وكي يقوم كل منهما بدوره دون منغصات، فهذا يقبض راتباً، تقريباً بلا مقابل، والآخر يتبختر وتحت إبطه «مجلته».

ووصل الحد بزهدي أنه كان يؤّلبُ هذا وذاك على سليم، بل ويطلب منهم، دون أدنى خجل، مقاطعته وعدم التعاون معه، مُطلقاً عنه الإشاعات ومنها أنه كان السبب في زجه في السجن لعدة أيام لدى وصوله الى مطار بلدنا قبل ذلك بسنوات طويلة. ولكنني وآخرين من الأصدقاء كنا نعرف أنها أكذوبة أخرى من أكاذيبه وأنه إنما زُج به بالسجن آنذاك لاستيلائه على مجوهرات ومال طليقته عبير ولعدم دفعه نفقتها .

وحاول البعض، ولم أكن واحداً منهم، التوسط بين سليم وزهدي لإعادة المياه إلى مجاريها بينهما، وكان صديقي يُبدي استعداده دائما للإلتقاء بصديقه السابق وجهاً لوجه بحضور أصدقاء آخرين لوضع النقاط على الحروف، وليس لترميم الصداقة بينهما، بينما كان الطبيب يرفضُ بكل قواه إجراء مثل ذلك اللقاء، وهو ما كان يُقنع من لم يكن مقتنعاً بعد بأن زهدي كان مدبِّر أكذوبة الرسالة الغامضة وأنه لم يكن يجرؤ على المثول أمام سليم.

* * *

16

الدكتور زهدي

إمسِك حَرامي

لم تكن قد مرت سنة على القـطـيعة بـيـن سليم وزهدي عندما وقع ما كان سليم قد حذّرَ منهُ المرة تلو المرة، وكان متأكداً من أنه سيـقع في يوم من الأيام. فـقـد انتبَه المصدر الرئيسي الذي كان مدير التحرير خوسيه يسرقُ منه المقالات إلى حـدوث تلك السرقات. وكان الأمر يتعلـّق بأحد أكبرالمواقع الثقافية والسياسية في شبكة إنـترنت، وهو موقع يعـمل بعدة لغات ويتبعُ لهيئة سياسية دولـية كبرى. وكان ذلك الموقع -وما زال- يهـتمُّ بشكل خاص بقضايا ما يعرف بالعالم الثالث، الذي كانت تدور حولَه معظم المقالات التي سرقها خوسيه وزهدي.

واكتـشـف القائمون على هذا الموقع الألـيكـتروني أن مجلة زهدي سرقـت من موقعهم أكثر من مائتيْن من المقالات والأبحاث، وأن هذه المواد الصحفية كانت تـُنشر في المجلة ليس بنـصّـها الحَرفيّ فحسب بل وبعـناوينها كما هي ودون تغـيير حرف فـيها. أي أن خوسيه كان من الكـسل والغـباء لدرجة أنه كان يسرق المقالات كما هي، شهراً بعـد شهر، لا يُكلِّف نفسه ولا حتى عناء تغـيير العـناوين، وكان ينسـبُ الكثير من هذه المقالات لنفسه ولعبـقـريّته، ويوقّـع الكثير منها باسمه، ثم ينام بعـد ذلك ملء جفـنيْه واثـقـاً من أن أحـداً لن يكـتـشـف أمره.

وكان حجم المواد المسروقة من ذلك الموقع في انترنت يشكِّل نحو سبعين بالمائة من محتوى المجلة شهراً بعد شهر، وهو حجمٌ مهول في مجلة يتجاوز عدد صفحاتها السبعين صفحة، وكان لا بد وأن يلفت الأنظار إليه عاجلاً أم آجلاً، تمامـاً كما كان صديقي سليم قد نبّه الدكتور زهدي إليه المرة تلو المرة، فقد كان من المستحيل، والمقالات المسروقة تغطي قضايا تتعلق بدول وشعوب ومناطق في

شتى أنحاء العالم، أن يكون كل ذلك الإنتاج الفكري الشهري مما كانت تجود به قريحة خوسيه، الذي لم يكن قد تبقى غيره محرراً في المجلة ولفترة طويلة.

وقام موقعُ انترنت المعنيْ بتوجيه رسالة إلى المجلة، نَشرَها أيضا على موقعه في صفحاتِه المُتعددة اللغات، تُعلِمُها فيها بافتضاح أمرها، وتؤنّب القائمين على المجلة أشد تأنيب، وتطالبهم بنشراعترافٍ فوري بسرقتهم للمقالات، وبأن يتضمن الإعتراف تفنيد المقالات المسروقة واحداً بعد الآخر، مع عناوينها وتاريخ نشرها في المجلة. وتضمنت هذه الرسالة إنذاراً شديد اللهجة للمجلة بإحالة القضية إلى القضاء في حالة عدم نشر الإعتراف المطلوب مُرفَقًا باعتذار صريح وواضح وبوعدٍ وتأكيد على عدم الإقدام على سرقة المزيد من المقالات من الموقع الأليكتروني في المستقبل. وأعطى الموقع الأليكتروني المذكور مهلة قصيرة للمجلة لتنفيذ مطالبه قبل اللجوء للقضاء.

وذاع خبر رسالة التهديد والإنذار هذه بين أصدقاء ومعارف الدكتور زهدي من عرب وإسبان لاتساع انتشارها عبر مواقع انترنت بعدة لغات. ومن جديد ظهر الطبيب الدّجال على حقيقته إذ لم يكن هناك ثمة شك بين المطلعين على القضية بأن زهدي كان شريكًا لمدير تحريره في ارتكاب جريمة السرقة بشكل مستمر ومُتواصل وإلا لما كان قد أصرّ على تجاهل تنبيهات زهدي له.

وكانت تلك بمثابة النهاية المخجلة للمجلة فقد صدَر عددها الأخير يحمل على صفحاته الأربع الوسطى الإعتراف والإعتذار المطلوبين، إضافة إلى قائمة بالمقالات المسروقة وعناوينها وتاريخ نشرها، مع وعدٍ بعدم تكرار تلك السرقات، في استعراضٍ غاية في المهانة لمجلةٍ محسوبة على العرب في إسبانيا. ولكن الدكتور زهدي ظل وفيًا لطبعه وطبيعته، فقد سارع إلى إرسال بعض نسخ من ذلك

العدد من المجلة لمقرِّ الهيئة التي هددته وأنذرته ليُثبتَ لها أنهُ نفّذَ ما طلبته منه، لكنه قامَ بانتزاع الصفحات الأربع المذكورة من وسط كل النُّسخ الأخرى التي وزعها، ساعيا بذلك لإخفاء فضيحته ما أمكن.

***

17

المواجَهَة

بعد اكتشاف أمر سرقة المقالات وإغلاق المجلة نهائيا لم يراجع زهدي نفسه قط تجاه سليم، مما شكّل مؤشراً جديداً على أن الطبيب الذي أقحَم نفسه إقحاماً في عالم الصحافة والثقافة، دون أن تكون له فيهما أدنى باع أو دراية، كان ضليعاً ضلوع مدير التحرير في عملية السرقة المتواصلة للمقالات والأبحاث.

وبإغلاق المجلة، قام زهدي بتصعيد حملته على سليم مُمعِناً في الإساءة إليه اغتياباً وإشاعات، ومواصِلا تقديم استعراضه الهزلي في المحافل التي كان يحضرها الطرفان بمحض الصدفة، إذ كان الطبيب يُسارع إلى مغادرة أي مكان يجمعه بالصحفي تفادياً منه لأية مواجهة معه.

وكان زهدي يهدف من «مَشاهِدِهِ» المسرحية تلك استدرار عطف الحضور، إذ أحياناً ما كان يتبعه شخص أو اثنان لدى مغادرته المكان مُهرولاً، ليفهما منه سبب مغادرته المفاجئة تلك أو ليطلبا منه العودة، لا سيما وأن سليم لم يتعرض له قَط بكلمة أو إهانة أمام الآخرين. وكان زهدي يستغل مثل هذا الموقف ليُعبِّر لِمَن لحِقَ به عن مدى ألَمِهِ «لخيانة سليم له يوم أن قام بإرسال رسالة الإنترنت تلك». وعَبَثاً حاول البعض إقناع زهدي بالكفِّ عن حملته على سليم، ومواجهة صديقي وجهاً لوجه بحضورهِم، لفضِّ تلك المشكلة بين رجُلين جمعت بينهما صداقة طويلة، إلا أنّ الطبيب كان يُصرُّ دائما على موقفه وعدم المثول أمام سليم.

إلى أن كان يوم، وقد مرت نحو أربع سنوات على القطيعة بيننا وبين زهدي، عندما فوجئنا به ذات يوم خارجاً من بوابة أحد

المجمعات التجارية في مدريد بينما كنتُ وسليم نهم بالدخول إليه. وكانت تلك المرة الأولى التي التقى بها صديقا الأمس وجهاً لوجه منذ أن وقعت قطيعتهما.

ورأيت زهدي وقد تسمّرَ في مكانِه وهو يقف أمام سليم الذي بادره فوراً بالتحية. وردّ زهدي التحية بمثلها، ورماني بنظرة خاطفه وقد فوجئَ أيّما مُفاجأه، وهَمّ بمواصلة طريقه على عجلةٍ مِن أمره، إلا أن صديقي أطبق بيده على رسغ الطبيب مستوقفاً إياه وهاتفاً به:

- إلى أين يا دكتور؟ بيننا كلام كثير يجب أن نتبادله.

وتخلّص الطبيب من يد سليم قائلا بكبرياء ولؤم:

- ليس بيننا أي كلام، فإن ما فعلته بي لكبير جداً، ولا يمكن أن أنساه أبداً.

فرد عليه سليم وأنا أرقبُ حوارهما دونما تدخُّل:

- لن تنساه لأنك أنت مَن دبّرته بنفسك ولفّقته بمعرفتك ومعرفة خوسيه، فلا تواصل مسرحيتك هذه وتذكّر أنك أمامي وأنني والدكتور سفيان، وهو أمامك أيضا، نعرفك على حقيقتك.

كان سليم ينطق بكلماته هذه بسرعة بينما كان يحاول منع زهدي من محاولة هربه من أمامنا في الوقت الذي كان الطبيب يحاول بكل قوته الإبتعاد عنا. ولما وجدَ سليم ما آل إليه صديقه القديم من جُبن، أطبق بيده من جديد على رُسغه بقوة، مُرغِماً إياه على الإستماع إليه، بينما فشِلتْ محاولات الأخير التخلص من قبضته هذه المرة، مضطراً لسماع ما كان سليم يقوله له بكل حزم:

- إسمع يا زهدي، لقد عَجَنتُكَ وخبَزتُك سِرّاً وعَلناً طيلة سنوات، وأنتَ تعرف أنني أعرف عن حياتك كل صغيرة وكبيرة مما رويته لي أنت بنفسك في طفرات المصارحة والفضفضة التي كثيراً ما تعتريك. وطيلة السنوات الأخيرة صبرتُ على حماقتك

بانتظار أن أقابلك وجهاً لوجه. والآن وقد أصبحتَ أمامي وأنت على هذه الحالة من الجبن فإنني أحَذرك لأول وآخر مرة من مَغبّة مواصلتك التحريض عليّ هنا وهناك، واختلاق الإتهامات والإشاعات عنّي، وتحذير البعض من التعامل معي، فكل ما تدسه ضدي في أنحاء المدينة يصلني خبره من المعنيين أنفسهم.

وبكل صلافته المعهودة ردَّ زهدي موجهاً الكلام لنا نحن الإثنين:

– أتركاني وشأني، وأعلى خيْلكُما فاركباه.

وأدهشني ردّه ووقاحته ولم أفهم مصدراً لذلك الصَلَفْ في رجُل في وضعه وسمعته الرديئة، اللهم إلا الحُمق وكل أحمَق صَلِفْ. ونهَرتُه دون أدنى احترام:

– إلزم حدودك يا زهدي فلطالما تحمّلنا منك. وكما يقول لك سليم، فإنه يلائمك كثيراً أن تأخذ تحذيره مأخذ الجد. واعلم أن وقاحتك هذه لا تفاجئنا ولا تخيفنا، فخيولنا أعلى بكثير من حميرك.

ورمقَنا زهدي بحنق وازدراء، وقد احمرّ وجهه، ودون أن يرد عليّ حاول الإفلات من يد سليم من جديد بكل قوته دون جدوى، بينما كان هذا الأخير يستأنف كلامه بصوت حاد:

– أعلى ما بخيلنا نركبه؟ لكم سمعنا منك هذه المقولة التي لا علاقة لها بمن هم مثلك. إسمع جيدا يا زهدي، ها أنا أحذرك من جديد، إن عُدت إلى محاولة إيذائي بأي شكل كان فإنني، ولأول مرة، سأرد عليك رداً لـمْ ولنْ يخطر لك ببال، وعندها فإنك لن تلومَنَّ إلا نفسك. وتذكّر، إن كنتَ قد نسيت، أنك تتعامل مع صحفي يمكنه أن يسرد على الناس سيرتك المخزية بالتفصيل المُمِل وستكون المقولة التي تلائمك تماما ساعتئذ هي «لات ساعة مندم».

قال سليم كلمته الأخيرة مطلقاً يد زهدي، الذي رأيته يكاد يطلق ساقيه للريح هرباً من ذلك الموقف الذي ظل يتفاداه طيلة سنوات القطيعة.

ولكن شيئاً لم يتغير، فلا ننسى أن ذنبَ الكلب يظل أعوَجاً ولو اجتمعت البشرية كلها على تعديله، فبعد تلك المقابلة استمرّ زهدي مثابراً على الإساءة لسليم.

إلا أن سليم لم ينفّذ تهديده في لاحق الأيام والشهور، وعندما سألتُه عن سبب امتناعه عن تنفيذ وعيده، قال لي أنه سيُمهل زهدي المزيد من الوقت، وأن الإنتقام طبق يُقدَّمُ بارداً. وأذكر أنني أجبته مبتسماً، أن مقولته هذه عن الإنتقام هي عنوان فيلم رعاة بقر إيطالي أو ما يعرف بـ «إسباغيتّي ويستيرن»، من السبعينيات، فقال لي مبتسماً هو أيضاً:

– وأنت تعلم يا سُفيان كم أعشق أفلامَ الويستيرن منذ صغري.

قلت له ممازحاً:

– بعد أن هددته بالرد إذا ما هو استمر في محاولاته محاصرتك، يجب ألا تبقى مكتوف اليدين، وإلا ظن أنك ضعيف.

فرد عليّ قائلا بسخرية:

– إذا اعتقد أني ضعيف فإنه الجاني على نفسه، فحسب مقولة «بَلزاك» إن انتقام الأضعف عادة ما يأتي ضارياً.

– ولكن زهدي ما زال يشن حملته عليك.

– لا عليك يا سفيان، ربما يأتيه ردي بعد أن يملّ من مواصلة حملته هذه عليّ، بل وبعد أن ينساني تماماً وينسى كل هذه القضية. ليس ثمة ما يدعو للإستعجال، لاسيما وأن حملته عليّ لا تهمني في شيء، وقد رأيتَ بنفسك أن استمرارها طيلة سنين حتى الآن لم يضرّني في شيء.

* * *

18

الدكتور زهدي
يتسلق ظهر جمعية أخرى

بفقدانه للمجلة فقداناً مُدَوّياً كما رأينا، وجد زهدي نفسه من جديد مُهمَلاً وقد انفضّ عنه كثير من معارفه وعادت الألسنة تلوك سيرته في اللمّات وتسترجع عديد ما حُكي عنه على مَرّ السنين. وصار الرجل يبذل قصارى جهده للبحث عن منصة أخرى يتخذ له فيها مسرح احتيال واختيال، حيث لم يسبق له أن لمَع ببريقه الذاتي في أي نشاط أو حقل.

حتى كان له ما أراد، إذ جاءه في يوم أحد معارفه العرب، واسمه ناظم، يطلب منه الدعم المادي لجمعية صغيرة للفنانين العرب كان يترأسها في مدريد. وألقى زهدي على الرجل السؤال تلو السؤال عن تلك الجمعية، حتى تحقق من كونها جمعية ضعيفة، رغم مرور سنوات طويلة على تأسيسها. وكان لتلك الجمعية ماضٍ متألق ومُشرف، أيام كان معظم أعضائها من الفنانين المحترفين من ذوي الشهرة والشهادات العلى في الفنون التشكيلية التي حصلوا عليها بعد سنوات طويلة من الدراسة والعمل في إسبانيا. إلا أن وقوع الجمعية في يد البعض من المتسلقين من طينة زهدي وناظم، قبل ذلك بعقدٍ من الزمان، أدى بها إلى حالة من الفشل والشلل على مَرِّ السنين الأخيرة. وكثيرا ما يحصل ذلك للجمعيات التي تأسست لأهداف نبيلة وحققت نجاحاً في سنواتها الأولى والتي تتحول فيما بعد إلى مطيّةٍ للفاشلين والإنتهازيين التوّاقين إلى الظهور واللمعان وانتحال هالة إجتماعية لا تتوفر بهم من قريب أو بعيد. ويسعى هؤلاء إلى تخريب هذه الجمعيات من الداخل، و إلى استغلال ضعفها، من أجل الوصول إلى ترأسها وقد تحولت إلى مجرد هيكل فارغ من المحتوى. ثم يلصَق هؤلاء الفاشلون بكرسيّ الرئاسة فيها ويتشبثون به، وعياً منهم بأن الجمعية، وقد أصبحت وهمية، يسهل

تسخيرها لأغراضهم الشخصية، لاسيما منها الزُّهُوّ الإجتماعي الزائف لأشخاص إذا ما حَكَكْتَهم إكتشفتَ للتَوّ رُخصَ معدنهم، شأنهم في ذلك شأن المتسلقين من كل عِرق وجنس، ممن يجيدون الظهورَعلى ظهورِالغير، على شاكلة ما قاله شاعر عربي:

حُب الظهور على ظهورِ الناس منشأه الغرورُ

ما لم يكن فضل يزينك فالظهور هو الفجورُ[1]

وأدرك زهدي أن الجمعية المذكورة كانت سهلة المنال، إذ لم يتبق من أعضائها سوى عدد لا يتجاوز أصابع اليدين، بعد أن هجرها باقي الأعضاء. ولكن كيف له ذلك وهي جمعية مِهنية، للفنانين، ولا شأن لها بمهنته كطبيب.

ودار بين زهدي ورئيس الجمعية حديث طويل، أقنع فيه الطبيب محدِّثَهُ ناظم، وهو فنان يعاني من حالة فقر مزمن إذ لم يحقق نجاحـًا يُذكر في مهنته طيلة ثلاثين سنة، أنه أثناء دراسته الطب كان أيضا مداومـًا على الرسم، وأن بيته وبيوت أصدقائه مليئة باللوحات التي رسمها على مر السنين، إلا أن مهنته كطبيب لم تدع له متسعـًا لممارسة موهبته الفنية المزعومة منذ تخرّجه من الجامعة. وكاد ناظم أن يطير فرحـًا لذلك الخبر، حيث أدرك أن بغية الطبيب زهدي من البوح له بسيرته الفنية هي التحاقه بجمعية الفنانين العرب تلك، وهو ما سيتيح له الإستفادة من الطبيب الثري ماديـًا كلما سنحت له الفرصة، غير أنه لم يكن يخطر له ببال ما كان يصبو إليه زهدي من وراء التحاقه بتلك الجمعية الهزيلة.

وهكذا اتفق الرجلان على التحاق الطبيب بعضوية الجمعية، وقام هذا الأخير بتقديم تبرع مالي سخي لها، أي لناظم، الذي دأب طيلة سنين تربعه على كرسي الجمعية على نهب كل ما يصل لها من مال من مُتبرعين أو أعضاء، ولم يكن ذلك بالجديد عليه، فقد كان قبل انخراطه في الجمعية يعمل قوّاداً لثري عربي طرده قريبه الحاكم من بلده قبل

(1) للشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان (1905-1941)

ذلك بسنوات، سامحا له بحمل ما شاء من ثروات البلاد المنهوبة، فاستقر في منتجع ماربيا السياحي جنوبي إسبانيا، والذي يضم العشرات من قصور الأثرياء العرب، وأحاط نفسه بشلة من الفاسدين يخدمونه كما العبيد، بينهم ناظم، إلى أن فاحت رائحة عفونته على مر السنين، وانتهى الأمر به نزيل أحد السجون في دولة أوروبية، بعد أكثر من ثلاثين سنة من طرده من بلاده التي ما زال قريبه يحكمها بالحديد والنار.

وبانخراط زهدي في الجمعية من أوسع أبوابها، عمد إلى توطيد علاقاته بأعضائها القلائل، مكتشفاً مع الوقت أن معظمهم لا يعملون في أي من حقول الفن، رغم ادعائهم أنهم أصحاب أعمال فنية، فمنهم الساعي في محكمة، ومنهم موظف في مصلحة الضرائب، وثالث مهندس، وهلم جرا، بل أن بينهم من كان يعمل موظفاً في سفارة دولة خليجية، وهو ما أثلج صدر زهدي استبشاراً بعودةٍ ميمونة لعلاقاته بتلك السفارات.

وفعلاً حدث في تلك الجمعية ما كان متوقعاً له أن يحدث. فقد لجأ زهدي إلى ما اعتاد عليه من حيَل، لحَمل أعضاء الجمعية على هجرها والطفَشِ منها، حتى لم يبق فيها من الأعضاء إلا ما يُعدُّ على أصابع اليد، فخلا الجو تماماً له ولناظم بتحوّل الجمعية إلى ما يُشبه المزرعة الخاصة بهما.

وبعد سنة من التحاقه بتلك الجمعية، أصبح زهدي -وحتى الآن- رئيساً لها، متآمراً على ناظم، الذي كانت حالته المادية المزرية قد حوّلته إلى مجرد تابع للدكتور زهدي. ولجأ الطبيب إلى استخدام أدوات مكره مع ناظم حتى انتهى الأمر بالفنان المغمور إلى أن طفَش بدوره من الجمعية، تاركاً إياها للطبيب يفعل بها وبحفنةِ أعضائها ما يحلو له، وليدورَ هو هنا وهناك راوياً قصته مع الطبيب، وهي قصة مراوغة وتَيْئيس تصل لدرجة الأستاذية في مادة الكيْد، كما اعتاد زهدي وكما عرفناه.

ومِن أشد المشاهِدِ إثارة للإشمئزاز، رؤية الطبيب زهدي متحدثاً باسم جمعية الفنانين العرب التي يترأسها، بتعبيره الركيك والمهزوز كعادته سواء تكلم بالإسبانية أم بالعربية- في حفلات اتحاد جمعيات الفنانين التشكيليين، مخطاباً الفنانين دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن عالمهم ومهنتهم واهتماماتهم ومشاكلهم. وكثيرون من المستمعين إليه عادة ما يستغربون من تَأتأتِه إذا تكلم موجِّهاً كلامه لهم عبر الميكروفون، ويستهجنونَ فراغَ كلامه من محتوى مفهوم، ويستهزؤون من الفنانين العرب الذين يمثلهم هذا الماثل أمامهم، مرددين فيما بينهم أنه إذا كان هذا مستوى ممثلهم فكيف يكون إذن مستواهم!

وليس لزهدي من هم في مثل تلك الحفلات، كما في غيرها، أكبر من الإهتمام بالتنقل بين الحضور بابتسامته اللصيقة، مسبّلاً عينيه لبعضهن، وناظراً من عليائه لبعضهم، ومُصَدِّقاً حقاً ما كان يفتريه عليهم من أكاذيب عن علاقته بعالم الفن. كما كان يسعى لإلتقاط الصور له مع هـذا وذاك، ومع هذه وتلك، بل ويندسُّ بين من وقفوا ليلتقطوا الصورَ في مجموعةٍ معاً، وكأنه واحد منهم، وابتسامته العريضه تكاد تتجاوز جانبي وجهه. ثم يقوم بنشر هذه الصور على شبكة انترنت وتحتها عبارات مثل «رئيس جمعية الفنانين العرب الدكتور زهدي أبو لفّه مع...»، وهكذا دواليك، مما كان يشكل غاية مراده من ترأس تلك الجمعية الوهمية. ولكَم تساءلتُ في سري عن عدد أطنان قلة الحياء التي يحتاجها المرء ليقف أمام الناس ممثلاً لمجموعة مهنية لا يمت لها بصلة بحال من الأحوال، أو ليبذل قصارى جهده ليكون رئيساً لجمعية مهنية لا صلة له تذكر بمهنة أعضائها، في أجلى ما يكون التطفل والتزوير صورةً وفعلاً وعربَدة.

* * *

صديقي المفتش أمادور

هذه هي سيرة الدكتور زهدي أبو لفّة بحذافيرها كما طلبت مني، عِلماً بأنني لم أضمِّن هذا النص وقائع أخرى يندى لها الجبين قمتُ بكتابتها لك في مُلحق على حِده، سأسلمه لك أيضا.

ودعني أقول لك أن الدكتور زهدي، في اعتقادي، لم يحاول قتل سليم لأنه يحقد عليه ويكرهه وحسب، بل لأنه يكرَهنُا جميعا نحن الذين نعرف أسرار حياته، وهي الأسرار التي لا شك أن زهدي، وقد تقدم به العمر، أصبح يمقتُها، وإلا لما حقد علينا لمعرفتنا بها، ولربما أكون أنا صاحب أكبر قسط من كراهية زهدي للناس. وما كان سليم بالنسبة لزهدي سوى هدف يضربنا به جميعاً، ومن يدري، فلعله كان يخطط لإرسال ذلك القاتل المحترف لنا جميعاً، زملاؤه من أيام الجامعة، واحداً تلو الآخر، ليتخلص من كل أولئك الذين يعرفون أسراره وأصله وسالف حياته.

***

19

إسدال الستار على مسرحية الدكتور زهدي

مرّ يومان على الإعتداء على صديقي سليم وهو الآن يتماثلُ للشفاء. وكنتُ قد توليت بنفسي الإشراف على حالته الصحية مما كان يستدعي زيارتي له عدة مرات كل يوم.

ومن حسن الحظ أن سليم كان يتمتع بردة فعل فائقة السرعة إزاء أي هجوم عليه، فقد قضى سنيناً طويلة في شبابه يتدرب على الرياضات القتالية متنقلاً بين التاكوندو والكراتيه والجودو، مما أكسبه هذه السرعة الفائقة في رد أي هجوم أو تهديد مُحدِق به، وهو بالذات ما أنقذ حياته ساعة فوجِئَ بالمجرم واقفاً أمامه وجهاً لوجه عندما هبط من مكتبه ليركب سيارته في المرأب التابع لبرج مدريد، في ساعة متأخرة من الليل.

فقد شرح لي سليم في زياراتي له أنه عندما كان يهم بفتح باب سيارته رأى ذلك الرجل ذو الملامح القاسية الصارمة، وقد ظهر فجأة، ووقف أمامه يسأله بإحدى لهجات أمريكا اللاتينية: - «هل أنت سليم عبد السلام؟»، بينما كانت يده اليمنى تندس في الجيب الداخلية اليُسرى لمعطفه. وفهمَ صديقي للتوّ واللحظة ما كان ذلك الرجل مُقدِماً عليه، لاسيما وأنه -أي سليم- كان قد تلقى تهديدات قبل ذلك عدة مرات عبر الهاتف. ولم يكن صديقي قد حدثني قط بشأن تلك التهديدات من قبل، شارحاً لي أنه ما كان ليُعير تلك الإتهامات أدنى اهتمام، لاسيما وأنها كانت توجه إليه من طرف أشخاص كانوا يقولون له أنهم يبلّغونَهُ رسالة من زهدي، دون أن يصدِّق هو ولو مرة واحدة أن صديقه السابق يمكن أن يصل إلى ذلك الحد من الحقد والصفاقة معاً.

ولم يُجب سليم على سؤال الرجل له عن اسمه، وظلّ متسمِّراً في مكانه مثبتاً نظره في عينيْ ذلك المجرم، بينما كان يرقب كيف كانت يده

تنسلُّ بالمسدس من الجيب الداخلية لمعطفه، ففاجأه سليم فوراً بضربة في وجهه أوقعته أرضـًا. والتحم الرجلان في معركة بالأيدي والأرجل سجلتها كاميرات المرأب، وتمكن المفتش جارثيا من رؤيتها بعد ذلك. وكان سليم يوقع غريمه أرضـًا المرة تلو الأخرى، دون أن يمكِّنه من تصويب مسدسه نحوه، ودون أن يتمكن من انتزاع المسدس من يده، فقد كان المجرم بدوره مقاتلاً شرسـًا. واستمرالعراك بين الرجلين لعدة دقائق حتى ظهر حارس المرأب مهرولاً نحوهما ومسدسه بادٍ يتدلى من حزامه، يستطلع الأمر، فانطلق المجرم يعدو هاربـًا ومتواريـًا عن الأنظار في أحد أرجاء المرأب المترامي الأطراف.

ولمح الحارسُ المجرمَ يعدو عن بعد وبيده مسدس فطارده شاهراً بدوْرِهِ مسدسه، ولكن دونما جدوى، فعاد نحو سليم ليسأله عما حدث، وبينما كان صديقي يروي له ما كان قد تعرض له من اعتداءٍ دوّت طلقة نارية انطلقت من مسدس المجرم الذي كان مختبأ خلف أحد أعـمدة المرأب، فأصابت كتف سليم. وانبرى الحارس متبادلاً إطلاق النار مع الكولومبي، بينما كان سليم يتوارى بين السيارات، حتى أصيب المسلح بطلق ناري من الحارس وسقط أرضـًا، في الوقت الذي كانت فيه سيارتا شرطة تندفعان داخل المرأب، ويلقي أفرادها القبض على المجرم. ونقل سليم والكولومبي إلى المستشفى وكلاهما مصاب بجراح غير خطيره.

كان سليم في زياراتي له كطبيبٍ وصديق في آن واحد، يعبِّر لي عن مدى صدمته بأن يكون زهدي، صديقه القديم، قد وصل إلى ذلك الحد المُذهـل من الصفاقة.

وكنتُ أقول له:

- دع عنك هذا، فلكم حذرتك منه، ولم يكن قد بقي في جعبته من أعمالِ شر يرتكبها سوى القتل، هذا إذا لم يكن قد قتَلَ أحداً ما مِن قبل. فمن يدري!

- ولكن الخلافات التي بيننا لم تكن بحجم ارتكاب جريمة كهذه. أكاد لا أصدّق أن زهدي فقدَ عقله لهذه الدرجة. ما الذي تراه أودى به هذه المهالك؟

- الجواب على سؤالك بسيط جدا. فالرجل أطلعك على كل أسراره في أوقاتٍ من أوج صداقتكما وفي حمأة عقدة الطاووس التي كثيراً ما تهيمِن عليه. وما أن فرَط العِقد فيما بينكما حتى تحوّل ليُصبح عدوك اللدود، لاسيما بعد لقائنا به على بوابة المجمع التجاري، إذ أنه لا شك أصبح يعاني من هاجس أن تقوم بتنفيذ تهديدك وفضح أسراره.

- ليتني قمت بالإستماع لنصيحتك بالإسراع بتنفيذ وعيدي له.

- لا عليك، فلقد قمتُ بالمهمة عنك.

- ماذا!؟ ماذا تقول؟

- أقول أنني كتبتُ حياة زهدي بالتفصيل، بناءاً على طلب مفتش الشرطة الجنائية أمادور جارثيّا.

وقمت بتسليم سليم نسخة من المخطوط، فكان أول شخص يطلع عليه. تصفحه بعناية ثم قال بوجه محزون:

- لقد جنى زهدي على نفسه. لا حدود لغباءِ الطاووس.

- هذا ما فعله دائمـاً، لكم جنى على غيره متعمّداً ومترصِّداً، لا يبالي ولا يهتز له ضمير، ولم يكن يدري أنه كان عدوّ نفسه قبل أن يكون عدوّاً لغيره.

- صدقتْ. طالما حذّرتُه من ذلك.

***

كان بإمكاني أن أتصل بالمفتش أمادور جارثيا كي يُرسِل لي من يستلم روايتي عن حياة الدكتور زهدي، كما كان قد اقترح عليّ هو بنفسه، سعياً منه للحرص على وقتي. إلا أنني فضّلت التوجه إلى مكتبه لكي أطّلع بنفسي على آخر التطورات في قضية فرار زهدي من

العدالة. سلمتُ صديقي المفتش مظروفين، الكبير يحتوي على سيرة زهدي، هذه التي انتهيتم الآن من قراءتها، والأصغر فيه مُلحق من عشر صفحات.

وتناول المفتش أمادور مني الورق بدهشة كبيرة لم يستطع إخفاءها، وكنتُ قد جمعتها إلى بعضها البعض على شكل كتاب. قرأ ضابط الشرطة العنوان الذي كتبته على ذلك الكتاب وقهقه بصوت عال:

- "الوقائع الحقيقية لحياة مسرحية؟". كتبَت رواية يا دكتور سفيان؟

وعاد يقهقه من جديد.

- أردت مني أن اكتب لك كل ما أعرفه عنه بالتفصيل، ولم أجد طريقة أفضل من هذه.

كنا نتكلم بينما كان الضابط أمادور يتصفح بعناية الأوراق بين يديه. وعاد يضحك وهو يقول:

- والرواية لها ملحقٌ أيضا؟ عشر صفحات؟ لماذا لم تدمج هذا الملحق بالنص الأصلي؟

وبقيت صامتـًا، وسرعان ما استدرك قائلا بعد أن قرأ ورقة أخيرة سلمتها له على حدة، داخل مظروف صغير:

- فهمتك يا دكتور سفيان. ما يتضمنه الملحق هو سرّي، أما الرواية فستقوم بنشرها على ما يبدو.

- نعم، مع أنني لا أدري متى سأفعل ذلك، صديقي أمادور.

- حسناً فعلت، دكتور سفيان.

وتذكرت الغرض الثاني الذي كان قد حملني إلى مكتب المفتش أمادور، فسألته بلهفه:

- ماذا حصل بشأن الدكتور زهدي؟ هل ثمة معلومات عنه؟

- نعم، لدينا معلومات تشير إلى أنه فرّ إلى البرتغال، ولقد قمنا بإبلاغ إنتربول والشرطة البرتغالية بأمره، وصدر من الجهتين أمرٌ بتعقّبه واعتقاله. لن يفلت منا بحال من الأحوال. لا تهتم.

- وماذا عن العصابة الكولومبية والتي أخبرتني بأنها ترسل ثانيا وثالثا للتأكد من تنفيذ الجريمة؟

- لا عليك أيضا من هذا. لقد قمنا بإيهام العصابة أن الجريمة قد تمت بنجاح. بأمر مِنّا قام المجرم الذي اعتدى على سليم بإخبار العصابة بنجاح مهمته، كما أخبرهم أنه لا ينوي العودة إلى بلاده، وأنه قرر الإستقرار في إسبانيا، ومهما بحثوا عنه في إسبانيا فلن يجدوه لأنه من غير المتوقع أن يغادر السجن قبل فوات ما لايقل عن 12 سنة، وسنحرص طيلة هذه المدة على أن لا ندَع له وسيلة للاتصال بعصابته.

- الحمد لله. لقد أرحتني من هذه الناحية. يبقى اعتقال زهدي.

- القبض عليه هو قضية وقت لا غير... ولن يكون بالوقت الطويل، صدقني.

وكال لي المفتش أمادور الشكر مراراً على المجهود الذي بذلته في تقديم معلومات كاملة عن حياة زهدي، وغادرتُ مكتبه متفائلاً بشأن سلامة صديقي سليم.

وصدَق المفتش أمادور، فلم يـمُر أسبوع على لقائي به حتى اتصل بي ليُخبرني باعتقال الدكتور زهدي في مطار لشبونه، عندما كان يهم بركوب طائرة ليهرب بها إلى البرازيل.

- إن بعض المعلومات التي وردت في سردِكَ لسيرة الدكتور زهدي، سواء في الرواية أم في الملحق، ستفيدنا جداً في هذه القضية، لذلك فإنني أشكرك جزيل الشكر مرة أخرى على تعاونك معنا، دكتور سفيان.

- بل أنا من يشكرك يا صديقي.

- وعلى فكرة يا دكتور سفيان، منذ أن انتشر الخبر عن تورط الدكتور زهدي بمحاولة الإغتيال وفراره من العدالة، تلقينا عدة شكاوى ضده تقدمت بها نساء يتهمنه بالتحرش الجنسي بهن، بل وبالإغتصاب في إحدى الحالات. هناك شكاوى صادرة عن ممرضات وموظفات في مستشفاكم. بعض هذه الحالات مذكورة في ملحق الرواية التي

سلمتها لي، وهو ما يبرهن على دقة معلوماتك عن المتهم. الظاهر أنه سيقبع في السجن إلى ما شاء الله.

– سينيور أمادور، بإمكانك الإستفادة بشأن التحقيق في هذه الشكاوى ضد زهدي إذا ما تحدثت مع مدير المستشفى السيد خيرمان جونثاليث. إنه أيضا يعلم الكثيرعنه.

– سأكالمه غداً صباحـاً لترتيب موعد معه.

وفي مقر عملنا في المستشفى كانت قصة الدكتور زهدي على كل لسان كما حدث أيضـاً في المجتمع العربي في مدريد ولفترة طويلة، لاسيما بعـد أن قرأ العـشرات سيرتـَه الحقيقية التي خلت من ريشة طاووس واحدة، وذُيِّـلت بالحُـكم عـليه بالسجن لسنواتٍ طويلة.

❊ ❊ ❊

2007

مدريد

بين مدينتين
قصة

ها هي المدينة من حوله... يطل على قلبها الغاص بالمباني التاريخية والعمارات الشاهقة من مكانه في مُرتَفع ألوتـشيه حيث تُحيط به المزيد من البنايات المتراصّة والأبراج السكنية التي رُصّت فيها رصـاً آلاف من الشقق وعشرات الآلاف من النوافذ في كل شارع. هاهي أمامه ... بشوارعها التي لا تُعدّ ولا تُحصى... بملايين البشر من سكّانها ... بضجيجها وصخَبها وحركتها التي لا تعرف الهدوء ليلاً ولا نهاراً ... بحافلاتها المكتظة بركّابها المختنقين داخلها... وبركاب آخرين متلاحمين يمارسون الإختناق بدورهم تحت الأرض في متاهة مترو الأنفاق التي لا أول لها ولا آخِر... و بازدحامات سياراتها وشاحناتها التي لا تنتهي، وبمتاجرها العملاقة والصغيرة التي تغص بالسّلع وبالمُشترين في أسواق معربدةٍ استهلا كـًا وبَطَـراً.

إنها مدريد ... ثلاثون عاماً عاشرها واليوم ولا ألْفَة... ثلاثون عاماً من التلاحم واليوم ولا وئام ... المدينة التي أكلها وشربها وتنفسها وضاجعها طيلة ثلاثين حولاً، صارت اليوم ولا وداد. جُل سنوات حياته اهترأت في هذه المدينة واليوم قلبُه تجاهها جفافٌ في جفاف، ومنظرها الممتد أمام عينيه... يبابٌ في يباب. أو هكذا يُخيّلُ له الساعة.

كان رمزي يُطل على المدينة جالساً في مقهى ينتظر صديقه حازم ... صديقه منذ مقاعد الدراسة المتوسطة فالثانوية ... هناك في الكويت. ومعا غادرا الكويت إلى إسبانيا فكانت دراستهما الجامعية في مدريد ولم يفترقا خلالها. ثم رحل صديقه إلى بلد عربي عمل فيه لسنوات أخرى عاد بعدها مهرولاً إلى إسبانيا، مُقسِماً أنه لن

يغادرها ما حيا. وهكذا فعل... حتى انتهى إلى الإقامة في إحدى قرى إكستريمادورا، غربيّ البلاد، طبيباً للقرية، قانعاً بعيش هادئ، يتنفس فيه الحرية، ويتجرعُ فيه سم الغربة، ويأكل لحمَ نفسه.

وعاد رمزي يتأمل المدينة من خلف الزجاج... الشمس طالعة وأشعتها مرسَلة تصقل المكان والأشياء، بل والمُشاة في أرجاء المنظرأمام عينيه. وها هي السماء حتى الأفق زرقاء بهية بفضل ريح خفيفة طردت سحابة التلوث التي اعتادت الجثوم معظم الأوقات على تخوم المدينة كما على قلبها. وها هو مطر مارس اللعين قد انقطع بعد أن ظل يتناوب لعدة شهور حيز الفضاء بين السماء والأرض، تارة مع الريح القارسة وأخرى مع البرد الساكن... فما بالك لا تفرح؟ ما بال قلبك منقبض وصدرك يزداد اضيقاقاً كلما اشتدت أمواج فكرك تلاطماً! ألا فاكتم هدير الماضي واكبح جماح الحنين واستعدّ بقلبٍ منشرح لاستقبال صديق الصبا بعد أن طال الفراق.

لكن رمزي ظل شارد الذهن ... مقطب الجبين ... إذ أن شعوراً غريباً ما فتأ ينتابه هذا الصباح...هذا اليوم الذي يصادف اكتمال العام الثلاثين لوصوله إلى هذه المدينة لأول مرة مع صديقه... كل ما يرى أمامه يثير فيه سؤالا كبيراً ... بل هائلاً... سؤال ضاق به صدره طيلة السنوات الأخيرة ، لكنه اليوم آخذ بالتفجّر داخل قلبه ودماغه ... سؤال حار فيه جواباً رغم الكمّ الكبير من الأجوبة المقنعة المعسكرة ما بين صدغيه : «ماذا أفعل هنا؟»...«ماالذي أتى بي إلى هذه الديار؟». «ماذا تفعل بين ظهراني أناس ينكرونك وتنكرهم، ويجهلونك ويتجاهلونك وتتجاهلهم؟». «ماذا تفعل في مدينة لم تعد مدينتك؟!».

وانتفض ضمير الرجل في أعماقه .«ما الداعي لطرح أسئلةٍ كهذه ... الأسئلة العقيمة لا تؤدي إلى نتيجة غير تفتيت الإرادة ولا

تقود إلا لمزيد من المعاناة... بل احمد ربّك يا رجل، وأنت المؤمن بالله ، فالصحة موفورة والرّزق يجري بين يديك، وليست هناك ثمة مآسي في حياتك كالتي تعج بها حياة الملايين من أبناء شعبك المشرد والمطارد حتى في عقر داره... فإلامَ الشكوى والمرارة ؟!». ووجد نفسه يجيبُ نفسه مردداً: «بل إنني أنا المشرّد منذ وُلدت، وليس بعد التشرّد من مأساة».

ومرت دقائق ظل فيها رمزي ساهم الفكر والنظر، إلى أن تمتم حامداً ربه محاولاً طرد هذا الشعور الخانق بالغمّ الذي كان مطبقا على صدره في تلك الساعة بلا هوادة، دون أن يدري له سبباً. «ألا إنها هي ... المرارة المعهودة التي تراوحك منذ سنوات ... لعمري أنها هي ...رأس الأفعى التي تفحّ في غياهب نفسك منذ أن خُلقتْ داخِلها يوم ركبتَ طائرة مشؤومة، في يوم نحس، رحلتَ فيه بعيدا عن جذورك وناسك وذاتك. يومها صارت الأفعى جزءاً من عالمك لم تنسلخ عنه أبداً ... وصارت في عداد أحشائك، وظلت في بداية الأمر كامنة في جُحرها بلا حراك ... لسنوات ... لعمري أنها هي، تعذبك الآن من جديد وتحوّل بهجة الدنيا من حولك فراغاً في فراغ... نفسك ليست معك ... وعيُك لا يلازمك ... وهذه الشمس المطلة عليك، وهذا الفضاء الرحب، وهذه الحياة الزاخرة التي تعجُّ من حولك، لا تفعل سوى أن تنقل كيانك إلى هناك ... إلى حيث الجذور ما زالت غائرة في الأرض ... رغم الثلاثين سنة ... هنالك في وطنك العربي الكبير وفي مسقط رأسك ، في الكويت. ولكن كيف تنقلك هذه السماء وهذا الأفق، الذي يلوح فيه على هضبة بعيدة القصر الملكي وكاتدرائية المدينة، إلى سماء وأفق الكويت المنفتحين على الكون كله، وليس على قصر هو متحف لا حياة فيه، أو كاتدرائية فيها من الحجر أكثر مما فيها من البشر، وفيها من المظهر أكثر بكثير مما فيها من الجوهر؟»... ثم عاد يتمتم قائلا لنفسه أنه إنما كان بأفكاره تلك يتجنّى على مدينته هذه...

«فإن في الأفق أمامك مناظر بديعة، فيها أكثر بكثير من مجرد قصر وكنيسة».

كان رمزي يستعد لاقتحام مشادّة فكرية جديدة مع نفسه عندما رنّ جرس هاتفه المحمول.

– سي . ديغا1 .

وجاءه صوت مشحون بالجدية والحزن معًا:

– رمزي؟

– نعم، من يتكلم ؟

– بسام. معك بسام الشريف.

– أهلاً بسام ، منذ مدة لم أسمع صوتك. لعله خير.

ولاحظ رمزي تردّد مكالمِه على الطرف الآخر من الخط في الحديث مما أثار مخاوفه، لاسيما وأن بسام من أصدقائه المقرّبين ولم يعتد قط أن يحدّثه بتلك النبرة من الجدّية والحزن. وجاءه صوته من جديد بعد هنيهة صمت:

– رمزي!

– نعم. هل من مشكلة؟

وانقطعت المكالمة. وحاول رمزي معرفة الرقم الذي اتصل منه بسام ولكنه لم يفلح فآثر الإنتظار عله يتصل به من جديد. وأثارت المكالمة في نفس رمزي مخاوف كثيرة لم يكن يدري أية وجهة يوجّهها، ولكنها زادته غمًا على غم.

ورنّ الهاتف من جديد فسارع إلى الرد.

– نعم! نعم يا بسّام! تكلم.

– الدكتور حازم!

– نعم. إنني بانتظار حازم هنا في ألوتشيه. اتفقتُ معه على اللقاء هنا.

- إسمع!

- ماذا هناك؟ إني أسمعك جيدا.

- حازم في المستشفى!

- ماذا؟! ماذا تقول؟ حازم جاد الله؟!

- نعم! ... نعم! ...

وبُهتَ رمزي وبقي صامتاً مشلول اللسان، تتلاطم في رأسه أفكارٌ شتى متضاربة.

- رمزي! رمزي!

- نعم! ... نعم! ... ما الذي حصل؟!

- لقد أصيب حازم بحادث أثناء قيادته لسيارته في طريق اكستريمادورا قادماً إلى مدريد.

وصدم الخبر تفكير رمزي أيما صدمة وشل تفكيره.

وجاءه صوت بسام أكثر هدوءاً من ذي قبل، وهو الذي يعرف عمق الصداقة التي تجمعه بحازم:

- رمزي ... أعرف أن النبأ جسيم، إنه عزيز علينا جميعاً، لاسيما بالنسبة لك.

- كيف حاله؟

- أنتظرك في المستشفى. إنه في غرفة العناية المركّزة في مستشفى إيل كلينيكو. إسأل عنه في المدخل ليدلّوك على مكانه بالضبط.

- يا إلهي!! في غرفة العناية المركزة؟! كيف هي حالته؟!

- لا أخفي عليك! إنها سيئة، ولكن هناك أمل. أسرع في الحضور.

- وأماليا، زوجته، هل تعرف ما حدث؟

- هي التي اتصلت بي بعد أن لم تعثر على رقمك. إنها في حالة يُرثى لها من الإنهيار النفسي، حيث لم يُخفِ عنها الطبيب الذي أبلغها

النبأ خطورة الحالة. إنها في طريقها الى مدريد بالسيارة. أعتقد أنها قادمة برفقة أخيها. إنني بانتظارك هنا.

وأنهى بسام المكالمة وبقي رمزي والهاتف على أذنه وقد تسمرت عيناه بين قدميه لوهلة طويلة في مجلسه في المقهى. وشعر وكأن كاهِله صار من الثقل أطناناً. أزاح الهاتف عن أذنه ونهض واقفاً بصعوبة جمّة، تخللها شئ من ترنّح، إذ زاغ بصره. يا لهُ من يوم مشؤوم. إنه ينتظر صديقه في هذا المقهى، عند مدخل المدينة، وصديقه مسجّى في مستشفى قريب يصارع الموت. إلى متى ستظل الحياة تسخر منه وتهزأ.

وكانت خطاه خارج المقهى، متجهاً إلى سيارته، بطيئة رغماً عنه، فإنه لا يريد الوصول إلى المستشفى، ولا يريد رؤية محبوبه حازم يتعذب بين أجهزة وأنابيب. لكنه مجبرٌ رغم أنفه على مواجهة هذا الواقع المفاجئ والمفجع، وعلى تجرّع الحنظل من كأسه قطرةً فقطرة.

وقاد عربته عبر أحراش كاسا دي كامبو باتجاه المستشفى، محافظاً على حدود السرعة البطيئة المفروضة على العربات في تلك البقعة الخضراء من المدينة. واسترَق نظرات حط بها ببصره على ذؤابات الشجر الباسق، كما يحط الطيرُ الفزع عليها قبل أن يخفق بجناحيه طائراً على غير هدى، بينما أشعة الشمس كانت تُلقي بضوئها على الأوراق الخضر، فتكسِبُها شفافية ورهافة.

... يده في يد حازم... العمر اثنتا عشرة سنة ... يتبادلان حديثا شيقاً على باب سينما الأندلس ... تهبُّ عليهما نسمة البحر الرقيقة إذ تكوّر الليل على الخليج... هناك في الأرض العزيزة. من كان يتصوّر في تلك الأيام البديعة من العمر، عندما اعتاد الصغيران على التجوال بين دور سينما الأندلس والحمراء والفردوس، وكلها أسماء تنوّه إلى أرض إسبانيا، أن الحياة ستقذف بهما إلى «الأندلس»

الحقيقية ليقضيا بها حياتهما!! الأندلس العزيزة أيضاً، التي عشقاها عن بعد حتى رحلا إليها يطلبان العلم. إن لتلك البقعة الصغيرة من الكون، التي تقع حدودها بين سينما الأندلس وسينما حَولّي الصيفية ومدرستهما القريبة منهما، مجرد بضعة مئات من الأمتار تشغلها أيضا المحلات التجارية والمقاهي والمطاعم ومكتبة عامرة، مكانةً خاصة بل ومقدّسة في قلبيهْما. فلكم تجولا فيها في الستينات ... تبهرهما الأضواء الوهاّجة من حولهما وصخب الحياة وعنفوانها، وتملأهما نشوة روائح الشاورما والكباب والفلافل، المنبعثة من المقاهي والمطاعم. أما الجلوس في سينما حولّي الصيفية، المكشوفة، فكانت تشكّل قمة انفعالهما الصبياني، إذ كانا يجدان فيها ضرباً من عجيبة ... سينما بلا سقف!! وعلى مرمى حجر كانت مدرسة حولي المتوسطة للبنين، التي قضيا فيها أجمل سنيّ الدراسة. سنين لكم استرجعا ذكرياتها أثناء زياراتهما للكويت، بعد أن مضى العمر بهما مضيّ القطار السريع.

وترقرقت دموع في عينيّ رمزي إذ تذكّر أنه كان في جلسته في المقهى، قبل ذلك بدقائق، توّاق لاسترجاع تلك الذكريات وأخرى كثيرة مع صديقه حازم، فكلاهما شغوف بها ويهفو قلباهما شوقاً إليها وإلى ذلك الماضي البعيد وذلك الموطن المسحوب من تحت الأرجل. نعم، إن نفسه ما زالت تسكن هناك، في البلد التي ترعرع فيها طفلاً فصبيّاً فشابّاً يانعاً، جار عليه الزمان يوماً، وما كاد يتخطى عتبة شبابه، فتغرّب سعياً وراء العلم في أرض الله الواسعة ، يوم كان السفر والترحال والحرية، وأضغاث الأحلام، كلها، ذات سطوة على العقل... يوم كان العقل أصغر بكثير من أن يعي كنهَ الحياة والمستقبل أو معناهما. نعم. صحيح أن سينما الأندلس وماحولها من مباني الصبا قد هُدمت، وما عاد لها من وجود، إلا أن الكويت ما زال فيها نوراً شدّما يختلف عن هذا النور الذي يلف مدريد بقتامةٍ من حوله.

وعبْر أحراش كاسا دي كامبو مرّ رمزي بالـزرافات المعتادة من البغايا والمومسات القادمات من بلاد الفقر والمرض في إفريقيا السوداء، جنباً إلى جنب مع زميلاتهن الإسبانيات، والأخريات القادمات من بلاد الفقر والمرض في أمريكا اللاتينية، وهنّ يقفن في عرض الشارع شبه عرايا؛ وبزرافات أخرى من الرجال المخنثين ممن اصطنعوا لأنفسهم أثداءاً، وتشبّهوا بالنساء، ووقفوا مثلهن يعرضون أجساداً مزورة. وعند إحدى التقاطعات اضطر رمزي إلى إيقاف سيارته للحظات بانتظارعبور سيارات أخرى احتشدت في تلك الغابة وعلى متنها أغلبية ساحقة من الرجال، بين مضطر للمرورعبر تلك المنطقة، أو باحث عن فريسة من البغايا، أو متمتع مجاناً بتأمل الأجساد الأنثوية المعروضة على قارعة الطريق. ولمح عن بعد أطفالاً يلعبون بكُرة، وشابين يتدربان على مصارعة الثيران بقرنين اصطناعييْن وقطعة من القماش الأحمر. وشاهد سيارة شرطة وقد توقفت على بعد أمتار من مجموعة من المومسات وقد انهمك شرطيّان بإصدار مخالفة مرور لراكب درّاجة نارية صغيرة وقديمة. وأتاه صوت أحدهما وهو يُعنّف قائد الدراجة -الذي كان مظهره ينم عن حالته المادية الهشة- لعدم احترامه السرعة القصوى المسموح بها للعربات في تلك الشوارع. وضرب رمزي المقود بيده وهو يهز رأسه بحنق، ناقماً على ذلك المنطق المعكوس الذي كان يدور حوله، فإذ به يفاجَأ بثدييْن سمراوين يخترقان نافذة عربته، ووجه فتاة لا تتجاوز العشرين من عمرها يكاد يرتطم بوجهه وهي ترجوه أن يسمحَ لها بالصعود إلى السيارة، فبوغت بها أيما مباغته ودعَّها بيده برفق، معتذراً ومسارعاً إلى إغلاق النافذة وهو يكيل السّباب والشتائم، إذ اقشعرّ بدنه لمظهرها المُهين، في الوقت الذي وجد فيه عربته وقد أحيطت بالبغايا من كل جانب وهن يقمن بحركات وإشارات فاضحة لاغرائه وإغراء غيره من قائدي السيارات. واندفع بسيارته بحذر بينهن، فانهَلنَ عليه بالشتائم وركَلنَ

العربة كيفما استطعن، وسط قهقهة الشرطييْن الذيْن كانا يرقبان المشهد جذلانيْن، بينما لاحظ رمزي كيف كان قائد الدراجة المسكين ينسلّ بدراجته بهدوء مبتعداً عن المكان وفالتاً من قبضة الشرطييْن، فارتسمت على شفتيْه ابتسامة واهية بينما كان قد تمكّن بدوره من الإفلات من حصار المومسات.

ولما وجد نفسه في مكان ظنه آمنا دلف بسيارته إلى ساحة ترابية تحيط بها الأشجار من كل جانب، وقد توقفت فيها سيارات أخرى، ونزل من عربته ليرى ما إذا كانت ركلات المومسات قد أوقعت ضررا بالسيارة، ثم عاد إلى مقعده أمام المقود. وعندما كان يشغّل محرك العربة من جديد وقع نظره على سيارة من السيارات اللائذة تحت الشجر، على مقربة منه، فلفت نظره وجود رجليْن في مقعدها الخلفي، فنظر إلى باقي العربات، فوجد في كل منها رجليْن، فأدرك أنه وقف في أحد أوكار المخنّثين وما أكثرها في مدريد، فانطلق بسيارته لا يلوي على شيء، شاتماً ولاعناً كل ما حوله بصوت عال.

وتنفس رمزي الصعداء إذ خرج من أحراش كاسا دي كامبو، وتذكّر كيف كانت تلك الأحراش قبل سنوات مرتعاً للعائلات في نزهاتها البريئة بصحبة أطفالها، فغدت مرتعاً للدعارة والشذوذ الجنسي والرذيلة التي تطفح بها المدينة.

وتأمل رمزي الشوارع والجسور التي كان يمرّ بها في طريقه. إن مدريد هذه لم تعد مدريده. تلك قد ضاعت ... مدريد، التي عرفها لسنوات قبل عقدين من الزمان، قد ماتت. أما مدريد التي يطأها اليوم بقدميْه فهي لم تعد مدينته، ولا أناسها اليوم هم الذين عرفهم آنذاك. حتى الوجوه فيها تغيرت وأصبحت ذات تجهّم، وكانت في الأمس بشوشة. أما شوارعها فصارت مرتعاً للبغايا والسكارى والشحاذين والمخدرات. كان حنق رمزي تجاه مدريد يشتد باقترابه من المستشفى.

وعندما وصل إليها، وبلغ الممرّ المؤدّي إلى غرفة العناية المركّزة، كان رمزي يرتجف من أعلى رأسه الى أخمص قدميه من هول المشهد الذي كان يتصور أنه سيواجهه في شخص صديقه الحبيب حازم بعد لحظات. ورأى بسّام يهرول نحوه، ورأى خلفه عدداً من الأصدقاء والمعارف ممن لا تقلّ غربتهم عن غربته طولاً وحُمقاً. وسارع ليسأل بسام، وقد خالجه شعور بأنه قد قفز في اللج العميق لا محالة، بعد أن خشي السباحة في مصيبة حازم منذ المكالمة الهاتفية مع بسام:

- كيف حاله؟ هل هناك من تحسّن؟

- إنه الآن في غرفة العمليات. قال لنا الأطباء أن العملية يمكن أن تستمرلساعات. لقد استردّ وعيه قبل دخوله إلى غرفة العمليات بدقائق.

- أيعني هذا أن حالته غير خطيرة جدا؟

- بل إن حالته خطيرة يا رمزي، ولكن الأطباء قالوا لنا أن خطورتها كانت ستزداد لو أنه ظل فاقد الوعي. إنه يعاني من إصابات جسيمة في أعضاء حيوية من جسمه.

وساد صمت بينهما شعَرا بكثافته وثقَله على قلبيْهما، فبادر بسّام إلى طرده بقوة قائلا بنبرة ذات توتر :

- الأطباء هنا مهتمون به جداً، لاسيّما وأنه زميلهم، وبيْنهم من يعرفه شخصياً. كما أن أطباء عرب في المستشفى يتابعون حالته أولاً بأول.

وهمهم رمزي، مُثقَلاً بالغمّ إلى آخر حد، بكلام لم يفهمه بسّام، ولكنه لاحظ على وجه الرجل تجهماً وحزناً لم يرَهما عليه من قبل، فربت على كتفه واقتاده برفق إلى قاعة الإنتظار، حيث كان مرافقو بسام قد سبقوهما إليها. وساد في الغرفة صمت عميق وأطرق رمزي إلى الأرض بين قدميْه، دون أن يلتفت إلى أحد أو يكلم أحداً ... فحازم في غرفة العمليات ليخرج منها للحياة

أو للموت... وهي حالة تلغي الكلام كله، وتجعله هراءاً في هراءْ ... ثم أن الحادث وقع أثناء قدومه إلى مدريد لمقابلته هوَ. نعم هوَ. وبدأ شعور عظيم بالذنب ينتاب رمزي، وعاد بذهنه إلى المكالمة الهاتفية التي دارت بينه وبين صديقه حازم قبل أيام قليلة:

«- ما دمت لا تتنازل وتسافر لزيارة صديقك فإنني مضطر لأن أكون أحسن منك فأسافر أنا لزيارتك. أم أن الصداقة أصبحت مجرد كلام؟

- معاذ الله يا حازم. ولكنني هنا في مشغلة دائمة ودوامة لا تتوقف.

- ومن منّا ليس في مشغلة ودوامة. ثم أن هناك إجازة نهاية الأسبوع، وليس فيها من مشاغل، رضيت أم أبيت.

- معك حق. هذه المرة تعال أنت، والمرة التالية تكون السَّفرة عليّ أنا. إتفقنا؟

- إتفقنا، رغم أن الزيارة الأخيرة قمت بها أنا وكان المنطق أن تكون هذه الزيارة عليك، ولكن معزتك عندي أغلى من مثل هذه الحسابات. السبت أكون عندك بإذن الله».

مكالمة دارت يوم الأربعاء الماضي، وهاهُوَ السبت المشؤوم قد حلّ، وليته ما حلّ أبداً. وسمع بسام يكلمه هامساً في أذنه:

- رمزي. هل أنت بخير؟

وهزّ رمزي رأسه بالإيجاب، بينما دار حديث بين باقي المنتظرين تشعّب وتفرّع.

..... دوّى صوت حازم ... هيا ... هنا ...إرم الكرة إليّ هنا يا رمزي... حيّ النُّقرة الصاخب بلعب الأولاد في ساحاته التّرابية يستحمّ بخيوط شمس الغروب، والصّبية يرسمون ملاعب لكرة القدم بأرجلهم الرشيقة. وبانتهاء اللعب يمشي الصديقان عائديْن إلى منزليْهما القريبيْن، ولكن ليس قبل أن يدلفا إلى بقاّلة ياسر،

ليشتري كل منهما زجاجة من مشروب غازي يرطبان به حلقيْهما الجافيّْن من كثرة الركض والصراخ. ولربما يتعمّدان قبل العودة إلى البيْت أن يمشيا الهوَيْنا في شوارع حيّهما يتبادلان الحديث، ويسترقان النظر الى الشرفات بحثا عن الفتاة السمراء التي تلوح لهما بين شرفة وأخرى، وقد انسدل شعرها الأسود يحاكي أشعة الشمس الصفراء جمالاً وسحراً فتبعث فيهما المزيد من الطاقة على الحديث والضحك وحياكة الأحلام . فإذا بلغا شارع موسى بن نصير (الأندلس مرة أخرى)، وولجا المبنى الذي يضم شُقتيّ عائلتيْهما، هبّت عليْهما روائح من مطابخ الشقق الخمس التي تضمّها العمارة، والتي تقطنُها عائلات فلسطينيّة وسورية ولبنانية أمضت سنوات طويلة في جيرة وفيّة وسَلسَة. نشأ الأبناء في ظلّها تربطهم، حتى اليوم، مشاعر الأخوّة الحقيقيّة. منهم من ما زال يقيم في الكويت ومنهم من تقاذفته السِّنون، فتبعثروا في قارات الأرض، وظل الحنين يشدّهم إلى عوالم صباهم في الكويت، ولكَم عادوا إليْها زوّاراً إذا سنحت فرصة، تماماً كما يفعل هوَ وحازم، مقتنصين الفُرص لزيارة عائلتيْهما. وقد مرت عدة سنين منذ الزيارة الأخيرة.

وجاءه صوت بسام ليقطع عليه ذكرياته الحبيبة، التي كان يرى فيها وجه حازم، أيام كانا صبييّْن، بوضوحٍ وقوّة لشدّما استغربهما في تلك اللحظات:

- رمزي. هيا بنا لنتناول شيئا من القهوة، فإن الانتظار سيكون طويلاً.

وراقت له الفكرة، فإنها ستخلّصه ولو لدقائق من الجلوس في هذه الغرفة الكريهة، التي كان عدد المنتظرين فيها يزداد دون توقف، وكانوا جميعا من العرب من أصدقاء حازم ومعارفه، ممن بلغهم خبر الحادث فهرعوا الى المستشفى للإطمئنان عليه والوقوف إلى جانبه. وكانت بينهم وجوه لم يكن قد رآها منذ أكثر من عشر سنوات .

وما أن انتهيا من تناول القهوة حتى شاهدا الجرّاح الذي أجرى العملية لحازم يغادر غرفة العمليات. وهُرع رمزي وبسام إليه يسألانه عن حالة صديقهما فنظر إليهما بجدية وقال بهدوء:

- حالته مستقرة في إطار الخطورة البالغة التي تعرفانها. لن نتأكد من تحسن حالته قبل مرور ثماني وأربعين ساعة. الدكتور أحمد ساعدني في العملية وسيخرج بعد دقائق وسيزوّدكم بتفاصيلها.

ولم يكن في التفاصيل ما يبعث الكثير من الأمل. وشعر رمزي اذ استمع للدكتور أحمد بانهيار داخلي لم يسبق أن شعر بمثله من قبل. كأن بناية قد انهارت داخل قلبه وعقله. ولكنه تحامل على نفسه وأسند ظهره إلى الحائط في الممرّ الطويل .

..... الصباح رقيق والنسمة حانية ومنعشة... والصبيّان يجدّان الخطى عبر حي النُقرة نحو مدرستهما في حَولّي ... بإمكانهما أن يركبا حافلة المدرسة، ولكنهما آثرا أن يمشيا ليملآ عيونهما من الحياة التي تعجّ بها الشوارع في تلك الساعة المبكّرة. زقزقة العصافير تملأ الصباح، رغم ضجيج السيارات التي حمل فيها الآباء أبناءهم صوب مدارسهم، وضجيج حافلات المدارس ... الحافلات الصفراء التي رافقت صباهما والتي أقلّتهما طيلة سنوات إلى مقاعد الدراسة... غير أنهما كانا يفضلان المشي أحيانا، لاسيما في شهور الربيع، ليتمتعا بزرقة السماء ... وانفتاح الفضاء ... واستنشاق الهواء المشبّع برائحة البحر ... لا فضاء مثل ذلك رحابة واتساعا، ولا أفق مثل ذاك امتداداً ووضوحاً... تلك المدينة الصبية كصباه... النضيرة نضرته... هي حُبّه المُبكّر ... فأين منها مدريد... هذه العجوز المتصابية والمبتذلة. أين مِن تلك الصبيّة، التي أصبحت اليوم شابة حسناء، هذه المومس التي لا تتورع عن بيع نسائها في الشوارع، وفي المواخير، بل وعلى صفحات الصحف.

ودُفعت ضفّتا الباب الكبير المؤدي الى غرفة العمليات ليظهر منه ثلاثة ممرضون يدفع أحدهم سريرا مر به أمام عينيّ رمزي فجحظتا لرؤيته حازم مكبلاً بالأنابيب المثبتة في أنحاء جسده بينما اختُرق أحد رسغيه بحقنة ثابتة تنتهي إلى زجاجة عُلقت فوق رأسه على منصة جرها بمحاذاة السرير ممرض ثان. كان حازم مغمض العينين في غيبوبة. وسار رمزي خلف السرير، وانضم إليه بسام ورفاق آخرون، حتى اقشعرّ بدن رمزي إذ تلفّت حوله وخلفه فخاله جمع يشيع جنازة . وتقدمت المسيرة عبر الممر الطويل الذي يتفرع يميناً ثم يساراً، ثم يعود فيتفرع المرة تلو المرة، وكأنه لا نهاية له. وكان رمزي لا يحول نظره عن وجه حازم، تارة قارئاً في صمت آياتٍ من القرآن الكريم، وتارة مبتهلاً إلى الله الشفاء لصديقه، وتارة تتناهب أفكار شتى سوداء حيز عقله بسرعة جنونية.

تُرى أيكتب لهما بعد اليوم أن يعودا معاً إلى الكويت ... ترى أترافقني يا حازم من جديد ... في الخريف المقبل ... بل حالما يمنّ الله عليك بالشفاء ... لنتجوّل معا، كما كنا نفعل في صبانا. أتذكر؟... هناك في السوق قرب جامع العثمان وأضواءه ومصابيح المتاجر ومحلات الحلوى قربَهُ متلألئةً، خاصة في شهر رمضان. أتذكر كيف كانت تلك المحلات تبدو لنا في أنوارها مجرّات سماوية تغصّ بالنجوم، من كنافة إلى عوّامة إلى بقلاوة إلى غيرها من روائع بلاد الشام التي طالما أسكرت مذاقَنا.

وخالجت شفتيه ما يشبه الابتسامة وهو يتذكر كيف كان حازم يتقزّز كلما حمله الشوق على تناول هذه الضروب من الحلوى في مطاعم عربيه في مدريد، أو كلما اشتراها من محلات عربية، وكيف كان يردد على مسمعه:- «هذه الكنافة يا رجل ما علاقتها بكنافة بلادنا؟ ولماذا يسمونها كنافة ولا يسمونها سخافة؟ فإن لها من العلاقة بكنافتنا الأصلية النابلسية ما للشاورما هنا من علاقة بالشاورما

الأصلية. كان الأجدر بهم أن يُسمّوها هنا ماشاورما و ماكنافة» .
وعلى هذا المزاح كان يرد على صديقه قائلا:- «والله لو أتقنوا صنع الكنافة هنا حتى تفوّقوا فيها على كنافة نابلس لما استسغنا لها مذاقاً معشر المغتربين ممن تربّينا على حلويات بلادنا، خاصة تلك التي اعتدناها في النُقرة وفي حَوَلّي. إننا لا نبحث فيها عن المذاق بقدر ما نبحث فيها عن الذكريات السحيقة والعُمر المُنصرم».

ودفع أحد الممرضين الثلاثة ضفتي الباب الكبير المؤدي الى قاعة العناية المركزة ومنع رمزي وبسام ورفاقهما من الدخول إليها، فانتقلوا إلى غرفة انتظار قريبة ريثما يسترد حازم وعيَه من غيبوبة المخدّر. وفي الغرفة، إتجه مع بسام الى النافذة المطلة على إحدى أجمل المناطق في مدريد، وتأمل كلاهما المنظر في صمت، وأحراش كاسا دي كامبو ممتدّة أمامهما تليها أحياء ألوتشيه وكرابنشيل المكتظة بالسّكان.

وبعد برهة صمت تمتم رمزي:

- أنظر الى هذه العاهرة التي صارت تتقزّز منا بعد أن باعت نفسها بالكامل للعم سام وما أدراك ما العم صمويل!

ونظر إليه بسام لا يفهم مراده ولا يعلم بما يعتلج في نفسه من حنق على مدريد. ولكنه استشف في نبرة صديقه رغبة في التنفيث عن النفس وسط المصيبة التي حلت بهم في يومهم ذاك، فقال بجد كعادته إذا مزح، لا تطلّ البسمة على مُحيّاه مهما كانت النكتة مضحكة:

- عاهرة؟ أية عاهرة تعني... هذه الشوارع تعجّ بهن، والبنايات التي أمامك ما أكثر ما فيها من شقق دعارة.

- هي مدريد. إنها عاهرة.

وذهِل بسام للجواب، ولاحظ أن التجهم لم يفارق وجه رمزي قيد أنملة. فتلعثم قليلا قبل أن يعود للإمساك بخيط السخرية:

- ولكنها، والحق يقال، جديدة على الصّنعة. بأية سرعة مذهلة تعلمت هذه المدينة مهنة الدعارة!! بل وتفوقت بها أي تفوق!! عندما جئناها في الستينات كانت مدينةً فاضلة.

وجاءهما صوت الدكتور أحمد، فالتفتا إليه ليجداه واقفاً وسط الغرفة، يوجّه حديثه للمنتظرين، ومعظمهم من معارفه أو أصدقائه:

- حازم بدأ يستردّ وعيه، وهذه علامة طيّبة تشير إلى وجود أمل في شفائه.

وانهال المنتظرون على الطبيب بالأسئلة حول تفاصيل العملية الجراحية، وردّ عليها أحمد سؤالا بعد سؤال، دون أن يحوّل نظره عن رمزي، الذي كان يستمع للشرح دون أن ينبس بكلمة. تقدم الدكتور أحمد نحو رمزي، وكان من معارفه القدامى، وأحاطه بذراعيه هامساً بأذنه:

- رمزي. حازم يهذي باسمك. لقد سأل عنك قبل دخوله إلى غرفة العمليات وكان في كامل وعيه، ومنذ بدأ يسترد وعيه لا ينفك عن ترديد اسمك.

- ماذا؟!

- عندما يسترد وعيه بالكامل سيُسمح لك بالدخول لرؤيته. أنت وحدك . فالدخول الى غرفة العناية المركزة ممنوع تماماً كما تعرف، إلا في حالات استثنائية تُعتبر في صالح المريض إذ يمكن أن تساعده على الشّفاء.

- حسنا. سأكون هنا بالانتظار.

والتفت الدكتور أحمد إلى بسّام وباقي المنتظرين سائلا :

- ألم تصل زوجة رمزي بعد؟ حال وصولها رجاءاً أن تصطحبوها إلى مكتب الأطباء في آخر هذا الممر.

وغادر الدكتور أحمد الغرفة بينما حلق طير الصمت على رؤوس المنتظرين بعد أن استمعوا لتفاصيل العملية الجراحية التي أجريت

لصديقهم، فازداد قلقهم عليه، وانتشر بينهم شعور بكآبة عميقة. وفي الوقت الذي غادر فيه بعض المنتظرين الغرفة فرادى، مطرقين إلى الأرض كمَن يهيم على وجهه بغير هدى، عاد رمزي يجر قدميه إلى النافذة حيث كان بسام قد سبقه إليها. ووقف كلاهما شارد البصر في الفضاء الفسيح الممتد أمامهما وقد لاذ كل منهما بافكاره وهواجسه. كان رمزي منفطر القلب منذ أن علم أن صديق عمره حازم يهذي باسمه. وكيف لا؟ وهل لكل منهما من أهل في هذه الديار إلا صديق الطفولة والشباب! حتى الزوجة وحتى الأبناء – وليس لحازم من إبن – يقفون في مثل هذا الموقف الأقصى من حياة المغترب في الصف الثاني، بعد الصديق الحميم المنتمي إلى ذات الجذور والذكريات والتجربة. أية حياة مقيتة هذه التي يواجه فيها الإنسان الموت وحيداً دون أهل ولا أقرباء!! أية حياة هذه التي يلعب فيها الصديق دور الأب والشقيق!! قسراً لا طواعية. ولكن برضاء وحماس.

وندا عن بسام تأوه عميق قال فيه بنفَسٍ طويل، جاء مجبولاً بالألم وبعيداً عن أية سخرية:

– آه يا مدريد ... قضينا فيك شبابنا من أوله إلى آخره ... في كل زاوية لنا فيك ذكرى وحنين، وفي كل منعطفِ طريقٍ تجربة وموقف ... وفي كل شارع حكاية ... وتحت كل شجرة نبضة قلب.

ورد عليه رمزي دون أن يحول نظره عن اللاشئ في الفضاء المترامي أمامه:

– أراك مولع بمدريد ووله بها. أم هي سخرية أخرى كما اعتدت ؟

– كلا. بل أتكلم بجد. إن علاقتنا بمدريد علاقة الوعي. إنها حياتنا بعنفوانها ... حياتنا بمعنى الكلمة ... بمعزل عن كونها حياة سعيدة أو تعيسه ... إنها حياتنا كما عشناها وكما قدِّر لنا أن نعيشها.

وقاطعه رمزي قائلاً:

- من الثابت أن الإنسان يألفُ سجنه وزنزانته بعد سنوات من مكوثه فيهما.

- أنت تعرف يا رمزي أنك لو ابتعدت عن مدريد ردحًا من الزمان لانفطر قلبك حنيناً إليها، كما ينفطر اليوم شوقًا لوطن حوّلته ظروف حياتنا إلى سرابٍ وحنينٍ إلى زمن بعيد لم يعُد له من وجود.

وبدا أن الرجلين كانا بأمس الحاجة إلى نقاش من هذا النوع الفلسفي، يجرّهما بعيداً عن واقع الموقف المرير الذي كانا يواجهانه. فانبرى رمزي قائلاً دون أن يسترد بصره الشارد:

- إنك محق فيما تقوله. لا أحد يناقش هذه البديهيات. ولكن البديهة الكبرى والحقيقة التي ما بعدها حقيقة في هذا الموضوع هي أننا عشنا هنا حياة مختبَر ... حياة اصطناعية ... لأنها لم تكن امتداداً لذاتنا.

- حياة مختبَر؟ أنا وأنت فأران في مختبر إسمه مدريد ؟ ماذا تقول ؟

- الطفل والصبي الذي كناه أنا وأنت لم يترعرع ولم يكبر، وإنما الذي كبر وترعرع في هذه الديار هو إنسان لا علاقة له بذلك الطفل ولا بآبائه وأجداده. لقد اجتُثت حياة كل منا اجتثاثًا منذ وطأنا أرض الغربة، فعشنا هنا منسلخين عما حولنا. فأران في مختبر كما تقول، لكن أحدا لا يدرسنا ولا يلتفت إلينا.

والتفت إليه بسام وتأمله مليًا، ورمزي لا يحوّل نظره عن اللاشيء. كان بسام يعرف عن صديقه مدى ارتباطه الوجداني بالوطن العربي، وكان يشاطره هذا الحنين، ولكنه لاحظ وجود خطاب جديد في حديثه وأفكار لم يسبق له أن عبر عنها .

واستطرد رمزي يقول بعد أن توقف منتظرا دون جدوى أي تعليق يأتيه من بسام:

- من قال أنني أشعر بحنين إلى وطن سراب كما تقول؟ السراب هنا، في وطن ليس بالوطن، وسط مجتمع ليس بالمجتمع. كل حياتنا

هنا سراب في سراب، ولو أننا نموت جميعـًا اليوم، أنا وأنت وكل العرب الذين جاؤوا للإطمئنان على صحة حازم، لما اهتزت شعرة واحدة في رأس أحد في هذا المجتمع الذي نعيش فيه غرباء، سيان له إن عشنا أو متنا.

وعقف بسام حاجبيه إزاء تلك الكلمات ثم قطب ما بينهما وهو لا يكف عن النظر إلى رمزي باستغراب، ثم قال:

- لكنني لم أسمعك تردد مثل هذا الكلام مذ عرفتك، وقد مرّ على ذلك ربع قرن.
- بل سمعتني أعبر عن هذه الأفكار أو عن أخرى مشابهة.
- حسنا. رُبّما. غير أن آراءك اليوم لهي بمثابة قطيعة مع الماضي والحاضر... مع مدريد.
- يا عزيزي قل لي بالله عليك، هل أصبحنا نشعر بمرارة الغربة في هذا البلد إلا منذ سنوات قليلة؟ بل قل لي بصراحة، هل تشعر أنت اليوم بأنك مرتاح في هذا البلد كما كان الأمر عليه قبل عشرين عاما، على سبيل المثال؟
- قطعـًا لا. ولكن...

وقاطعه رمزي مستطرداً:

- منذ عشرين سنة ... بل ومنذ خمس عشرة ... نادراً ما كنا نسمع شتيمة أو إهانة موجهة لقومنا وديننا.

وهز بسام رأسه مؤيداً وهمَّ بالكلام، لكن رمزي سارع يقول:

- أما اليوم فإن إهانتنا أصبحت تشكل ركيزة أساسية لفكرهذا المجتمع وخطابه اليومي.

وهتف بسام بقوة هازاً رأسه نفيـًا هذه المرة:

- كلا. إنك تبالغ. إنهم ...

وعاجله رمزي قائلا بقوة:

- بل هم الذين يبالغون في حملتهم علينا، غير أن الكثيرين منا هنا اعتادوا الشتيمة وأصبحت لهم جلود التماسيح.

وتأفف بسام، وبدا وكأنه ضاق ذرعـًا بصاحبه الذي واصل الحديث بإصرار وتصميم رغم احتفاظه بهدوء غريب لفت نظر مُحدِّثه:

- إنهم يا صاح ما عادوا يروا فينا معشر العرب، مهما كانت جنسيتنا، إلا متهمين ومذنبين.

ولزم بسام الصمت وقد أسقط في يده، ولبث لبرهة واجمـًا شارد النظر صوب الأفق الأزرق المستلقي فوق العمق الأخضر بجباله الشاهقة ذات الذرى الثلجية، تمامـًا كما كان يفعل في تلك اللحظة محدثه العنيد... بل لربما كانا يرقبان نفس النقطة في الفضاء المفتوح أمامهما.

ولزم الرجلان الصمت لبرهة، إلى أن نطق بسام هازاً رأسه كعادته، ولكن هذه المرة فيما ينم عن الأسى:

- معك حق يا رمزي... ولكن أين المفر؟

ولم يرد رمزي. وساد الصمت مجدداً وكلاهما يهيم وجدانه في موقع هناك بين الجبال والسماء لا يعرفانه ولكنهما يشعران به، كل منهما على طريقته. ولم يكن أي منهما يشعر بوجود رفاقهما القابعين خلفهما في غرفة الإنتظار، إذ كانوا قد لزموا الصمت بين مصغ لمناقشتهما وسارح في هموم يومه وحاله، أو قلق أيما قلق على حياة حازم .

وارتفع صوت بسام من جديد متردداً بين جدران الغرفة، وقد طرأ عليه اختلاف ورخامة كأنما صاحبه إنسان غيره:

- هنا عشنا حياتنا وعلينا أن نواصل الطريق. ولا ينسيَن أحد منا أن لهذا البلد، الذي أحببناه سنينـًا طويلة من عمرنا، خصال حميدة كثيرة، هيهات أن نعثر عليها في أي بلد من بلادنا.

واسترق بسام نظرة تجاه رمزي، عاد بعدها ينشد موقعـًا لبصره بين الزرقة والخضرة، أو على قمم الجبال، فلحظ ما يشبه ابتسامة ارتسمت على شفتيّ محدثه، وخالها مشوبة بالسخرية، حتى جاءه صوت رمزي يقول متسائلاً في تعجب:

- خصال حميدة؟! ومن يُنكر ذلك يا بسام؟ ولكن هذا المجتمع ذو الخصال الحميدة ينكر علينا خصالنا الحميدة كلها، حتى أصبحنا في نظره مجردين من أية كرامة. فماذا تفيدنا بعد ذلك خصاله الحميدة؟!

وجاءهما صوت من ورائهما قائلا بتهكم وظرافة وبلهجة سورية:

- لأ وشو؟ جميعنا تقريبا متزوجين منهم وأبناءنا نصف دمائهم منهم.

وقهقه رمزي وبسام ضاحكين معـًا، في الوقت الذي التفتا فيه إلى صاحب الصوت فإذ به الدكتور وسيم، وقد التفت إليه كل من في الغرفة بين ضاحك ومقهقه. إلا أن المرح سرعان ما تلاشى من جو الغرفة، إذ تنبه الجميع إلى السبب الذي اجتمعوا هناك من أجله.

وعاد رمزي وبسام إلى وضعهما الأول، ساهميّ النظر عبر النافذة، وعاد الصمت يخيم على الغرفة.

إلى أن تكلم رمزي من جديد:

- ألأننا أمضينا ثلاثين سنة في هذه الديار أصبح محتما علينا أن نضيع فيها ما تبقى من العمر؟! أم علينا أن ننتظر ميتة مفاجئة أو حادثـًا بشعـًا كالذي أصاب حازم؟!

- مسكين حازم. كان الله في عونه.

- ونحن أيضا مساكين، ومثله نحن مصابون وجرحى ولكننا لا ننتبه. الفرق بيننا وبينه أن حالته أصبحت الآن تفوق حالتنا خطورة، وأنه ينزف إلى الخارج ونحن ننزف إلى الداخل. أتعلم يا بسام؟

- ماذا؟

- منذ سنين وحازم عازم على الرحيل إلى بلد عربي، لكن ظروفاً تعيقه يوماً وأخرى يومين... وهلم جراً، حتى اليوم.
- ألم يستقر في بلد عربي قبل عشرين سنة ثم عاد إلى إسبانيا مقسماً أنه لن يبارحها.
- نعم. كان ذلك منذ أمد بعيد، عندما لم نكن نشعر بوطأة الغربة، وسط مجتمع إسباني كريم.

والتفت رمزي وبسام تجاه باب الغرفة، إذ جاءهما صوت قوي، فوجدا ممرضاً بزيه الأبيض يقف بالباب سائلاً بالإسبانية:

- من منكم هو السنيور رمزي؟

وهتف رمزي وقد اعتراه من جديد قلق عظيم:

- أنا رمزي.
- الدكتور أحمد يدعوك للدخول إلى غرفة العناية المركزة.
- واندفع رمزي صوب الممرض، وخلفه بسام، وقد انتفض كل من في الغرفة وقوفاً.

وهرع الممرض مسرعاً عبر الممر، وخلفه رمزي مهرولاً، يلازمه بسام، الذي لم يكن يملك سوى أن يتبعه رغم علمه بأنه لن يُسمح له بالدخول لرؤية رمزي. وكانت الأمتار القليلة التي اجتازها رمزي صوب غرفة العناية المركزة كافية لتوفير وقت اضطرمت فيه بين صدغيه وفي فؤاده شتى ضروب المشاعر المشوبة بالقلق والخوف والتوجس، وما يشبه الهلع إن لم يكن هو الهلع بعينه.

وعلى باب العناية المركزة دفع الممرض إلى رمزي بثياب معقمة خضراء اللون، ساعده على ارتدائها فوق ثيابه، بما في ذلك خفين قماشيين انتعلهما فوق حذائيه، ثم دفع ضفتي الباب المؤدي إلى القاعة المهيبة، وخلفه رمزي واجماً لا ينبس بكلمة، فارتدت ضفتا الباب تلقائياً لوضعهما الأول لتُغلقا في وجه بسام، الذي ظل للحظة

متسمراً في مكانه خلف الباب، إلى أن راح يدور حول نفسه في مشية عصبية شبك فيها يداه خلف ظهره، غارزاً نظره في مداس قدميه.

تعثر رمزي سيراً خلف الممرض بين صفين من أَسِرّة، ونظرهُ يتردد بينها وجلاً لا يلوي على شيء، باحثاً عن صديق العمر بعينين زائغتين، مرتطماً نظره بمأساة مسجاة إلى جانب مأساة، وقد تكدست عند رأس كل مريض أجهزة ذات أضواء لا تقل تردداً عن نظره، فكأنما هي بدورها كانت تجفل من أن تبوح بالحقيقة، فإذ بها مترددة في وميضها، أو هابطة صاعدة في مسار خطوطها الضوئية ... بل أن بعض تلك الأجهزة كان يصفّرُ ويُوَلول على إيقاعات الوميض، فكأن الجماد استحال في تلك القاعة المشؤومة حياً واعياً، وفؤاداً هامياً ملتاعاً، بينما البشر استحالوا جماداً صُف على أسرّة كأنها فوّهات قبور. كل هذا مرّ في خلد رمزي مرور البرق قبل أن يكف عن السير ليقف مع الممرض بجانب سرير في آخر القاعة.

بُهت رمزي وهو ينظر للمسجى على السرير أمامه، والتفت إلى الممرض ليستقرأ الحال عبر نظراته، فإذ به قد اختفى فكأنه ما وُجد قط، فارتد بصره إلى محيا صديقه فألفاه مغمض العينين مستغرقاً في سباتٍ عميق وقد اخترق أنفه وذراعه اليمنى أنبوب وحقنة، وتدلّى من فراشه كيس بلاستيكي شفاف فيه ما يتبوّله المريض، وفوق رأسه على رفوف كانت هناك أجهزة تومضُ وتخطط وتوَلول، في مراقبةٍ دقيقة لمدى بُعد المريض عن الموت، أو لمدى التصاقه بالحياة.

وهوى رمزي في بئر الأسى للحظات انتبهَ بعدها إلى الدكتور أحمد، وبرفقته طبيب آخر، وهما يقفان بجانبه ويرقبان بصمت وجه حازم. وأمسك الدكتور أحمد بذراع رمزي برفق وقال له بصوت خفيض، مومئاً بعينيه ناحية زميله:

- إنه الدكتور مارتينيث، الذي أجرى العملية الجراحية لحازم، وهو راغب في الحديث إليك.

وتبادل رمزي والدكتور مارتينيث، الذي كان قد التقاه قبل ذلك بنحو ساعة، نظرة مجاملة تصافحا على إثرها بهدوء، قبل أن يدعوه الطبيبان إلى مرافقتهما بعيداً عن سرير الجريح.

واعترى رمزي قلق شديد كان انعكاساً لسيمات القلق التي بدت جلية على وجهيّ الطبيبين. وعاجله الدكتور مارتينيث قائلاً بدون مقدمات:

- كان آخذاً بالاستيقاظ بعد انتهاء العملية، وقد استبشرنا بذلك خيراً، لكنه ما أن نقلنا سريره إلى هذه القاعة حتى غاب عنا من جديد .

ولاذ الطبيب بالصمت لهنيهة وهو يتفحص وجه رمزي، إلى أن قال وبصيص أمل يطل من عينيه مُرسَلاً إلى عيني رمزي، فيستردُّ هذا بعض الرطوبة في حلقه، بعد أن كان قد جف إثرَ سماعه العبارة الأولى:

- العملية كما شرح لك الدكتور أحمد كانت ناجحة رغم أنها كانت معقدة، وكنا آملين بأن الرجل سيمضي قُدُما في استرداد صحته، لكننا فوجئنا بهذا التحول غير المنتظر .

وتدخل الدكتور أحمد ليقول :

- نبضات القلب والضغط الدموي والتنفس تسيرُ على ما يرام بالنسبة لرجل في وضعه ... لكنه لا يفيق من غيبوبته.

كان الرجال الثلاثة يتحدثون وقوفاً في إحدى زوايا القاعة، وحركة الأطباء والممرضين والمساعدين لا تهدأ حوله للحظة. وقال الدكتور مارتينيث:

- صديقك ردد اسمك عدة مرات عندما كان في مرحلة الاستيقاظ ... لم يردد سوى اسمك ... ولقد سألت عنك فأخبروني أنكما صديقان منذ الصغر.

وردد رمزي متمتماً، يحاول استجماع قوته وأفكاره:

- نعم . بالفعل.

- لذلك طلبتك، فإن صديقك بحاجة ماسة إلى مساعدتك.

ونظر إليه رمزي متسائلاً مشتت الفكر، منفطر القلب، فاستطرد الطبيب قائلا:

- صديقك ليس في غيبوبة عميقة بعد ... لكنه يمكن أن يكون متجهاً إليها الآن.

ونطق رمزي يسأل مستميتاً، كمن يوجد في اللحظة السابقة لقفزه إلى اللج العميق لإنقاذ عزيز عليه من بين أضراس موج هادر، حتى لو كلفته المحاولة حياته:

- وماذا بيدي أن أفعل ؟ انني مستعد لأي شئ.
- بيدك الكثير. أنت من يستطيع أن يخرجه من غيبوبته هذه.
- كيف؟
- يكفي أن تحدثه... تكلمه ... مذكراً إياه بأيام صباكما ... داعياً إياه لأن يسمعك وأن يستجيب إليك بفتح عينيه، فإن لم يستطع فبتحريك يده، فإن لم يستطع فبتحريك شفتيه لا أكثر.

وتدخل الدكتور أحمد من جديد:

- إننا على يقين من أنك ستنتشله من غيبوبته قبل أن يزداد سقوطاً في أعماقها.

ورد رمزي قائلاً بحماس شديد:

- سأفعل كل ما بوسعي. إن هناك الكثير لأحكيه له.

وهنا قال الدكتور مارتينيث سائلا الدكتور أحمد:

- ألا تعرفون شيئاً عن زوجة صديقكما؟ ألم تصل بعد؟

فأجابه الدكتور أحمد:

- كلا. لم تصل بعد. إننا بانتظار وصولها من لحظة لأخرى. الرحلة من بلدها إلى مدريد ليست بالقليلة.

وضغط الدكتور مارتينيث شفتيه ورفع حاجبيه علامة التعجب، قبل أن يبتعد عنهما عبر القاعة المهيبة.

وأسدلت الستائر البلاستيكية البيضاء حول سرير حازم وجلس رمزي إلى يساره على كرسي حتى أصبح فمه بمحاذاة أذن صديقه. ودعا الدكتور أحمد ممرضة وطلب منها انتباهاً خاصاً إلى حازم ورمزي، حتى تبلغه فوراً بحدوث أي تغير يطرأ على حالة المريض. وأصبح رمزي وصديقه لوحدهما بين جدران بلاستيكية ثلاثة ورابع اصطفت على رفوفه الأجهزة الطبية.

ونظر رمزي إلى وجه حازم وقد بدا شاحباً بعينين مغمضتين، وشفتين مطبقتين جافتين. ولم يدرِ كيف يبدأ حديثه لصديقه، رغم وعيه بأنه كان في سباق مع الزمن. ووجد نفسه في موقف حرج للغاية... فمن أين يبدأ؟ ماذا يقول له؟ أيقول له هيا استيقظ يا حازم فإن الحياة ما زالت أمامك رحبة وهنالك الكثير بعد كي تعيشه؟ فكّر بهذا ولكنه لم ينطق به. وتفحص بعينيه من جديد وجه صاحبه فإذ بصورة هذا الوجه صبياً نضراً تحط على عقله كما يحط عصفور وديع على غصن دون غيره من الأغصان، ودون سابق إنذار. وإذ بأمواج الخليج تتردد وديعة، كعادتها هي أيضا، على أمتار قليلة منهما. هو وحازم ...هناك على الشاطئ ... والجو لطيف، والليل يملأ فضاء الأرض، والبحر لا تهتك ظلمته سوى أضواء المصابيح المصطفة عل جانبي شارع الخليج... أتذكر يا حازم؟... أتذكرها من أيام عشناها؟ وما كنا نشعر أنها كانت تتفلت من أيدينا خلسة تماماً كما يتفلت العمر رويداً رويداً، دون أن ننتبه إليه... أتذكر تلك الأيام والليالي العصيبة من شهر مايو من كل عام؟ عندما كنا ندخل معمعة الإمتحانات النهائية ... أتذكر دراستنا سوياً استعداداً لامتحانات التوجيهية، جلوساً تحت مصابيح شارع الخليج، شأننا شأن العشرات من أترابنا المتناثرين هنا وهناك على الشاطئ؟

وانتبه رمزي إلى نفسه متحدثا إلى صديقه، وانتبه إلى دموع تهمي على خديه فلم يأبه بها، ولم يحول نظره عن وجه حازم، متشبثًا بالعصفور الوديع وبالوجه النضر وبالشاطئ وأمواجه والليل البديع ... نعم ... وبمراهقين تحلقوا تحت الأضواء المُشَعشِعَة، بحجة استذكار دروسهم بين دفات كتب ودفاتر، بينما تسترق عيونهم الغضّة نظرات وجِله تجاه الليل البهيم، الجاثم على صفحة المياه، فلا يكادون يدركون له بعداً ولا عُمقًا، فيرتدّون بنظرهم جزعين صوب صحبٍ وكُتبْ، وبسمعهم إلى أصوات مناقشاتٍ كانت تدور قريبًا منهم، بل وإلى أغاني كانت تنبعث من حناجر الشباب من حولهم، مُرفقة بالصفقات الخليجية الحلوة. أتذكر يا حازم أغنيتك المفضلة آنذاك؟ «صوت السهارى»؟ وكيف كنت تغنيها لوقت طويل دون ملل ولا سأم، فما أن تسمع أحدهم يُطلقها من حولنا حتى تُطلق العنان لصوتك البديع، محاكيًا صاحب الأغنية، عوض دوخي، لتلمَّ علينا الساهرين من حولنا حالما يسمعون منك: «صوت السهارى يوم / طلوا عليّ/ عصرية العيد»... إلى أن تقول : « ياللي بقيت بعيد/ اليوم دا يوم عيد... عيدك وعيدي أنا »؟ هذه الأغنية التي كانت تثير دموعك في سنوات غربتنا الأولى، ثم لم أسمعك تغنيها بعد ذلك ... بل لم أسمعك تغني قط منذ سنوات طويلة. إيه يا حازم! لو أنك تفيق إليَّ وتنهض، لكانت لنا عندئذ رحلة جديدة لأرض الكويت، حيث جنّتنا المفقودة من حياتنا، والتي نكاد نلمسها بأصابعنا كلما عدنا إلى تلك المراتع. أتذكر تلك الحلقات السامرة؟ ... وما كان يدور بيننا فيها من نقاشات سياسية ووطنية لا أول لها ولا آخر ... ولكن دعنا من هذا، وتذكّر معي ما كنا نتجاذبه فيها من سيَر مغامراتٍ غرامية، ما كنا نعرف إليها سبيلاً على أرض الواقع، وحكايات عن بنات كنا نشاهدهن خلسة، وننسج عنهن في حلقاتنا من الحكايات ما لم يكن هناك من سبيل إلى حياكته حقًا.

وافتـرّت شفتي رمزي عن ابتسامة خالها باهتة، فوسّعها أكثر فأكثر، حتى كاد يقهقه والدموع عالقة على وجنتيه، لا هو يمسحها ولا هي تفارقهما، فكأنما استحالت جزءاً منهما. ونكّس رمزي رأسه والإبتسامة آخذة بالتقلص، وركز نظره على الأرض واستطرد يقول :

- أتعرف يا حازم... كأنني بنا الساعة هناك في سهراتنا تلك. المياهُ أمامنا، والشارع خلفنا، يأتينا منه ضجيج سيارات معربدة، تمرّ متسابقة بالإتجاهين، وعلى متنها شِللٌ من أترابنا الموسرين ممن كانوا يمارسون فنون «التشفيط» و «التشحيط»، بعربات جبارة، وقد علا صياحهم ولغطهم . يالها من أيام تلك يا حازم عندما كنا ننظر إلى تلك الشلل من زملائنا في الدراسة آسفين عليهم في ضياعهم وخيبتهم الدراسية، متصورين في سذاجتنا أن حياة الإنسان هي كمعادلة رياضية معطياتها ثابتة ونتائجها واحدة لا تتزعزع، ولم نكن ندرك بعدْ أن الحياة هي أبعد ما تكون عن واحد زائد واحد يساوي إثنان، وأن واحد زائد واحد هذه يمكن أن تتحول في رحم السنين إلى ما لا حصر له من نتائج لا علاقة لها باثنين.

وصمت رمزي برهة تفحص فيها مجدداً وجه صديقه، ينشدُ فيه بارقة أمل، مهما كانت ... ولو مجرد إيماءة خفيفة. ولكن الوجه المسجى كان ساكناً بشكل بث المزيد من القنوط في نفس رمزي. إلا أن الرجل استجمع قواه ورفض أي بادرة استسلام وعاد يتكلم موجهاً كلامه مباشرة إلى أذن حازم:

- أتذكر يا حازم كيف كنا نهرب من بيوتنا إلى شارع الخليج مثل غيرنا من مئات الطلاب ... منا من كان يهرب في تلك الليالي من لظى الحر في البيوت الأسمنتية، أو من الزحمة داخلها، أو لمجرد الإبتعاد عن رقابة الوالديْن... أو لمجرد الإنضمام إلى الأصحاب والأتراب في حلقات كان فيها من السمَر أكثر مما كان فيها من الدرس. كان كل منا يُعدُّ لمستقبله على طريقته، هناك على شارع الخليج...

وياليته ما كان من مستقبل! وياليتنا كان لنا حظ أولئك الأتراب، ممن لم يرمهم قدرهم خارج الوطن الكبير، فمكثوا فيه يعيشون حياتهم وذاتهم ... يترعرعون ويكبرون، ويفرحون ويعانون... يحبون ويخلّفون ويُرَبّون... ولكن دومـاً على أرض كيانهم وذاتهم ... غير مُجتَثة جذورهم، ولا هم مُقتَلَعون اقتلاعـاً ليُرمى بهم لأرض غريبة وعلى تربة مُناوئة، يجفّون فيها ويذبلون.

وصمتَ من جديد... دعك من تفتيح الجراح ... هذا لن يُجدي... بل اختر لحازم قصة من قصص زمان ... من عهد الصبا... قصة يحبها فتبعثه إذا سمعها من غيبوبته، وتردّه إلى نشاطه. نعم ... إن لديه من هذه القصص التي يحبها حازم ما يكفي لأيام كثيرة وبدون توقف. سأذكره بمدرسة حولّي المتوسطة ... بل بثانوية الدّعيّة، وصفوف الصباح فيها، وما كنا ننشده فيها من أناشيد وطنية كنا فيها نحيي الكويت ونمجّد فلسطين وأمة العرب من المشرق إلى المغرب ... ببَذّاتنا الرمادية وقمصاننا البيض ... وبمدرّسين وزملاء قادمين من أنحاء الوطن الكبير... سأذكِّره بزميلنا الكويتي يعقوب، ذلك الفنان الرسام منذ نعومة أظفاره، وكيف كان يستقبلنا كل صباح إذا ما دخلنا الفصل وعلى السبّورة عبارة كتبها بخط بديع تقول لنا جميعاً: «بترول العرب للغرب» وقد وضع علامة X على نقطة الغين. أتذكر يا حازم ثانويتنا التي كانت تفور وطنية عروبية، والتي تعلمنا في فصولها وساحاتها أن فلسطين تُفدى بالروح ويُبذلُ من أجلها الغالي والثمين؟ ولكن ... أعذرني .. أعود دائماً إلى تفتيح الجراح. ولكنها المواضيع التي تستحوذ على اهتمامنا كلما التقينا، دائما نحن بسيرة ثانويتنا وما كان يجري فيها آنذاك من مخاض ثورة، وبذور كفاح، كنا نعيشها بكل جوارحنا ... تلك الثورة العاصفة التي هزت الأرض تحت أرجل الغزاة، في الأرض المباركة، لربع قرن من الزمان، وانتهت باغتيال مدرِّسنا الحبيب عندما قال لا للإحتلال الذي كانت تنوء تحته الأرض الكويتية العزيزة التي ترَعرَنا فيها معه.

كان رمزي يتحدث إلى صديقه بصوت رخيم، هو أقرب ما يكون إلى الهمس، بينما كان يشعرُ أن كُرَةَ المرارة تكبر في حلقهِ وتشتد صلابة... وكان ما زال يقاوم الدمع الهامي، كلمة فكلمة، وكيف لا وهي حياته التي ذهبت حتى تلك اللحظة أدراج الرياح. وبعد لحظات من صمت استرد جأشه، وعاد يتحدث إلى صديقه، وشعورٌ قوي يخالجه بأنه كان يسمعه... وكيف لا يسمع هديرَ عُمرٍ مضى، حتى ولو كان غائباً عن الوعي ... فإن حياتنا الماضية تبقى حية دوماً، ولكنها لا تعيش في الوعي بل في الروح. واستطرد يقول :

- ما علينا الآن من هذا كله يا حازم ... فقد كان في الدعيّة أيضا صديقنا نادر... آه سأذَكِّركَ بنادِر... نادِر العَلي ... إبن حضرة الناظر. أتذكره؟ طبعا أنت تذكره، فأنت الذي تفتح سيرته دوماً بكثير من المرح. إنك تحبه كما أحبه. فقد كان زميلنا الأخف دماً وصاحب النكتة الحاضرة دوماً. أتذكر يوم أن أيقظهُ من نومه في الفصل معلِّم الإنجليزية؟... كأنّني أراه الآن أمامي ... كان نادر مستغرقاً في نومه أثناء الحصة، ملقياً برأسه على منضدته، فوقف المُعلم إلى جانبه ينظر إليه بازدراء، ويُجوّلُ النظر بيننا نحن الطلبة، كأنما ليجعلنا شهوداً على الجريمة التي كانت تُقتَرَفُ أمامنا في وضح النهار. أتذكر كيف قام المعلم بعد ذلك بهز كتفِ نادر، قائلاً له بلهجته المصرية: - «والله عال يا سي نادر، ما هــوَّ خلاص دي بقت لوكاندة الدعيّة مش ثانوية الدعيّة». ثم أتذكُر يا حازم كيف هــبّ نادر من مقعده لاعِناً شاتِماً إذ راعَتهُ يدُ المُعَلم وهي تهزهُ، وراح يُردِّدُ هو الآخر بلهجتِه المصرية:- «هُوَّ الواحد ما بيعرفش ينام في المدرسة دي ولّا إيه؟ دي حاجة تـقرفْ»، وكيف انفجر كل تلاميذ الفصل ضاحكين؟ وكم ضحكنا مع نادر بعد ذلك، وكم ضحكنا لوحدنا في الغربة بعد مرور السنين كلما تذكرنا وجه المعلم، إذ فاجأه فزَعُ نادِر وردُّهُ الساخر، وكيف تقلَّبَ وجهُ المعلم من لون إلى لون غضباً وحنقاً إذ سمع رد تلميذه النبيه، فحار فيه جوابا،

لاسيما وأن الأمر كان يتعلق بابن حضرة الناظر. ما بيوم تذكّرنا فيه تلك الواقعة حتى انفجرنا ضاحكين ومتسائلين عما خبأته الحياة والقدَر لصديقِنا نادر الذي لم نعُد نعرف عنه شيئاً منذ سنواتٍ طويلة.

وبُهتَ رمزي إذ رآى ما يشبه الإبتسامة وقد ارتسمت على شفتي حازم .َوسُرْعان ما زالت شكوكه إذ رسَمَتْ شفتيِّ المريضْ ابتسامةً واضحةِ المعالم لم يكُن فيها مجال للشك . وحملَقَ رمزي في وجه حازم ثم هتفَ باسمِه بقوة بنبراتٍ مختلفة بين سائل، أهذا حقيقي؟ وفَرِح بجنون بأن ما كان يراه كان حقيقيٌّ فِعلا. وإذْ بًصوتِ حازم يأتيهِ واهياً دون أن يَفتَحَ عَيْنيْه، ودونَ أن يُبدي أيّة حركة غير التي كانت تقوم بها شفتاه بضَعفْ:

– رمزي... أنت هنا ؟

فرد رمزي بلهفةٍ وفرحة:

– نعم! نعم! أنا معك.

وواصل حازم بصوتٍ واهي يكاد ألا يكون مسموعاً:

– رمزي، تابع حديثَك عن نادِر وعن الدّعِيّه.

ولم يتمالك رمزي سوى أن اقتحم الستارة بحثاً عن المُمَرِّضة المكلفة بحالة حازم، فإذ به بالدكتور أحمد والدكتور مارتينيث والممرضة وهم يتهامسون على بُعد أمتار قليلة من سرير حازم، وعلى وجوهِهم أشد علاماتِ التجهُّم. وتحوّلت نظراتُهم جميعاً إليه، فكاد أن ينقلِبَ على عقبيه اذ انقبَضَ صدرُه بشدة دون أن يُدرك شيئاً بعد... فعلامَ هذا التجهُّم وقد عاد حازم لرُشدِه وخرج من غيبوبته!؟ ومدّ الدكتور أحمد بيدِه تجاه رمزي إذ رآه يقترب، حتى أمسَك بيده بين مُصافِح وقابضٍ، وقد هَيمَن الصمت عليهم جميعاً. وسأل الدكتور مارتينيثَ الممرضة عن غرفة الإجتماعات فقالت له أنه لم يكن ثمة أحد فيها، فتوجّهوا إليها يسيرون بما يشبه التلكّؤ ورمزي

خلفهـم ويدُهُ في قـبضةِ الدكتور أحـمد، لا يُفلِتها، فكأنه كان يجـرُّهُ جَـرّاً صوب الغرفة المتاخمة لقاعة العناية المركزة.

وانطبق باب غرفة الإجتماعات عليهم، ودعاهم الدكتور مارتينيث للجلوس والتجهُّمُ يزدادُ تمكُّنا مِن وجهه، لكنّ وجهَ زميلـُهُ العربي كان أشـدَّ تجهما، بينما كان القلقُ يجتث أعصابَ رمزي اجتثاثـًا. وجال رمزي بنظره بين الطبيبيْن والممرضة، وانتبَهَ لأوّلِ مرة إلى برَاعة حُسنها وسِحر عينيْها، فكأنما كان يبحثُ عن مهربٍ من ذلك الطوق الذي وجد نفسه محبوسـًا فيه خلف الباب المغلَق، ثم تمتم يقول وهو يتفحّصُ عيون الآخرين بـوَجَلْ:

- حازم استيقظ. كلّمتـُه حتَى استيقـظ، وكلـَّمَـني.

ورد عليه الدكتور مارتينيث قائلاً والتجهم لا يُفارق محياه:

- أدّيتَ المهمة على أحسن ما يكون، ولعلك أنقذتَ حياة صديقك.

وأشار الطبيب إلى الممرضة مستمراً في حديثه لرمزي :

- زميلتنا كارمن قد أخبرتنا بكل شيء. لقد كانت تراقب المريض معك دون أن تراها ولقد روت لنا ما عانيتـَه أنت بنفسك في أداء هـذه المُهمة.

واستمع رمزي للطبيب بصمت وانتظار، إذ كان يشعُرُ أن كلامـًا خطيراً سيتـدفـّقُ بين لحظة وأخرى من فم مارتينيث. وتملكته حيرة رهـيبة فماذا عساهم يخبِّؤون له، ولماذا لا يُسرّون باسترداد حازم لوعيه وهم الذين كانوا قبل قليل يبُدون غاية الإهتمام بالوصول إلى هـذه النتيجة وإنقاذ صـديقه!! ولـم ينتبه رمزي في تلاطم أفكاره إلى ما كان يقوله الدكتور مارتينيث، إلى أن وجَدهُ يمدُّ يده عـبر الطاولة المستديرة ويضعها فوق يده ويهـزُّها برفق وهو يقول :

- سنيور رمزي. أراك غائبـًا عَنـا... انتـبِه إليـنا أرجوك، فإنني أقـدِّرُ ما يجري في خـُلدِك ويثير قلقك وأصارحك أن المسألة في غاية

الخطورة ولا ندري من أين نبدأ بشرحِها لك، فإننا بقدَر ما نخشى على صحة صديقك نخشى أيضاً عليك، ولكننا على يقين من أنك ستكون من الصلابة بقدر ما يستدعيه الموقف.

وشعر رمزي اذ سمع العبارة الأخيرة وقد هوى قلبُه وجفَّ حلقُه وزاغ بصرُه، فحرّكَ لسانه بصعوبة يريد أن يتمتم بأي شيء، متلفتاً إلى الطبيبيْن بعينيْن مستغيثتيْن، فجاءَهُ صوتُ الدكتور أحمد مردداً بالعربية:

- إنها لكارثة يا رجُل ... إنها لكارثة!!

وانطلق صوت رمزي من محبسِه مردداً بالإسبانية:

- ماذا ؟ أية كارثة تعني ؟

وهنا سحب الدكتور مارتينيث يده مطلقاً يد رمزي وهو يقول بأسى:

- إنها زوجةُ صديقك. الأمر يتعلقُ بها.

- ما الذي حصل؟

- وقع لها حادثٌ في الطريق السريعة.

- ماذا؟

- زوجة حازم وقع لها حادث خطير أثناء قيادتها لسيارتها قادمة إلى مدريد.

وتلعثم رمزي وهو يسأل مارتينيث ثم ينظر لأحمد، كمن يستنجد:

- وأين هي؟ أهي هنا في المستشفى؟

- لقد فارقت الحياة.

وما أن سمع رمزي الخبر حتى هبَّ من مقعده وأخذ يدور حول نفسِه كالطير الذبيح، مُردِّداً بصوت كالفحيح خالطا العربية بالإسبانية:

- يا إلهي! إنها حقا لكارثة! أماليا ماتت!؟ غير معقول! إنه يحبُّها بجنون. غير معقول!

ثم انتبه إلى نفسه، وإلى الطبيبين والممرضة، فصمت وعاد إلى مقعده. ومرت لحظات صمْت قبل أن يتمكن من النطق بلسان سليم فيقول:

- وأخوها؟ كانت قادمة إلى مدريد مع أخيها. هل حصل له شيء هو الآخر؟

ورد أحمد يقول :

- إنه بخير. لقد نجا من الموت بمعجزة. مجرد جراح طفيفة.

وراح رمزي يضرب الكف بالكف وهو لا يخرج من ذهوله من شدة وقع خبر أماليا عليه، مردداً بصوت خفيض، بالعربية:

- لاحول ولا قوة إلا بالله.

وجاءه صوت مارتينيث من جديد ليقول له برفق ورجاء:

- سنيور رمزي. عليك أن تساعدنا وتساعد صديقك من جديد. يجب علينا أن نخفي عنه هذا الخبر لأطول مدة ممكنة، فهو في حالة صحية حرجة لا تدع مجالاً لتحمل خبر من هذا القبيل.

- وهز رمزي رأسه موافقـًا، والدمع يترقرق في عينيه، ثم تمتم:

- سأفعل المستحيل حتى لا يلاحظ شيئـًا، وإن سألني عن زوجته فسأقول له أننا لم نخبرها بالحادث الذي وقع له.

وردد مارتينيث بارتياح، اذ رآى كيف استرد رمزي في لحظات رباطة جأشه:

- عظيم. فكرة ممتازة. ونحن سنفعل نفس الشيء، وسنمنع قيام أحد بزيارته، باستثنائك وصديقكما بسام، الذي حدثني عنه الدكتور أحمد.

وانفض الإجتماع، وطلب رمزي من الدكتور أحمد أن يحل بسام مكانه إلى جانب سرير حازم، ريثما يسترد هو أنفاسه وتهدأ أعصابه.

وغادر قاعة العناية المركزة، وتخلص من الثوب المعقم، وهرع باحثاً عن بسام فوجده بانتظاره وكله تجهم ووجوم، فصافحه متسائلاً:

- هل أخبروك بالمصيبة؟

- نعم . مسكين حازم. يا له من يوم مشؤوم.

وبينما اتجه بسام إلى غرفة العناية المركزة، سار رمزي ينشدُ بوابة المستشفى، ومنها إلى الساحة الخارجية حيث كان ينتظره الهواء الطلق وقد توارت الشمس خلف المباني القريبة وهبطت أولى جحافل الظلام على المدينة. وأطلق رمزي ساقيه مسرعاً لا يدري إلى أين... ولعله كان قد تاق إلى أحضان المدينة، لتمسح عنه بعض همومه، واستحضر في ذهنه أحداث يومه الأليم وما دار فيه من جدل بينه وبين بسام حول مدريدُهُ هذه، التي خالها في تلك اللحظات وقد أشاحت بوجهها عنه غاضبة ومؤنبة. ووجد نفسه يرفع ياقة معطفه، ويغرز عنقه بين كتفيه اتقاءاً من البرد، داساً يداه في جيبيّ المعطف، ومستنشقاً بقوة ليملأ صدره من هواء مارس، بينما كان يرفع عينيه إلى السماء التي كان لونها الأزرق الداكن قد بدأ يلفظ أنفاسه الأخيرة بين جنبات ظلام أسود كأنه الفناء بعينه.

وارتد بصر رمزي إلى أضواء المدينة وحركتها، مردداً بقوة وعزم وتفاؤل، كأنه كان يرمي بها في وجه الظلام، وهو مدرك أنه منتهٍ لا محالة إلى نهار جديد:

- لقد آن وقت الرحيل يا حازم. لكم أجلناه المرة تلو المرة. هناك بين ظهراني قومنا سنسترد بعضاً من ذاتنا المفقودة، وسنبحثُ عن جذورنا التي ما زالت ضاربة في الأرض، ولعله يُقدّر لنا أن نعيش ما تبقى لنا من العمر وسط الحياة، كما اعتدنا أن نفعل في الدعيّة، ونكف عن العيش على الهامش، كما قُدّر لنا في هذا البلد. نعم يا حازم ... سنعود بنفس مثخنة بالجراح، لاسيما أنت يا صديقي إذ فقدت رفيقة عمرك. ولكننا هنالك ... على الجانب

الآخر من المضيق ... شرقـًا كان أم غربـًا ... سنسترد أنفسنا ونعـيدُ أمور حـياتنا إلى نصابها، قبل أن يصل بنا قطار العـمر إلى المحطة الأخيرة.

مدريد – يونيو 2000

(1) بالإسبانية: **Sí...Diga**: نعم. تكلّم.

ألفَخ

قصة

كان مراد جالسا في مقهى، قرب ملتقى شارع مايور بميدان سول، يحتسي قهوته على مهل في الطابق العلوي، مشرفاً عبر النافذة على الحياة وأناسها ومتأملاً سماءاً زرقاء وشمساً ساطعة ولكن وجلَه. كان الرجل من مجلسه المريح ذاك يجوّلُ نظره بين المارة من كل َسن وعرق من أهل مدريد ومن الوافدين إليها من كل حدب وصوب من أصقاع إسبانيا والعالم، وقد تدثَّر معظمهم بالمعاطف والملابس الشتوية رغم تقدم العمر بشهر أبريل، فالناسُ لا يَأمنون الشمسَ في هذا الشهر مهما سطعت، ومهما حاولت طمأنتهم، لأنها كثيراً ما تحتجب في هذا الشهر في ظرف لحظات مخلفةً وراءها غيوماً وأمطاراً، أولربما برداً بل وزمهريراً.

من نافذة المقهى كان مراد يشرف أيضاً على ملتقى شارعيّ مايور وإيسبارتيرو والطريق الواسعة المؤدية إلى المدخل الرئيسي لميدان (بلاثا مايور) التاريخي القريب.

كان تارة سارحا بأفكاره في تلك الساعة من الظهيرة، وتارة أخرى متابعاً بنظره بعض المارة... متفكراً بأحوالهم أو بالعِرق الذي ينتمون إليه، بل ومخمِّنا سعادتهم أو تعاستهم. وتأمل ملياً رجلاً وامرأة متقدميْن في السن والوزن وقد جلسا في أول الطريق المؤدية إلى بلاثا مايور، وغطيا كامل جسديهما ووجهَيْهما بالطين، أو ما أشبه، ومكثا متسمِّريْن في مكانهما لا يرفّ لهما جفن كأنما كل منهما تمثال من الآجُرْ، في وسيلة مبتكرة ومتجددة لمهنة الشحاذة الضاربة بجذورها عبر التاريخ. وكان ما لفت نظره إليهما جمهرة من الناس، وقد تحلقت حولهما، وأمسك بعضهم بيد أطفال لشدما أدهشهم منظر التمثالين

الآدميين اللذين كانا كلما ألقى لهما أحدهم بقطعة نقدية أو أكثر أنجزا فجأة وللحظات حركات مبرمجة ومتكررة بأيديهما ووجهيهما ثم عادا إلى التسمُّر من جديد كما كانا من قبل، مما كان يبعث الجذل والعجب بين الجمهرة حولهما لاسيما الأطفال، ولله في عباده شؤون، أو كما يقول المثل الإسباني «لكل أمرٍ أناسه».

وفجأه لمحَهُ وسط تلك الجَمهرة من الناس المتحلقين حول الشحاذيْن. وتأمّله ملياً. وفرك مراد عيْنيْه ونظف نظارته بعناية وعاد يحملق في ذلك الوجه دون باقي الوجوه، حتى لم يتبقى لديه من شك. وقرعت في رأسه كافة أجراس الإنذار... إنه هو بلحمه وشحمه! إنه آريل بن إيليعازار، ما في ذلك شك. إذن لقد صدقت التحذيرات التي تلقاها في الأيام الأخيرة من زميليْه، عبد الله وجورج.

وشاهد مراد في اللحظات التالية كيف انسلّ ذلك الرجل من وسط تلك المجموعة ومشى مجتازا شارع إيسبارتيرو ثم شارع مايور حتى أصبح تحت نافذته تماما، وهي اللحظة التي قطع بها الشك باليقين، إذ لم يساوره أدنى شك بأنه قاتلهُ للتوّ. وتحسّس مسدسه تحت إبطه بينما كان يثب من مكانه ليقف على باب المقهى بلمح البصر. وتلفت يساره فألفاه سائراً مطرق الرأس، بصلعته المعهودة، ورأسه المستطيله، وكهولته المتقدمة.

خمس سنوات مرت مذ التقاه آخر مرة... في تلك المرة كانا في روما، وقد فرّ الأصلع منه كما يفر الزئبق من بين أصابع اليد... فرّ منه ومن حتفه...لكنه الآن أصبح في يده وتحت رحمته كما لم تتح له مثلها فرصة ... فأنّى يخطر لهذا الإسرائيلي ببال أن مراد، غريمه القديم واللدود، يسير خلفه ويدوس خُطاه... يكاد يلمسه بيده، متحيّنا اللحظة الملائمة لإزهاق نفسه النجسة... خمس سنوات لكم تحرّق فيها شوقاً لمعرفة الطريق إليه... ولكم تقفى أثره في بيروت والقاهرة وباريس وأمستردام... لكن الظروف والحظ لم يسعفاه، ولا استطاع أن

يساعده أحد في المنظمات الفدائية الفلسطينية، ولا بين أفراد مخابرات عربية أخرى تربطه بهم صداقة قوية...وهكذا... ومنذ أن فرّ منه في روما لم يعد يعرف عن هذا الإسرائيلي شيئاً على الإطلاق.

وصحيح أن مراد أصبح منذ ثلاث سنوات تاجراً ومدنياً لا علاقة رسمية له بأي جهاز فدائي أو استخباراتي فلسطيني أو عربي... إلا أنه كان يعتبر أن تصفية الوغد آريل هي مهمة يتعين عليه إنجازها بعدما فشل في تنفيذها قبل سنوات، حتى ولو كلفته هذه المهمة حياته، فإن يدي هذا الإسرائيلي ملطخة بدماء الكثيرين من المدنيين الفلسطينيين العزل وغيرهم من العرب، بما فيهم أطفال ونساء، بل وبما فيهم عدد من زملاء مراد وأصدقائه المقربين... نعم إنه آريل بن إيليعازار، الذي عمل طيلة سنوات طياراً في سلاح الجو الإسرائيلي ثم أصبح ضابطاً في فرقة للعمليات الخاصة في الجيش قامت بتنفيذ الكثير من الإغتيالات والمذابح في صفوف الشعبيْن، الفلسطيني واللبناني.

وتذكر مراد أن آريل هذا لطالما تفاخر بقصفه للمخيمات والقرى والمدن الفلسطينية واللبنانية، وبمشاركته في حرب يونيو1967 عندما قام بنفسه بإطلاق الرصاص على أسرى من الجيش المصري. نعم لقد روى بن إيليعازر بنفسه لمُراد، وبالتفصيل، ارتكابه تلك الجرائم الفظيعه، متباهياً بها، عندما كان الضابط الفلسطيني أسيراً في يد مجموعة بن إيليعازار، في بوينوس آيريس، قبل ثماني سنوات، عندما كان يرزح تحت التعذيب في قبو السفارة الإسرائيلية هناك. آنذاك تعرض مراد طيلة أكثر من شهر لأصناف التعذيب. وعندما قرر مختطفوه قتله والتخلص منه، رأوا أن ينفذوا الجريمة خارج السفارة، فنقلوه في سيارة دبلوماسية تابعة لسفارتهم، مكشوف العينين ولكن تحت تهديد مسدسين كانا يضغطان خاصرتيه. وكما أفلت آريل من قبضة مراد بعد ذلك بثلاث سنوات، كان مراد قد أفلت منه في بوينوس آيريس بمساعدة فدائيّيْن فلسطينيّيْن وضابط من المخابرات

الأرجنتينيه كان على علم باختطافه واحتجازه في السفارة الإسرائيلية. لكن إفلات مراد من مختطفيه لم يتسم بالهدوء الذي أحاط بفرار الإسرائيلي من الفلسطيني فيما بعد في روما، ففي عملية تحريرمراد قُتل سائق السيارة الإسرائيلية وضابطيّ الموساد اللذان كُلفا بقتله، إذ شن الفدائيان الفلسطينيان هجومهما المُباغت عندما كان الإسرائيليان يستعدان لإطلاق الرصاص على ضحيتهما في أحد الأحراش القريبة من المدينة. وساعد ضابط المخابرات الأرجنتيني مراد ورفيقيْه الفلسطينيين على الفرار من البلاد.

ومنذ ذلك اليوم علم كل من آريل ومراد أن كل منهما إما قاتل غريمه وإما قتيله، فقد أصبح الضابط الفلسطيني يعرف تفاصيل حياة الإسرائيلي وجرائمه، إذ رواها له بكثير من القذارة والفخر بينما كان يضعه تحت التعذيب، موقناً بأن مراد لا بد من عداد الأموات. وبالطبع فقد قام مراد بتزويد مسؤوليه بتلك التفاصيل بحذافيرها.

واجتاز الإسرائيلي ساحة سول متجهاً وسط الزحام إلى شارع بريثيادوس المخصص للمارة. وتساءل مراد بينما كان ينهي مكالمة هاتفية: أتراه حقا قد جاء إلى مدريد يتعقبني!! وتسارعت أنفاس مراد ونبضات قلبه وهو يتقدم في أفكاره... إذن لا بد وأن الإسرائيلي قد علم بطريقة ما أنني مقيم في مدريد. وسطعت في عقله هذه الحقيقة سطوعاً لم يدع مجالاً للشك... إذن لا شك في أنه جاء إلى مدريد ليصفي حسابه معي... ولكنني أنا الذي سأصفي حسابي الطويل معه. وضغط مراد فكّيه الواحد ضد الآخر، بينما كان حريصاً على ألا يغيب آريل عن نظره وسط الزحام.

وبعد تفكير قرر الفلسطيني أن يتروى لحين وقوفه على تحركات عدوه وعلى هوية عملائه في مدريد...إذن يتعيّن عليّ أن أتمهل... ولكن ما فائدة التمهل إذا نجم عنه إفلات الإسرائيلي من يدي من جديد!!... كلا... سأقتله الساعة... هنا... عرض الشارع... وسط

هذا الزحام من المارة والمتسكعين أو المتحلقين هنا وهناك حول فرق موسيقية تشكلت عشوائيا من مهاجرين قادمين من أمريكا اللاتينية، أو حول عازف ربابة صيني منفرد. وسط هذا الزحام يسهل الضرب والهرب والإختفاء.

كان مراد غارقًا في أفكاره هذه، متنقلاً بين الإصرار على قتل الإسرائيلي حال أن تحين له الفرصة أوالتمهل ريثما يتم التعرف على هوية أعوانه في مدريد. كان يمشي خلف فريسته عبر شارع بريثيادوس، المحرّم على السيارات، دون أن يرفع عنه عينيه، ودون أن يبدو على هذا الأخير أية علامة انتباه أو تيقّظ. وإذ بعربة شرطة تسير وسط الزحام تشق طريقها بين الناس على مهل، وعلى متنها اثنان من رجال الأمن. وتنبه مراد إلى أن الشرطي الجالس جانب زميله السائق كان يتفرس به باهتمام شديد بينما كان يتكلم عبر جهاز لاسلكي دون أن يحول نظره عنه. وما هي إلا ثوان معدودة حتى كانت عربتا شرطة أخريان تقفان بمحاذاته وخلفه، بينما وقفت العربة الأولى أمامه ونزل منها رجلا الشرطة، وناداه أحدهما بصوت عال:

- سينيور. من فضلك.

وتوقف مراد عن المشي ناظراً للشرطي ومتلفتًا باتجاه غريمه الإسرائيلي الذي كان يواصل سيره على مهل بين الناس. ووجه مراد للشرطي المتقدم نحوه نظرة ثابته وهادئة لا يشوبها أي ارتباك، تمامًا كما اعتاد طيلة ثلاثين عاما قضاها في العمل الفدائي والاستخبارات. وما أن وقف الشرطي أمامه حتى انتبه مراد إلى وجود الشرطي الآخر على يمينه. وبينما كان يتلفت باحثا بعينيه عن بن ايليعازار سمع الشرطي الواقف أمامه يقول له بأدب جم:

- سينيور. أتسمح لي بهويتك الشخصية؟

فقال له مراد بكل ثقة وهدوء، وقد تيقن من أنه فقد أثر طريده، ومن مراقبة الشرطة له من العربتين الأخريين الواقفتين على مقربة منه:

- بالطبع.

وسحب الفلسطيني محفظة صغيره من الجيب الخلفي لسرواله وفتحها وأخرج منها هويته وقدّمها للشرطي الذي تمعّن فيها وتفرّس بوجه مراد للحظات، قام بعدها بإعادة الهوية إلى صاحبها رافعاً يده اليمنى بمحاذاة صدغه، مُحيياً، كعادة الشرطة الإسبانية في مثل هذا الموقف، علامة احترام للمواطنين.

وبنبرة احترام واعتذار قال الشرطي لمراد:

- شكراً سينيور. أعتذر عن المضايقة.

وانفض الشرطيان من جانب مراد عائدين إلى عربتهما، بينما توارت عربتا الشرطة الأخريان عن الأنظار.

وتابع مراد سيره مستغرباً أيما استغراب، إذ لم يسبق للشرطة أن استوقفته أو أبدت أي اهتمام به منذ أن إختار مدريد للإقامة فيها. وهرول باحثاً عن الإسرائيلي الذي عاد إلى الإفلات منه، فكأن رجال الشرطة أولئك كانوا في خدمة طريده، فما استوقفوه إلا ليسمحوا للآخر بالفرار.

وأسقط في يده وهو يتفرس في وجوه المارة وفي ظهورهم ورؤوسهم. أين أنت يا آريل بن إيليعازار؟ أين أنت أيها المجرم؟ لن أدعك تفلت مني هذه المرة... سأخرجك من وسط الزحام كما تستخرج الإبره من كوم القش. ووقعت عيناه عليه من جديد، فهرول حتى أصبح على مسافة مترين منه، فإذ برجلين عملاقين يعترضان طريقه ويسدّانها عليه. وحاول أن يواصل طريقه ويتملص منهما ولكن دونما فائدة، حتى صارا يسدان عليه الطريق بكل وقاحة وتحدي. وسأله أضخمهما جثة وأكثرهما قبحا، بنبرة فظة مشحونة بالاحتقار، وباللغة الإسبانية:

- هل أنت السنيور مراد الطوباسي؟

ولم يتمكن مراد من إخفاء دهشته إزاء ذلك السؤال، فمن أين كان ذلك الرجل يعرف اسمه!! لكنه رد عليه مراد بفظاظة أشد، بينما كان يحاول بنظره ألا يفقد طريده:

- ومن تكون أنت؟ لو أن عندك شيئا من الأدب لعرّفتني بنفسك أولا قبل أن تسألني عن اسمي.

ورد عليه صاحب الجثة العظيمة قائلاً له بنبرة أشد قحة من ذي قبل:

- لا شأن لك بهويتي. هل أنت مراد الطوباسي أم لا؟ أجب ونتركك وشأنك.

- كلا. لست من تقول. والآن دعني أواصل طريقي.

فأمسك العملاق الفظ بكتف مراد وأخذ يهزّه قائلا:

- أعطني هويتك؟

وإذ بمراد يفاجأه بمناورة تاكوندوعنيفة، وخاطفة، تلقى فيها العملاق ضربات متتالية هوى بعدها أرضاً، مرتطماً وجهه ببلاط الشارع والدم ينزف من أنفه وفمه.

وتسمّر العملاق الثاني في مكانه لهول المفاجأة، ولم ينتبه إلا وقدَمُ مراد تُسدد لوجهه ضربة شديدة القوة، فانقلب على ظهره فوراً، في اللحظة التي انسل فيها مراد من بين جمع المتجمهرين حول العملاقين المطروحين أرضاً، متوارياً عن الأنظار، بينما كان يسمع صفارات عربات الشرطة التي كانت تهرع إلى المكان.

وللمرة الثالثة عثرَ مراد على آريل غير بعيد من مكان معركته مع الرجلين، مما أثار استغرابه، ولكنه عزى ذلك إلى أن الرجل لم يكن قد انتبه مطلقاً لتعقبه له، فكان يتسكع على مهل.... ولكن هل من الممكن أن يكون بن إيليعازار قد أصبح ساذجاً لهذه الدرجة !! ...لا... إن في الأمر لُغزاً... لا يمكن أن يسير رجل مثل هذا المجرم

بين الناس بمثل هذه الحالة من الإطمئنان. وتلفت مراد خلفهُ ويُمنة ويُسرة، باحثًا عن ثمة من يتعقبه هو... فلم يلحظ أحداً يبعث الشك في نفسه. ورغم ذلك فقد أصبح من المفروغ منه، بعد أن تعرضت له الشرطة ثم العملاقان، أن هناك ثمة من يعرف بتعقبه للإسرائيلي ... ولكن ترى من يكون هذا الذي يرصد حركته!! وقرر اتخاذ أقصى درجات الحيطة.

ودلف بن إيليعازار إلى محل إيل كورتيه إنجليس من بابه الرئيسي، في ساحة كايَاو، عند نهاية شارع بريثيادوس، وتوجه يمينًا حتى بلغ المصاعد، فوقف مراد غير بعيد يتظاهر بتفحص بعض قوارير العطور، حتى استقل بن إيليعازار المصعد فهرول مراد يراقب أرقام الطوابق التي كان المصعد يجتازها، فقد كان الإسرائيلي قد صعد بمفرده. ولم يتوقف المصعد حتى الطابق الأخير، فصعد مراد بدوره إلى هناك، وتجول في المتجر بينما كان يتحدث عبر هاتفه المحمول، فلم يعثر هناك على غريمه، فتوجه إلى المقهى المترامي الأطراف، والذي يتميز بشرفته المتسعة، المطلة على ميدان كايّاو، والتي تصطف فيها الطاولات التي يرتادها الزبائن الراغبين في الإطلال من عُلي، عبر زجاج النوافذ الكبيرة، على تلك الساحة المخصصة للمشاة، وعلى شارع غرانبيّا المتاخم لها، وهو العصب التجاري للمدينة.

وفعلاً عثر على آريل هناك. كان قد اتخذ له مقعداً في الشرفة يرقب منه مدخل المقهى. والتقت نظراتهما. وتعمّدَ الإسرائيلي النظر مليـًا إلى مراد، كأنه كان ينتظره، ولم يتفادى مراد تلك النظرات فتوقف لبرهة ينظر إليه، وآريل يبتسم له وقد نهض واقفـًا ومرحبـًا، فتقدم مراد نحوه وكأنهما كانا على موعد، بينما كان الإسرائيلي يهشُ له ويبش. كان مراد مطمئنـًا إلى أن غريمه لن يطلق النار عليه هناك وسط ذلك المقهى، الذي كان يعجّ بروّاده، لاسيما وأن ثمة كاميرات منتشرة هناك، وفي كافة أرجاء المحل التجاري، ترقب وتسجل كل ما يحدث حولها.

وتمتم آريل وكلماته تـشقُّ طريقها عـبر ابتسامته العـريضة الزائفه:

- تـفـضل يا مراد. إجلس. دعـنا نتحـدث.

فـتمتم مراد بدوره، وعـيناه مثبتتان بعـينيْ غـريمه، ببرود وهـدوء:

- كأنما كنت بانتظاري... إذن فـقـد صدق تخـميني، وكنتَ تعـلمُ أنني كـنتُ أتعـقـبك... حسنـًا... سأجلس ... دعـنا نرى.

وجلس الرجلان وبقـيا صامتيْن لوهـله، يتبادلان نظرات ببرود الصقـيع، فـيها إزدراء متبادل، حتى افـترّت شفـتا الإسرائيلي عن كلمة واحدة:

- مُراد.

وتابع مراد النظر في عينيّ آريل قـبل أن يردّ عـليه بفـتور شـديـد:

- نعـم يا آريل بن إيليعازار.

- ماذا تشرب؟

- لا شيء .

فبدت على شفـتيّ آريل ابتسامة جديدة، ولكـنها كانت واهـية هـذه المرة، بينما كان يقول:

- أنا أدعـوك لـتناول عـصير برتقال. ما رأيك؟

- قلت لك لا شئ. هـيا تكلم. ماذا تريد؟

وتلفت آريل حوله والإبتسامة الصفـراء لا تفارق شفـتيه، قائلاً له بصوت خـفـيـض:

- يا رجل، لا يليق بشخص مثلك أن يدخل مقـهى ويجلس إلى إحدى موائده ثم لا يطلب شيئا يتناوله، وعلى حد عِـلمي فأنت تعـرف الأصول.

قال جـملته الأخير هذه بشيء من التهكم، بينما كان ينادي النادل ويطلب منه كوبين من عـصير البرتقال. وحال انصراف النادل بادر

الإسرائيلي مراد قائلاً بغتة:

- ما نوع المسدس الذي تحت إبطك الأيسر؟

فوجه إليه مراد نظرة لم تفقد من برودتها شيئًا، وبادله التهكم قائلا:

- بل ما نوع المسدس الصغير الذي تحمله أنت في جيب جاكيتك الأيسر؟

فأجابه آريل ضاحكا بصوت عال:

- لم أعد أحمله في جيبي الأيسر، وما دمت في إسبانيا فإنني أحمل مسدس أسترا 9 ملم بارابيلوم، هدية ممتازة من أحد أصدقائنا في الإستخبارات الإسبانية.

- لو عرفوا كم تحقدون عليهم، وتتمنون دمارهم اليوم قبل الغد، لما كان لكم بينهم صديق واحد، ولكنهم لا يعرفون.

وقهقه آريل إزاء كلمات مراد، وارتكز على كوعيه ضامّا يديه أمام فمه، هامسًا وقد تجهم وجهه:

- أما أنت فتحمل مسدس كراكال كومباكت 9 ملم، إذ أنك وفيٌّ لعروبتك فلا تحمل إلا سلاحًا مصنوعًا في بلد عربي، كالإمارات مثلاً. لكنه مسدس ممتاز.

قال كلمته الأخيرة هذه كمن يلقي بقنبلة، ثم دفع بجذعه إلى الخلف مقهقهًا من جديد، دون أن يحول نظره عن عينيّ غريمه، مستشفًّا أثَر كلماته تلك فيه.

لكن مراد ظل على هدوءه وبرودته المعتادين، مثبتًا عينيه في عيني غريمه. ولاحت له يدا آريل والدماء الفلسطينية والعربية تسيل منهما.

وجاء النادل بعصير البرتقال، ووضع الكوبين على الطاولة أمامهما وانصرف.

مط الإسرائيلي ذراعيه - بينما كان يسترد ابتسامته الصفراء- مشيرا بيديه نحو الكوبين، بينما كان يدفع بجذعه ورأسه إلى الخلف قائلاً:

- عصير برتقال إسباني فاخر، لكنه لا يقارن بالبرتقال الإسرائيلي.

وظل مراد صامتـاً يوجه إليه نظرة من جليد.

- حسنـاً، كنت أحسبك ستقـول أن الأمر يتعلق ببرتقال فـلسطيني وليس إسرائيليـاً، الظاهـر

أنك لـم تعـد وطنيـاً كما كنت. لقد قـلت لك مثل هذا الكلام عـندما كنت ضيفـاً علينا في سفارتنا في بوينوس آيريس، فـلم تـتمالك نـفسك آنذاك صارخـاً بي أنه برتقال فـلسطيني وليس إسرائيليـاً.

كان مراد لا يستمع إليه بالمرة، فـقـد كان غارقـاً في أفكاره، يحاول تخمـين كـيف عرف آريل نوع المسدس الذي كان يحمله. وشعـر أن في الأمر قـصة كبيرة، وأن الأمور لـم تكـن تجري بالضـبط حسب ما كان يراه هـو.

وانتبه لآريل وهو يرفع كـوب البرتقال قائلاً بتهكم إزداد أضعـافـاً هذه المرة:

- بصحة صديقـنا الإسباني المُشتـرَك ميغـيل سانـتا ماريا.

وأعاد الكوب إلى مكانه دون أن يتـناول ولا حتى رشفة واحدة منه، بينما كان وجهه يتجهم، في الوقـت الذي كان فيه مراد في صراع مع نفسه كيما يحافظ على هدوئه وبرودة أعـصابه. ثم تمتم قائلا:

- إذن هـو ميغـيل!

- نعم. هو ميغـيل الذي كـنتَ تـظـنه صديقـك المخلص. لقد اشتريت أنت منه المسدس سراً، ودونما حاجة لترخيص. ودفعـتَ له ألف يورو زيادة عن ثمن السلاح، ظنـاً منك أنك كنتَ تشتري صمته. أي سلاح كنت تستعـمل في مدريد قبل توجهك لميغـيل؟ فقـد قال لي أنه مضى عـليك ثلاث سنوات في هذه المدينة. لطالما بحـثـنا عـنك يا رجل. أنت تعـرف كـم نحبك.

قال كلماته الأخيرة هـذه مقهقهـاً من جديد.

وفهم مراد كل شئ مرة واحدة، لكنه لم ينبس ببنت شفة، وظل محافظاً على هدوئه، بل ورسم ابتسامة صفراء على شفتيه دون أن يحول نظره ولا لثانية واحدة عن آريل. إذن فهذا الوغد الجالس أمامي إنما جاء إلى مدريد متعقباً خطاي، بعد أن أبلغه الإسباني بوجودي هنا حال أن باعني المسدس قبل شهر. وماله يبدو وكأن زمام الموقف كله في يديه؟! إنه ليبدو في أوج سروره... هذا المجرم السفاح لن يفلت هذه المرة.

واختلس مراد نظرات ذات اليمين واليسار وقد بدأ يشعر بما هو قادم. وتخلى الإسرائيلي فجأة عن ابتسامته التهكمية واسترد تجهمه، وقال بنبرة جعلها عدوانية لأول مرة منذ أن جلسا إلى الطاولة:

- مابك؟ هِيهْ! مابك؟ إنك لم تقل شيئاً منذ أن جلسنا. أنا أعرف وجهك كما تعرف وجهي، ولا ينطلي علي الهدوء الذي تبديه، فإن ما قلته لك قد وقع عليك وقوع الصاعقة، ولكن ها هو أنت... البطل الفلسطيني يتظاهر بأنه غير مهتم ولا مغتم. هَهْ هَهْ، ثم هَهْ هَهْ. هل تراني؟ إنني أضحك. سنرى كيف ستبكي أنت بعد قليل.

كان آريل يتكلم والشرر يتطاير من عينيه غيظاً وهو يرى هدوء مراد وعدم اكتراثه به.

وببرود جم رد عليه مراد:

- لا يفاجئني شيء منك... من تفاجئه الرائحة النتنة للأوساخ؟
- العرب، أنتم دائما فلاسفه... تتفلسفون كثيراً، ولكننا نحن الإسرائيليون ندق أعناقكم دوماً بعد أن نترككم تتفلسفون.

وهز مراد رأسه مصغراً عينيه، بينما كان يرمق آريل بنظرات نارية قائلاً له:

- هل ستدق عنقي يا آريل؟ سنرى مَن سيدق عنق مَن اليوم. نحن العرب نتفلسف كما تقول، لكن الحق معنا طيلة الوقت، فأنتم

الأغراب الذين جئتم إلى بلادنا غزاةً ولصوصاً، وأنتم من تقتّلوننا طيلة الوقت، فكل منا يفعل ما يُتقن، فأنتم لا تتقنون إلا القتل، لأنكم مجرمون في الأصل، وسفك الدماء يجري في عروقكم لا محالة.

ولزم كلاهما الصمت لبرهة، ورشف آريل من كوبه، بينما كان مراد يسترد نظرته الصقيعية التي كانت تفعل فعلها في أعصاب الإسرائيلي، رغم ما كان يبدو عليه من هدوء، لاسيما وأنه كان يعتقد أنه يملك زمام الموقف تماماً.

وتكلم مراد من جديد:

- إسمع أيها الوغد. لم أنس يوماً جرائمك ضد الأبرياء من الفلسطينيين، وضد الكثيرين من العرب، مصريين ولبنانيين وسوريين وغيرهم. أنت بنفسك سردتها على مسمعي بينما كنت تشارك في تعذيبي. لم أنس قط تعذيبك لي أيها الوغد. واليوم سيموت أحدنا لامحالة، ولسوف أبذل قصارى جهدي من أجل أن تكون أنت الذي يموت لأنك تستحق أن تُقتَل ألف مرة.

وإذ بالاسرائيلي يصفق له بكلتا يديه، دون إحداث صوت، بينما كان يرمق مراد بالكثير من الإستخفاف، إلى أن ردد:

- برافو يا مراد! برافو!

ثم صمت لبرهة، إلى أن أضاف متهكماً من جديد:

- يا لك من غبي.

فهتف به مراد بصوت خافت:

- إذهب الى الجحيم أيها السفاح القذر!

وهمّ الفلسطيني بالنهوض، ولكن آريل أمسك برسغه، متمتماً، وقد عاودته الإبتسامة الواهية:

- إجلس يا مراد فلديّ ما أقوله لك.

وسحب مراد يده بقوة من يد غريمه ونهره سائلاً، قبل أن يجلس:

- ماذا تريد؟ قل ما لديك ولننتهي.

وهز الإسرائيلي رأسه بسخرية، ذات اليمين وذات اليسار، ثم قال بتهكم، ونفس الإبتسامة لا تفارق شفتيه الدقيقتين:

- الرجلان اللذان ضربتهما في الشارع، يا بطل، جالسان إلى الطاولة خلفك تماماً ولديهما رغبة كبيرة في إفراغ رصاص مسدسيهما في رأسك.

ولم يبد مراد حراكاً، ولم يلتفت ليتحقق مما سمع للتو، بل ظل هادئاً ثابتاً، وموجهاً لآريل نظرة اشمئزاز. وإزاء صمت مراد قال آريل:

- يا لك من بطل...لم تهتز لك شعره... ممثلٌ بارع...ولكن هذا ليس كل شئ أيها الأحمق، فعلى الطاولة المحاذية لطاولة صديقيْك الذين ضربتهما، أي خلفك على اليمين، يجلس رجل وامرأة لم يكفا عن الحديث منذ وصولهما. إنهما أيضا من فريقي.

ولم تطرف لمراد عين، ولا بدا عليه أدنى اهتمام بكلام آريل، فاستطرد هذا الأخير قائلاً بتهكم:

- وفي الطاولة الثانية، أيضا على يمينك، هناك رجلان آخران ينتظران مني إشارة كي يقتلانك في الحال. ما رأيك يا شاطر؟ هل فهمتَ الآن مَن مِنا سيموت اليوم؟

قال آريل ذلك ورمى بجذعه إلى مسند كرسيه، متأملا وجه مراد، ومتمتعاً بلحظة انتصاره عليه. أما مراد فلم يحرك ساكناً ولم يطرأ على وجهه أي تعبير ينم عن قلقه، رغم أنه أدرك أن آريل قد نصب له فخاً كان يُعِدُّ له منذ أيام. وبقي صامتاً، وموجهاً لعدوّهِ نظرة احتقار، بينما كان يلفُّ المقهى في تلك اللحظات جو من الاستجمام، مصحوباً بأصوات النُدّل وبأحاديث جمّة، بصوت عالٍ، مختلطة بقهقهات تردُ من هنا وهناك.

وإزاء صمته، الذي كان يدمّر أعصاب آريل، استطرد هذا الأخير قائلا بتَشَفّي:

- كما ترى فأنت محاصر تماماً، وما عليك إلا أن تنهض من مكانك وتسير نحو مدخل المقهى بأدب جم وعقل كبير، لأن أية حركة مريبة منك ستكون كافية لأن نفتح نحن السبعة نيران أسلحتنا عليك.

وهنا تكلم مراد بهدوء تام، محاولاً كسب بعض الوقت، بينما كان آريل قد بدأ يستغرب الطمأنينة التي لم تفارق وجهه:

- حسنا، تفتحون النار عليْ، ثم ما الذي سيحصُلُ لكُم بعد ذلك؟

وردّ الإسرائيلي بصلافة:

- لا عليك. لا تقلق نفسك، فنحن نعرف كيف نعتني بأنفسنا. لن تكون هذه هي المرة الأولى التي يُعتقل فيها ضباط من الموساد في دولة أوروبية ثم يجري إطلاق سراحهم وإعادتهم إلى إسرائيل، مهما كانت التهم الموجهة إليهم. هل اطمأننت علينا الآن؟ هيا انهض ونحن نسير خلفك.

وظل مراد صامتاً، فأطلق آريل ضحكة مخنوقة، ثم تكلم من جديد وبنبرة ازدراء:

- إن دمك أيها الفلسطيني، وكما لا شك تعلم، لا يساوي شيئاً في هذه البلاد، فما بالك إذا كان قاتلك من الموساد، فأنت تعلم أننا نسرح ونمرح في إسبانيا على هوانا، كما نفعل في بلدان أوروبية كثيرة، وما الشرطة والاستخبارات الإسبانية بالنسبة لنا سوى تلامذة نعلمهم ونعطيهم الدورات الدراسية، وندربُهم، ولطالما انصاعوا لإرادتنا.

- هذا ما تتوهمونه. ولكن قل لي، ما الذي تريدونه مني؟

وهز آريل إصبعه الشاهد باتجاه مراد وقال ضاحكا:

- لعبة كسب الوقت؟ هيه؟ تحسب أنك ذكي وتسأل أسئلة تعرف جوابها مسبقًا. مهما أضعت من وقت فإنك قادم معنا لا محالة أو مقتول هنا خلال دقائق قليلة. هل تريد أن تجرب؟ ولكننا نفضل أن تتشرف بمرافقتك لنا إلى إسرائيل، وهناك سيتولى أمرك الجنرال باراك بنفسه. إنها أوامره، وأنت تعرف كم هو صارم حيال من لا ينفذ أوامره منا.
- ألهذه الدرجة أصبحت مهما بالنسبة لكم؟ الجنرال باراك نفسه يريدني.

قال مراد جملته الأخيرة بصوت عال كأنما ليسمعه الآخرون... قالها بالعربية التي كان يتحدث بها مع آريل منذ البداية.

وفوجئ آريل بارتفاع صوت الفلسطيني وكأنما كان في هتاف، وتلفت حوله فوجد نظرات الإستهجان تتجه إليه وإلى مراد، فإذ به وبدون شعور ينهرُ هذا الأخير ويُوبِّخَهُ بوجه مصفَرْ، قائلاً بنبرة تحذير نهائي وقاطع، ولكن بصوت خفيض:

- إسمع أيها الحقير، أقسم أنني قاتلك للتو هنا وفي الحال إذا حاولت لفت انتباه الحضور إلينا، ولا تلومَنّ إلا نفسك. هيا انهض وسر أمامي.

لكن مراد لم يتحرك... ونظر إلى آريل مستهزءاً به وهو يردد:

- الجنرال باراك بنفسه مهتم بي؟ لماذا يا ترى؟
- يبدو أنك بالنسبة له أهم مما تتصور يا مراد. هيا انهض ونفذ ما قلته لك بالحرف وبكل هدوء الدنيا.

لكن مراد لم يتحرك، ولم تكن لديه أدنى نية في تنفيذ أوامر آريل، وأدرك أنها معركته الختامية وأنه لربما قاتل هذا المجرم الإسرائيلي اليوم، وربما مقتول هو أيضا.

وعاد يسأل، وابتسامته الواهية عالقة بشفتيْه، لا تفارقهما:

- ولكن كيف أعددتَ هذا الفخ بكل هذه المهارة وأنا الذي كنت قد فاجأتك في الشارع ولحقتُ بك، وكنتَ تهرب مني طيلة الوقت؟

وأطلق آريل ضحكة عالية، سرعان ما لجمها متلفتـاً حوله ثم قال:

- أنت فاجأتني؟ أستغرب منك يا مراد أن تكون قد نسيت أصول اللعبة ولم يمض عليك في التقاعُد سوى ثلاث سنوات. يا رجل نحن خلفك منذ ليلة أمس، واليوم رصدناك وتابعناك حتى مقهاك المفضل، وكان علينا استدراجك لنوصلك إلى هنا.. إلى الفخ كما تقول.. لقد بقيتُ واقفاً هناك بين الناس أرقبُ ذيْنك الشحّاذيْن لنصف ساعة، كي تراني.

- يا سلام.

قالها مراد بتهكم.

- أحد رجالي، هذا الجالس على يمينك الآن، كان جالساً على يمينك أيضا بينما كنت تنظر عبر النافذة، في المقهى. وحال أن تيقّن من أنني قد لفتُّ انتباهك إليّ، فقد بدا ذلك جليا على وجهك، وفي تصرفاتك، اتصل بي ليخبرني أن السمكة قد بلعت الطعم، فمشيتُ حتى مررت تحت شباكك، وسرعان ما لحقتَ بي أيها الذكي. أكل مخابراتكم بهذا الذكاء؟

- إذن لماذا أرسلت لي العملاقين ليمنعاني عن مطاردتك؟

- إنهما غبيان، مثلك، إنهما أشد حماسة مني للقضاء عليك، وكادا أن يُفشلا خطتي. كانت مهمتهما فقط مراقبتك وتعقبُ خطواتك، ولكنهما خرجا عن التعليمات وتحرشا بك. على فكرة...إنك ممتاز في التاكوُندو يا مراد، وما زلت تحتفظ بلياقتك البدنية تماماً. ولكن ما الفائدة يا مسكين؟

وعاد آريل يضحك من جديد.

- والشرطيان؟ ورجال الشرطة الذين استوقفوني؟

- لا علاقة لنا بهم، هو مجرد سوء طالعك، فيومك هذا مشؤوم يا مراد.
- ولماذا هنا بالذات؟ لماذا نصبت لي الفخ هنا أيها الخارق الذكاء؟

ولم تعجب عبارة مراد هذه ولا نبرته الهادئة آريل، وشعر أن فيها ثقة بالنفس لم يستطع فهم كنهها، فقال:

- أراك واثقاً من نفسك... طبعا لأنك تفكر بأنك ستموت شهيداً، وهذا لربما يؤدي بك إلى اقتراف حماقة أؤكد لك أنك في غنى عنها. وإذا قلت لك أن الجنرال باراك بنفسه قد أوصى بك خيراً فصدقني، لكنه أمر بإعدامك إن رفضت مرافقتنا لمقابلته في إسرائيل.
- لم تجبني على سؤالي.
- آه ! أتريد أن تعرف طريقة عملنا؟ حسناً. إننا لم نعثر في كل هذه المنطقة من المدينة على مكان أفضل من هذا لننصب الفخ لك فيه. وهل تعرف في الجوار أفضل من هذا المقهى يا مراد؟ إنه مقهى واسع فسيح لا يسمع أحد فيه كلامنا، ومكان جيد لنصب فخ لرجل خبير ومسلح مثلك، ثم أنه بوسعنا أن نهبط من هذا الطابق مباشرة إلى مرأب السيارات، تحت الأرض، ونخرج منه بسيارة دبلوماسية لا يمكن أن يعترض طريقها أحد.
- لطالما كانت سفاراتكم أوكار إرهاب.

قال مراد عبارته هذه بنبرة شديدة الحزم، وبصوت عال، فإذ بالرجل والمرأة الجالسين على يمينه ينهضان لتوهما متأهبين، لكنهما عادا إلى الجلوس بإشارة من يد آريل.

وكسا وجه الإسرائيلي تجهم غير معهود منذ بداية اللقاء، إذ ضاق ذرعاً بمماطلة مراد وعدم انصياعه لأوامره، بل وعدم اهتمامه بها، فوجّه إلى مراد أمراً قاطعاً، وبنبرة تنم عن عدم الاستعداد نهائياً لمزيد من النقاش، بينما كان يهم بالنهوض:

- إسمع أيها الفلسطيني، إنهض لتوك أو مت لتوك. أنت تختار.

وهنا أمسك مراد برسغ آريل بكل قوته، وأمره بالجلوس، موجهاً إليه نظرته الصقيعية التي أربكت الإسرائيلي، إذ لم يستطع حتى تلك اللحظة استشفاف كنهها أو سرّها:

- إجلس، فلديّ أنا أيضا مفاجأة ستسرّك كثيراً.

وفوجئ آريل بينما كان يجلس من جديد، سائلاً بقلق:

- ماذا بعد؟ هات ما لديك وبسرعه.

عادت نظرة الإزدراء إلى عينيّ مراد من جديد وهو يقول:

- هل تذكر الفدائييْن الفلسطينييْن اللذين قتلا رجالك الثلاثة في بوينوس آيريس وحرراني من قبضتهما عندما كانوا يستعدون لقتلي بأمر منك أيها المجرم؟

- وما علاقة هذا بما نحن فيه؟ لا تضيّع وقتنا فلم يتبق لموعد الطائرة التي ستقلنا لى تل أبيب سوى ثلاث ساعات، هيا تحرك.

- آه. الطائرة بانتظارنا، طبعا طائرة خطوطكم الجوية إل عال. إنكم بسفاراتكم وطائراتكم وقتَلَتكُم، وأنت واحدٌ منهم، تشكلون أكبر منظمةٍ إرهابيةٍ على مستوىَ العالم كله.

- ولكنك ستركب معنا في خطوطنا الجوية، شئتَ أم أبيت.

- مهلاً مهلاً أيها الفاشل ... الرجلان المذكوران هما عبد الله القروي وجورج عطيه... وإنك تعرفهما جيداً، فلطالما بحثت عنهما في دول كثيرة، كما أنهما يعرفانك جيداً ويعرفان...

وبتهكم ظاهر، وبقلق شديد في الأعماق، قاطعه الإسرائيلي قائلاً:

- ثم ماذا؟ اليوم أنتْ، وغداً أوبعد غد يأتي دور كل منهما. نحن نعرف كل شيء عنهما. القروي يقيم في القاهرة وعطيه في كندا، في أوتاوا بالذات.

واتسعت ابتسامة مراد وظل صامتـًا كأنه يلعب بأعصاب آريل، وهو ما تحـقـق له بالفعل إذ انفجر الإسرائيلي هاتـفـًا:

- ثم ماذا؟ ما شأنهما بما نحن فيه الآن؟!

كان آريل يعلم أنه لا يستطيع إجبار مراد على اصطحابه بالقوة، كما أنه لا يستطيع إطلاق النار عليه هناك وسط ذلك الحشد من رواد المقهى وبوجود قوة من الشرطة الإسبانية باستمرار في ساحة كياو، تحت نوافذ المقهى، إضافة إلى دوريات من الشرطة تجوب تلك المنطقة باستمرار. ولذلك فإن تلكؤَ مراد المتواصل بالإنصياع لأمره بمرافقته كان يزيد من حنقه وتوتّره.

وثبّـت مراد نظرة ناريه هذه المرة في عينيْ آريل، وقال له بصوت خفـيض، وبتهكم وكأنه يمازحه:

- أيها الذكي، لقد حاصرتـني من أربع جهات ولكـنك لـم تؤمِّـن ظهرك أنت.

وبُهـتَ الإسرائيلي من جديد، وندَت عـنه دونما إرادة كلمة:

- ماذا!؟

- القروي وعـطـيه معي هـنا يا عـبقريّ زمانك. عـبد الله خلفك تمامـًا، أما جورج فإنه يجلس خلف العـملاقين فقد تعـقـبهما منذ أن تعـرضا لي.

وتلفت آريل حوله بقلق شديد، ثم راح ينظر لمراد مكـفهـرّ الوجه، ومردداً بحنق:

- كيف؟ كيف فعلت ذلك؟

- طبعا أنت تعرف كم يحبانك عبد الله القروي وجورج عـطية. وعلى فكرة، كل منهما يحمل مسدسـًا شبيهـًا بمسدسك الإسباني، نحن أيضا أوفـياء لإخواننا الإسبان، فلا تـنسى أنهم إخواننا وليسوا أصدقاءنا كما هم بالنسبة إليكم.

وبدا أنه أسقط في يد آريل، فهو يعرف الرجلين اللذان قُتِل على أيديهما عدد من ضباط الموساد في أنحاء العالم، واللذان دوّخا الإستخبارات الخارجية الاسرائيلية طيلة الثلاثين سنة الأخيرة. وتذكّر من بين ما تذكر أن مدريد نفسها كانت مسرحاً لاغتيال أحد كبار ضباط الموساد، عرض الشارع وفي وضح النهار، في السبعينات، أي قبل أكثر من خمس وثلاثين سنة، وعلى بعد أمتار قليلة من هذا المقهى الذي يجلس فيه. ولم يُلقَ القبض على قاتل ذلك الضابط أبداً.

وبعد برهة صمت، تساءل آريل محبَطًا:

- ولكن كيف ومتى!؟
- الآن أنت من يطرح الأسئلة لكسب الوقت. سبحان مغير الأحوال. حسنًا.. لقد أجبتني على تساؤلاتي ولن أكون أقل منك كرمًا. بعد أن شاهدتك اليوم وتأكدت من شخصيتك اتصلت بجورج وأخبرته، وقلتُ له أن يبلِّغ عبد الله. لقد كان الإثنان موجودان في مدريد منذ أيام، إذ وُجِّهتْ إليهما الأوامر بالمجيء إلى هنا، بعد أن رُصدَ وصول مجموعتكم لمدريد، وقد اجتمعا بي حال وصولهما وأخبراني أنهما يتعقبانك، وأن أكون حذراً منك، لأنك لا شك قدمتَ إلى إسبانيا متقفيًا أثري.

وكان آريل يستمع إلى مراد وينظر إليه نظرة فيها من البلاهة أكثر مما فيها من الدهشة، فقد كان وقعُ الصدمة عليه أكثر مما كان يحتمل، ولم يعد يأبه بتمثيل دور الهدوء والإستخفاف بمراد، بل صار حائراً في أمر نفسه، وماذا تراه يفعل.

واستطرد مراد وهو يتمتع بلحظة النصر هذه حتى الثمالة، فأضاف قائلاً:

- هذا من ناحية «كيف» التي سألت عنها، أما من ناحية «متى» فمن الواضح أن فريقك قد سبقك إلى هذا المقهى، فقد كنتم متفقين

على استدراجي إليه، أما جورج وعبد الله فقد دخلا بعدي واتخذا موقعين يتحكمان منهما بكم جميعا، لاسيما بك أنت.

وتدخل آريل متسائلاً مُحْبطًا:

- ولكن......

لكن مراد لم يأبه به، وتابع قائلاً:

- إن مجموعتك من السذاجة لدرجة أنهم كانوا لا يراقبون أحداً في المقهى غيري، ولم ينتبه أي منهم لدخول جورج وعبد الله، رغم أنكم تعرفونهما حق المعرفة، ورغم أن زملاءك في الموساد يختزنون وجهيْهما وملامحِهما في الذاكرة، كما يختزنون وجهي وملامحي.

وحانت من آريل التفاة إلى الخلف أراد بها أن يتأكد بنفسه من أقوال مراد، فإذ به وعبد الله يبتسم له بازدراء، فالتفتَ إلى طاولة العملاقين فألفى خلفهما بالفعل جورج عطيه. وعاد آريل ينظر إلى مراد ويهز رأسه أعلى وأسفل كمن يأسف على شيء ما، ثم قال:

- ذكي. أنت ذكي وبارع.

- على فكرة! ألم تلاحظ أن عبد الله يضع يداً واحدة فوق الطاولة، فأين يا ترى تُوجد يده الأخرى؟

ألقى بسؤاله هذا بتهكم شديد، ثم استطرد قائلا:

- اليد الأخرى تحت الطاولة، ويمسك بها مسدسه مصوباً لك، وإصبعه على الزناد، وطبعاً لا أحد يرى مسدسه بفضل غطاء الطاولة، فأي حركة مشبوهة من رجالك تكون أنت من بيننا جميعا أول من يقع قتيلاً.

وهزّ آريل رأسه من جديد، والتفت إلى عبد الله، فلم ير إلا يده اليسرى بينما كانت اليمنى مختفية فعلاً، فتغيرت سحنته تمامًا، لتعكس مدى الإنهيار النفسي الذي كان قد بدأ يعاني منه. ولزم الصمت،

بينما لم يكن يزيح نظره عن مراد، الذي كان بدوره ينظر إليه بابتسامته الواهية.

وساد الصمت بينهما لبرهة، قال بعدها مراد:

- دعك من المشاكل يا آريل، وأصدر الأمر لفريقك بمغادرة المقهى والمبنى فوراً، وابقى أنت معنا هنا لنكمل حديثنا.
- ماذا!؟
- ما سمعته يا آريل. لينصرفوا جميعًا، الرجال الخمسة والمرأة، بحيث أراهم عبر هذه النافذة في ساحة كيّاو، لا يتحركون منها حتى تصدر لهم أنت الأوامر من جديد. شكراً على اختيارك هذا المكان الممتاز لتنفيذ أوامري، فمن هنا وبكل سهولة أستطيع التأكد من وجود كامل أفراد عصابتك في هذه الساحة تحتنا.

وأسقط في يد الإسرائيلي فما عساه يفعل!!، وحاول كسب الوقت. ولاحظ رفاق آريل الأربعة الجالسين قبالته التجهم الذي كسا وجه قائدهم الكهل، وأدركوا أن خطته لا تسير على ما يرام. فرنّ هاتف آريل وكان ممسكًا به بيده، فنظر إليه متردداً دون أن يرد على المكالمه، فأخذ مراد الهاتف من يده، ونظر إلى إسم المُهاتف، ثم همهم قائلاً يحدث آريل:

- آه، إنها نعومي، رفيقتك القديمه، أهي الجالسة خلفي؟

وهز آريل رأسه بالإيجاب، فناوله مراد الهاتف وقال له:

- قل لها أن تنفذ الأوامر مع زملائها بدون تلكؤ. قل لها أن تحذف من حساباتها قطعيًا أي محاولة لتحريرك من أيدينا عندما نجتاز برفقتك ساحة كيّاو متجهين إلى محطة المترو فيها. سنرافقك بالمترو إلى حيث تنتظرنا سيارة ستحملنا إلى مكان آمن، نستطيع فيه تبادل الحديث بهدوء جم، تمامًا كما يحلو لك أن يكون الحديث. أنت تحب الحديث الهادئ، أليس كذلك يا آريل؟ هيّا قل لها ما يتعين عليها وعلى زملائها فعله.

وتبادل آريل نظرات القلق عن بعد مع نعومي، بينما كان ينظر أيضاً للهاتف الذي كان ما زال يرن، لكن مراد حثه بنظرة حازمة على الرد على المكالمه، فقرّب الإسرائيلي الهاتف من أذنه وثبت نظرته في طاولته، دون أن يرفع رأسه، ثم قال بالعبرية وهو يعلم أن مراد يتكلمها بطلاقة وإتقان:

- نعومي، إسمعيني جيداً، الخطة فشلت، نحن محاصرون، خذي الجميع إلى الساحة تحتنا، وابقوا هناك معاً كي يتمكن هذا الفلسطيني من رؤيتكم بوضوح، ولا تتحركوا من هناك حتى تتلقوا أوامر جديدة مني. لا تحاولوا إنقاذي عندما أمرُّ أمامكم عبر الساحة ومعي الفلسطيني ورجاله. أكرر، لا تحاولوا إنقاذي.

قال آريل كلماته الأخيرة هذه وقد رفع رأسه ناظراً لنعومي، التي بدَت فاغرة الفاه لا تصدق ما كانت تسمعه، ثم أغلَق الهاتف فوراً دون أن ينتظر أي رد من محدثته.

إبتسم مراد قائلا:

- تكرار أمرك لها بعدم محاولة إنقاذك كانت بمثابة تأكيد منك على ضرورة أن يحاولوا إنقاذك عندما نعبر الساحة برفقتك. على هامان يا فرعون؟ على العموم إفعلوا ما بدا لكم وستندمون أشد الندم.
- لا. لا. لن أخاطر بحياة أحد من فريقي يا مراد.

بكلماته هذه سارع آريل إلى نفي الإتهام الذي وجهَه له مراد، بينما كان يحدِّث نفسه قائلاً «يالك من شيطان لا تفُتكَ فائِته!».

ترددت نعومي للحظات بعد استماعها لأوامر آريل، قبل أن تهمس بالأوامر الجديدة لجليسها، الذي انتفض واقفاً مجوِّلاً نظره في أنحاء المقهى، بينما كانت المرأة تدعو العملاقين إلى النهوض، وتُحدِّثُ زميليْها الآخريْن هاتفياً، وتشير إليهما بيدها لإبلاغهما بالأوامر الجديدة، فنهضا للتوّ، وكانا قد فهما تقريباً ما يحدث منذ

أن رنّ هاتف آريل ولاحظا أن مكلّمته كانت نعومي، وأن وجهها كان ممتقعاً وهي تستمع لرئيسها.

وانسحب العملاء الستة من المقهى بهدوء، بعد أن اعترض طريقهم النادل، ودفع لهم بثلاث فواتير أنقَدوهُ قيمتها وغادروا المكان، بينما كان آريل يرقبهم من مكانه، وكأن على رأسه الطير، صامتاً مكفهرّ الوجه.

ساد الصمت لبرهة بين مراد وآريل، بينما كانا ينظران معاً عبر النافذة، دون أن يفارق أي منهما مقعده، بانتظار ظهور العملاء الإسرائيليين الستة في الساحة، بينما كان جورج واقفاً خلف الإسرائيلي يرقب كل حركة تبدر عنه. وواقع الأمر أن آريل كان يتظاهر بأنه مشغول بترقب ظهور رفاقه في الساحة، بينما كان في الحقيقة يُعمِل الذهن باحثاً عن طريقة تتيحُ له الإفلات من الفخ الذي كان قد وقع فيه. وخطر له أن يثير شجاراً في المقهى يستدعي تدخل الآخرين ثم الشرطة، مما سيتيح له الإفلات من مراد وزميليه. وإذا بصوت مراد يأتيه هامساً دون أن يحوّل نظره عن ساحة كياو الممتدة تحته:

- آريل، أعرفك تماماً ومنذ سنوات طويلة، إن بدت منك أية محاولة للإفلات مني، كأن تثير هنا شجاراً بيني وبينك، أو شجاراً مع غيري، سنطلق ثلاثتنا النار عليك للتو واللحظة، ووسط الهرج والمرج الذي سيتبع ذلك، وعبر الطوابق السبعة لهذا المبنى ومخارجه المتعددة، سيكون من الصعب جدا اعتقالنا. حاذر إذن مما تفكر به. وتذكّر أن زميلك الذي قتِل على مرمى حجر من هذا المقهى قبل سنين كثيرة، في شارع غرانبيا الذي تراه أمامك، وسط المارّة، لم يُعثر أبداً على زميلنا الذي قتله.

ولم يتمالك آريل، وهو يسمع كلمات مراد هذه، سوى أن ابتسم رغماً عنه... يالك يا مراد من جِنّي... كل ما قيل عنك لهو قليل.

واستطرد مراد قائلاً:

- اليوم لا بد وأن يموت أحدنا، بعد أن نتحدث طويلاً، فلا مكان في هـذا العالم لي ولك معـًا، إما أنت وإما أنا، ولكن ليس هـنا بين الأبرياء، فالنهار ما زال أمامنا طويلاً وكذلك الليل، وهناك أماكن أخرى أكثر ملائمة لمعـركتنا الفاصلة.

كان آريل يستمع لمراد وقد راودته آمال جديدة بأن النصر سيكون له، وأن رجاله لابُدّ وأن ينقذوه من يد الفلسطينيين في ساحة كيّاو، وربما في أنفاق المترو، التي تتيح مجالاً واسعـًا للمناورة والفرار. هكذا كان يُمنّي نفسه.

وشاهد مراد عبر النافذة العـملاء الإسرائيليين الستة وهـم يتوسـطـون ساحة كيّاو، ورأى بعـضهـم ينظرون إلى أعلى تجاه نوافذ المقهى، وكان يعـلـم أنه يتعـيّن عليه مغادرة المبنى مع أسيره، قـبل أن يطلب العـملاء الستة مساعـدة زملاء آخرين لهم.

ونادى مراد رفـيقه عـبد الله بإشارة من يده، فـلبى هذا الأخير النداء فـوراً، وطلب منه أن يبقى مراقـبـًا للعـملاء الستة عبر النافـذة، وأن يخبره فـوراً فـيما لو غادر الساحة أحد منهم. وفي هـذه الأثناء كان النادل يهرول ملبيـًا إشارة من عبد الله، ومعه فواتير الحساب، التي تكفل جورج بدفعها، بينما كان مراد يأمر آريل بالنهـوض.

غادر مراد وجورج المقهى يرافـقـهما آريل باتجاه المصاعـد. وحال انغلاق باب المصعد عـليهم دون وجود أحد غـيرهـم فـيه، أمر مراد الإسرائيلي أن يعـطيه مسدسه فسـلّـمَه هـذا الأخير المسدس دون أن ينبس بكلمة، وهو يرى فوهة سلاح جورج مصوبـًا تجاه رأسه. وبإشارة من مراد قام جورج بتفـتيش آريل تفـتيشـًا دقـيـقـًا وسريعـًا بحثـًا عن أية أسلحة أخرى، أو أجهزة تـنصت أو متابعـة عـبر الستلايت يُمكن أن تكون بحوزة الإسرائيلي، ولكـنه لـم يعـثر معه على شيء من هذا القـبيل، فأخـذ منه هاتـفه الجوال وأخرج منه بطاريته وفـحـص بعـناية مكـونات الهاتـف قـبل أن يسلـّمَه لمـراد مع البطارية منزوعة منه.

وخرج الرجال الثلاثة من المصعد في الطابق الأول تحت الأرض، حيث مرأب السيارات. ولما وجد آريل نفسه في مرأب السيارات توقف عن السير، محاولاً المقاومة، مخاطباً مراد بصوتٍ مختنق:

- ولكنك قلت أننا سنعبر ساحة كيّاو... ياللك من وغد... يا لك من جبان... يا لك....

وقاطعه مراد قائلاً له، متهكماً، بينما كان يدفعه بيده اليمنى كي يستمر في المشي أمامه:

- غبي هو من يعتقد أن غيره أغبياء. لم يكن هناك أية نية للخروج بك إلى ساحة كياو، ولقد بلعت الطُعم أنت وفريقك وصرتم تعدّون العدة لتخليصك من أيدينا، حتى ولو أدى ذلك إلى ارتكابكم مذبحة في الميدان الزاخر بالمارة. وأخيراً سأريح البشرية منك ومن إجرامك، كان يتعيّن عليّ أن أفعل ذلك منذ سنوات طويله.

- جبان... إنكم جبناء.

- تكلم بحرية فنحن في بلد فيه مجال واسع لحرية الرأي.

قال مراد جملته هذه ضاحكاً، وهو يبادل جورج نظرات التهكم والتغامز على آريل، ثم نَهَر الإسرائيليَّ من جديد بينما كان يدفعه بقوة إلى داخل سيارة ذات نوافذ داكنة اللون، ولوحة دبلوماسية حمراء، قائلاً بحزم:

- كما ترى، نحن نقوم بتنفيذ الخطة التي كنت تعدها لي، مرأب السيارات تحت الأرض والسيارة ذات اللوحة الدبلوماسية. غير أن سيارتك تتبع سفارتك وسيارتنا لا سفارة وراءها.

- سيارة بلوحة مزورة! يا لكم من أوغاد وجبناء.

- أوغاد هم من يستخدمون سفاراتهم في أعمال إجرامية وإرهابية. هيا اصعد إلى السيارة وتابع إلقاء خطابك عن الجبن والجبناء، فأنت خبير بهذا الموضوع، أيها الإرهابي المجرم.

وصرخ آريل كمن فقد عقله:

- نعم أنتم جبناء، وكلكم رعبٌ من اجتياز ساحة كيّاو لأنكم تخافون مواجهة رجالي فيها.

فدفعه مراد بيده من جديد، وبعنف، مردداً، وهو يبتسم لجورج، الذي كان يهم بضرب آريل، لولا أن مراد منعه من ذلك:

- أدخل السيارة أيها الرعديد. أنت ودولتك ما كنتم لتساوا قشرةَ بصَلة لولا الأمريكان.

وعندما جلس الجميع في السيارة، جورج في مقعد السائق، ومراد وآريل في المقعد الخلفي، ثبّت الأول فوهة مسدسه في خاصرة الثاني، الذي كان في تلك اللحظات يعاني من حالة انهيار عصبي يُرثى لها، وقال له مؤنباً بصوت عال:

- أعرف أنك قد أكدتَ على نعومي عبر الهاتف أن يستعدوا لتحريرك في الساحة. إنك وقد تجاوزت الخامسة والخمسين من عمرك تبدو أكثر حماقة مما عهدته فيك في سابق عهدك.

غادرت السيارة بركابها الثلاثة المرأب، وانطلقت عبر شارع غرانبيا باتجاه ميدان إسبانيا، ثم انحرفت يساراً باتجاه الطريق السريعة المؤدية إلى الحدود البرتغالية، في الوقت الذي كان فيه عبد الله يتلقى الأمر من مراد بمغادرة المكان فوراً والإلتقاء بهم في المكان المتفق عليه مسبقاً، في إحدى ضواحي مدينة تلابيرا، على مسافة ساعة من مدريد.

عندما غادروا تلابيرا، كان آريل يجلس في المقعد الخلفي من السيارة مطأطأ الرأس، وقد قُيِّدَت يداه خلف ظهره بالكلبشات، وعلى يساره جلس مراد، بينما كان جورج ينطلق بالسيارة ذات اللوحة الدبلوماسية بسرعة فائقة، يتبادل الحديث مع عبد الله، الجالس إلى يمينه، حول توقعاتهما لمباراة الكلاسيكو لكرة القدم، المنتظرة مساء ذلك اليوم، بين الريال مدريد والبرشلونة.

مارس 2011

كُتب أخرى وترجمات للمؤلف

1- المؤتمر (مجموعة قصص) دار أمية. مدريد. 1995

2- مريم (مجموعة قصص) دار الكرمل. عمّان. 1996

3- سنابل الحياة (شعر) مدريد. دار ألواح وVisión Libros. مدريد.2007

4- سنابل الندى (شعر) عمّان. دار أزمنه. عمّان. 2009

5- سنابل الشرر (شعر) دار أزمنه. عمّان. 2010

6- الجدول الخفي (شعر) مطبعة كويك برنت. تونس. 2024

7- (قمرزاد والساحر فلور والممالك الخمس) Amarzad, el mago Flor y los cinco reinos الإسبانية رواية باللغة دار نوبيا إستريّا Ediciones Nueva Estrella. مدريد. 2022

8- ترجمة رواية نبيل خوري (حارة النصارى) إلى الإسبانية. Nabil Juri. El Barrio Cristiano .1995.مدريد Madrid Cantarabia

9- ترجمة رواية سيمون حايك (بلاي الرومي) إلى الإسبانية. مدريد Simon .Pelayo el Cristiano . Diwan.2018 Hayek.

10- ترجمة المجموعة الشعرية لفيكتوريا كارو بيرنال، (أرض حبيبه...روح الكمال) من الإسبانية إلى العربية. دار ديوان. مدريد. Tierra amada. Espíritu de perfección.Victoria Caro Bernal. 2018

11- ترجمة كتاب (على حدود المقدمات) لبيدرو مارتينيث مونتابيث، مؤسسة الفكر العربي، بيروت. 2022. En las Fronteras del Prólogo. Pedro Martínez Montávez.

12- ترجمة كتاب (مختصر تاريخ الأدب الإسباني)، ألبيرتو دي فروتوس، قيد الإصدار، بيروت، 2024

(Breve Historia de la Literatura Española), Alberto de Frutos Dávalo, Nowtilus, Madrid

الموقع الألكتروني للمؤلف: *www.arabehispano.net*

الفهرس

رواية: الوقائع الحقيقية لحياةٍ مسرحية